

الدكتور محمد مندور

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

نماذج بشرية

بقلم

الدكتور محمد مندور

الطبعة الرابعة

طبعة مزيدة ومنقحة

دار نهضة مصر للطبع والنشر

إهــــداء

اعتدت أن أملى على زوجتى ما أكتب أو أقرؤه عليهـا بعد الفراغ منه ، وهى أديبـة تجيـد النثر والشعر ، وأنا شديد الثقـة بذوقها الأدبى الذى أدركتـه فيهـا وهى لا تزال طالبـة بكليـة الآداب .
ولقـد كان هـذا الذوق دائما خير عون لى على الرجوع عما قـد تسوقنى إليه حرارة القلم عندما يتملكنى الموضوع فأندفع فى أعقابه .
ولقـد تناولت هـذه النماذج بالمراجعـة قبل جمعهـا فى الكتـاب الحـالى ، فاذا بى أرجع إلى ما كانت قـد رأته عنـد الكتـابة الأولى فى عـدد من المواضع . وإن يكن هنـاك إنسان قـد أحس بكل ما وضعت فى هـذا الكتـاب من تفكيرى وإحساسى ، فهو لا ريب هـذه الزوجة العزيزة .

ولقـد حرصت على أن تظهر القراء على ما فى هـذه النماذج من جهـد مستور وصنعة خفيـة فقدمتها إليهم . وتلك ولا ريب سـنة قـد تبـدو جـديدة ، ولكنهـا سنة خيرة .

وهأنذا أهـدى إليهـا هـذا الكتـاب رمزا لمـا أحمل لهـا من محبـة ووفاء .

محمـد منـدور

مقـــدمة

بقـــلم ملك عبـــد العزيز

« للكاتب الايطالى المعروف بيرندللو رواية مسرحية هى : (ست شـــخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود) • وهـــذا معنى الخلق فى الأدب • ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضـــة حائرة حتى يتـــاح لهـــا مؤلف يجمع أشتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فاذا هى أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بهـــا تجتـــاز الأجيـــال مستقلة الوجود فى مأمن من الفنـــاء • لأنهـــا أعمق فى الحيـــاة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع » (ص ١) •

ذلك ما يبـــدأ به المؤلف كتـــابه ، وذلك ما أستعيره لأبـــدأ بـــه مقـــدمتى عن ذلك الـــكتاب • فإذا كان أولئك الكتاب الكبار خالقـــو تلك النماذج قـــد وجدوا شخصياتهم مبعثرة غامضة حائرة فى الحياة، فجمعوا أشتاتهـــا ووضحوا معالمهـــا ودعموا حياتهـــا ، فكذلك قـــد وجـــد المؤلف تلك الشخصيات مبعثرة حائرة ، ولكن فى كتبهم ، التى صارت أعمق فى الحيـــاة من كل حى وأصدق دلالة من كل واقع فجمع أشتاتهـــا ووضح معالمهـــا ، فكان من ذلك خلق جـــديد •

وها هو جيتـــه يتحـــدث عن فوست قائلا : « تسألونى أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لى أن أعرفهـــا ؟ ثم أنى لى بالعبارة عنهـــا ؟ قـــد تكون جولة بين الأرض والســـماء ! هى خطوات أكثر منهـــا فكرة ، وإن يكن فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى ما زال وهو فى حمـــأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحـــه من الهـــلاك ـــ ما ينير الكثير من وقائع حيـــاته ، ولكن هـــذه ليست الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، ولا فى أى جزء من أجزائهـــا على انفراد •• » (ص ١٩) • ولقـــد يكون جيتـــه حقـــا لم يقصد إلى فـــكرة واحـــدة ، فكرة بذاتهـــا • ولكن هـــذا لا يمنع أنه قـــد تكون هنـــاك بالفعل فكرة فى قلب القصيدة • وما له يعى تلك الفكرة ،

والأدب لا يصــدر عن وعى كله ؟ بل ما له يحـددها فيمليهـــا على قرائه ويزجهم فى طريق واحــد مرســوم ؟ ولكنـــه تركهـا حائرة مبعثرة ليأتى ســواه يبحث عنها ويبرزها للضياء ، فيقول عن فاوست إنه : « عقــل طغى على القلب فأشقى صاحبه » (ص ٣٢) • ويقول عن حيــاته : « إن معنى تلك الحيــاة والأثر الذى خلقتــه خطى فاوست على صفحات الزمن هو أنه علينــا أن ندأب ما استــطعنا فى ســبيل المثــل العليــا ؛ وسيان بعــد ذلك أأصبتــا نجاحا أم إخفــاقا ، فالجهــاد نبل فى ذاته » (ص ٣٥) • وســواء أوافق جيتـــه على ذلك الفهم أم لم يوافق ، فليس له — وما أراد — أن يملى شيئا على قرائه ، فلكل منهم حرية الفهم كيفمــا يريد •

وهكذا جاء مؤلف « النمــاذج البشرية » فدرس جمــلة من عيون الأدب الغربى ثم رسم لنــا أوضح شخصياتهــا كما رسبت بنفسه ، وحدثتنــا عن أسرارها كمــا أوحت بهــا إليــه •

« النمــاذج البشرية » دراسة وخلق ••

هى دراسة ، فالمؤلف يحيط بتــاريخ الكتاب وبملابسات ما كتبوا وبالآراء المختلفــة فى فهم شخصياتهم والحكم عليهــا • يبرز ذلك حيث لا يثقل ، ويطويه حيث يفضل الطى • هى « كالنور الداخلى » يضىء دون أن يعشى • فلئن كان المؤلف يحرص على إيراد الحقــائق التاريخيــة حول الشخصية وخالقهــا ، فإنه لا يدعهــا تطغى على الخلق الفنى فتجفف ماءه • بل هــو لا يوردها جملة واحــدة ، بل يحتــال لينثرها هنــا وهنــاك حيث توحى المناسبات • ففى هملت نراه ينطقه فيحدثنــا عن نفسه ، مشيرا فيما يسوق من حديث إلى المصدر الذى استقى منــه شكسبير قصته • كل ذلك دون أن نحس أن المؤلف قــد قصد إلى شىء « ولو أننى بقيت على الفطرة كمــا خلقت لانتقمت لوالدى فى غير تردد ، ولكان بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحيــاة غير مخلف أثرا إلا أن تكون إشــارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيكوس يسوق اســمى بين من يسوق من

ملوك الدنيمركة ، ولعله يذكر ما كان من محاولتى الانتقــام لأبى »
(ص ٣٦) • ويضيف هملت ـــ وقــد أراد المؤلف أن يظهرنا على أن
قيمــة تلك المسرحيـــة الخالدة ليست فى موضوعها ، بل فى عـــلاج
هـــذا الموضـــوع : « وكم فى ثنايا التـــاريخ من أحداث كهذه طفا
القليل منهـــا على الزمن ، وهوى الكثير ، والنـــاس بعد لا يشغلون
أنفسهم بمـــا طفـــا أكثر من اشتغالهم بمـــا هوى ، ولكن شكسبير
قــــد خلقنى خلقــــا جــــديدا وأودع روحى من النفــاذ مالا أزال
أشقى به •• » (ص ٣٦) • وفى موضع آخر من هملت أيضا نرى
المؤلف يشير إلى الحـــالة النفسية التى كتب فيهـــا شكسبير قصته
« ونحن لا بــــد متسائلون عن مبلغ ما حمـــله خالقـــه العبقرى من
مرارة نفســـه ، وقـــد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما نزال إلى
اليوم حائرين فى فهم سرها ومداها ، وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة
من شـــعره الغنـــائى Sonnets الذى يدور حـــول ذلك العـــام »
عـــام ١٦٠٤ » (ص ٣٩) • وفى السست نراه ينطق موليير بقوله :
« وأنا الآن فى أزمة نفسية تكاد تهـــد كيانى ، فها هى زوجتى تحتمى
وراء المجاملات الاجتماعيـــة فتثير فى نفسى الغيرة تكوينى بنـــارها
كيـــا » (ص ٤٨) فيستعين بتلك الملابسة التاريخيـــة على تأييـــد
رأيه فى أن شعور موليير كان مع بطله السست ، إذ لم يجعله موضعا
للضحك فى بعض الأحيـــان إلا ليتقى غضب هيئـــة اجتماعية تؤمن
بالمجاملات وما بهـــا من نفاق ، وفى « أوليس » يصف معارك طروادة
ثم يقول : « وكانت معارك تبيض لهولهـــا النواصى إذ كانت كلهـــا
فى قسوة ملاحم السنة العـــاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صـــور
لنـــا جزءا منهـــا » (ص ١٠٣) ليخبرنا أن هوميروس لم يصف فى
ملحمتـــه من تلك الحرب سوى جزء من السنة الأخيرة •

ومن وسائله الجميلة فى إيراده الحقائق التاريخية أن نراه يمزج بين
النموذج ومؤلفـــه حين يرى أن المؤلف إنمـــا كان يصور جانبـــا من
نفســـه فى أنموذجه ، وفى هـــذا ما يجسم الشخصية الروائيـــة حتى

لتحسبها ولدت وعاشت واضطربت فى الحيــاة بالفعل • استمع إليــه يقول فى ســذاجة تضفى على الكلام خفــة وســحرا : « نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفانتيس بمقاطعة المــانش بأسبانيا » (ص ١٤) ، ويتــابع المؤلف تجسيمه لنماذجه ليضيف إلى حياتهــا حيــاة فيقول « فيجارو من رجال ســنة ١٧٨٠ الذين مهــدوا للثورة الفرنســية » (ص ٧) • فلو قــرأ تلك العبــارة من لم يسمع باسم ذلك البطــل لمــا داخــله شك فى أنه قــد عاش ومهــد للثورة بالفعل • وفى تلك السنة كتبت الرواية ، وفى تلك السنة خلق بومارشيه بطله فيجارو • ويمثل تلك السذاجة حدثنــا عن دخول كلمة فيجارو فى اللغة الفرنسية اســما لكل حــلاق بعــد أن ذاع صيت تلك الشــخصية الفريدة • « وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاقى الأرض يحملون ، اليوم ذلك الاسم » (ص ٨) • وحدثنــــا عن الروايات التى ظهر فيهــا ذلك البطل « ولقيــه المؤلف بومارشيه وقــد سئم مهنتــه ، ومن ذلك اليوم أحبــه ، فصاحب خطــاه فى الحيــاة ، وقص علينــا نبــأه فى مسرحيات ثلاث : حلاق أشبيليــه ، وزواج فيجارو ، والأم الجانيــة » (ص ٨) •

ورغم أن المؤلف إنمــا قصد إلى إحيــاء « النمــاذج البشرية » إلا أنه لم يغفــل أن يسوق شيئا من النقــد لفن الكاتب أو لطبيعة العمل الفنى ، ولكنــه يسوق ذلك كعــادته سوقا محكما فى السياق بحيث لا تحس له نفرة أو إقحاما • ففى « إبراهيم الكاتب » يقول : « وأنا بعــد لا أستطيع أن أتتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنــا لأننى لا أعرف قصته ، وإنمــا أعرف منهــا مرحلة قصيرة ، تذكرنى بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الســتارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنــا أمام أزمة من أزمات الحيــاة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتهــا وفقــا لطبائعهــا • ونحن بعــد لا نعرف ماضى تلك الطبــائع ولا نشأتهــا ، وإنمــا ندرك خصائصها من احتكاكها بالنــاس والأشياء وسط أزمتها العارضة • وإذن فقــد كان لابراهيم الكاتب دراما صيغت قصة » (ص ٧٧) • ويصف أدب الكاتب بقوله :

« إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المـازنى مزيج جميـل من الشـعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد لهمـا بحق جورج ديهامل سر نبوغ الكتـاب » (ص ٧٧) • وكذلك نراه يحكم على قصـة بتـلان بأن « أجزاءها المختلفة ليست فى نسبة واحـدة من الصلة بالحياة •• » (ص ٩٢) ، ثم يفسر ذلك ويوضحه • ولكم من مرة نقف أمام أدب الكاتب من أولئـك الكتـاب الكبـار نعجب بـه ونتمنى لو يظهرنا المؤلف على ما فيـه من أصالة وجمـال ، ولكن موضوع « النماذج » يضيق عن ذلك ، فلعـلى إذ أقول اليوم هـذا ، أنتزع من المؤلف وعـدا بأن يعود إلى فن أولئك الكتـاب يتحدث عنـه •

والنمـاذج خلق ، ينفث فيهـا المؤلف الحيـاة بما يصطنع من سـذاجة ، وبمـا يحملهـا على التحـدث به عن نفسها كمـا حمل هملت ، وبمـا يترجمـه من أقوالهـا الأصليـة ينطقهـا به بعـد أن يكون قـد مهـد الجو وأحكم الملابسات • هو مخلص لنمـاذجه يتابعها جزءا وجزئين كفاوست ، وقصة واثنتين كفيجارو ، بل ينتقل معهـا قرونا كأوليس ، يعـاصر هوميروس فى القرن التاسع ق•م • ثم سـوفوكل فى الخامس ق•م• ثم تنيسون وجويس فى العصـور الحديثـة ، فهو عالم بهـا ملم بأطوارها • استمع إليـه يتحـدث عن أوليس « ومن عجب أن يسير رجلنـا من بطولة الإليـاذة إلى دهـاء الأودسـا ، ثم ينتهى بخبث فيلوكتيت ، وأن نجـد فى كل مرحلة بذور المرحلة التاليـة حتى لنحسب أنه كان يمتـلك كل تلك الصفـات كامنـة ، وإنمـا هو محـك الزمن الذى أظهرها فيـه ، كمـا أظهرها عنـد الشعب اليونانى كله ، يوم سـار من صـلابة البـداوة إلى مرونة الحيـاة إلى فسـاد المدنيـة » (ص ١٠٤) وفى الحق إن الرجـل ما عاش إلا فى القرن الثـانى عشر ق•م• فى عصر البـداوة الأولى ولكن خالقيـه من الكتـاب هم الذين نقلوه معهم إلى أزمانهم حين صوروه بالصورة الخاصة التى أرادوا • ولولا نفـاذ نظر المؤلف لمـا استطاع أن يرى تطور صـورته فى رءوس

كتابه المختلفين ، ولما استطاع أن يجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التى تليها رغم إختلاف أولئك الكتاب ، ثم أن يحكم من ذلك ، لا أنموذجا لشخص واحد فى الحياة فحسب ، بل أنموذجا للشعب اليونانى كله فى عصوره المتعاقبة ، وأنموذجا لكافة الحضارات « حين تسير من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد لمدنية » .

والمؤلف يتسلل إلى نفوس نماذجه من خلال أنفسها ومن خلال خالقيها ، ويعرض مختلف الآراء فيها لينفذ إلى ما يراه الحق وليصورها فى الصورة التى أوحت بها إليه . استمع إليه يتحدث عن دون كيشوت « فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خبله أنه موكل بآثام البشر يحاول لها إصلاحا فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب فى غير مضرب ، ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب ، الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها . ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ ! » (ص ١٣ ، ١٤) أو إلى قوله عن هملت : « هذه مأساة هملت ، ولكم كثرت من حوله الأقاويل ، فمن قائل إنها مأساة جنون ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفى الحق إنهم لمخطئون . ليست مأساة هملت شيئا من هذا وإنما هى مأساة رجال الفكر أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شىء فنفذت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأى فتحطمت بين أيديهم حياتهم التى اتخذوها موضعا للدرس والتحليل. ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانبا واحدا فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الكبيرة فى كل أمر ألف جانب وجانب فما تزال أحيانا حائرة مترددة حتى تقف فى مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم » (ص ٤٧)

ولا شك فى أن ذلك رأى أصيل أيده ودعمه بما بسط من وقائع الرواية وأحاديثها .

ثم هى خلق بما فيها من تأمل شخصى وملاحظات إنسانية ، وتفكير عميق غذتها ثقافة واسعة واضطراب مباشر فى مناحى الحياة . استمع إليه يقول فى جفروش : « فأشد انفعالات النفس وأعمقها غورا وأصدقها رنينا هو ما يعقد اللسان » (ص ١) أو إلى قوله عن دون كيشوت « فاستحالت الآلامة سخرية من آماله التى طوحت به فى كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس فى نفسه بتلك الحقيقة الانسانية اللاذعة ، وهى أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ونرفق بها كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا » (ص ٣) من منا يقرأ ذلك ثم لا يحس بصدقه وإنسانيته ؟ ومن منا يقرأ قوله « هذا هو جفروش كما تعرفه باريس فى أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ولكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء فى النفس وحرارة فى القلب وإمعان فى الحياة تنتشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود » (ص ٥) من يقرأ هذا ثم لا يحس أنه قد فسر لنا حياة أولئك الصعاليك الذين نحبهم ونعجب بهم وإن كنا قد نتردد فى انتهاج سبلهم فى الحياة — ومن منا لا يحس أنه قد جعل جفروش نموذجا حقا لهم بحيث لا نملك أنفسنا حين نقرؤه ، وهو الطفل الباريسى ، من أن نذكر الشاعر العربى عروة بن الورد ، عروة الصعاليك الذى كان يجمعهم ويؤويهم ويطعمهم مما يستلب فى غاراته ، ثم لا يذكر قوله الجميل النبيل :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى
بوجهى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

ثم انظر كيف صور الدور الذى تلعبه السخرية فى الحياة بقوله فى فيجارو : « ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلا إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك . وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ؟ وهل يجد من حياتنا غير الهموم التى لا نعرف كيف نسخر منها ؟ » (ص ٧) واستمع إلى تلك الحقيقة الاجتماعية الصادقة فى العبيط « فنحن فى الحق اكثر استعبادا للعرف منا للخلق وذلك لأمر بين هو أننا جميعا — إلا من عصم ربى — أشد حرصا على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا » (ص ٢٢) ثم احكم هل عدا الحق فى قوله ! ثم أى تفكير أصيل دقيق فى وصفه للمكر فى « الأستاذ بتلان » : المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة . والمكر إحساس باطنى بالنسب ، إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها حتى يقودها إلى ما يريده وكأنه لا يعى ما يفعل والمكر أخيرا قدرة على تصريف القول وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ ، وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير وتذليل تلك النفوس ، وإذن فالمكر ليس شرا فى ذاته وإنما يصبح شرا إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود » (ص ٨٧) .

ولكم من مرة تراه يلخص فلسفة بأسرها فى جملة تأتى فى موضعها من السياق ، دون أن تحس فيها جفاف العلم وإن ظلت محتفظة بجلال الفكرة ، مما يجعل لتلك النماذج دسامة تغذى العقول وتفتح أمامها أبوابا من التفكير ، كما رأيناها من قبل ترهف من أحاسيس النفوس . فهاهو يجمع فلسفة الضحك عند برجسون فى قوله : « إن فى تصرفات ألسست ما يحرج وما يضحك ولكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ، وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزاء

نقوم بـــه ما يخرج فى حياتنـــا عمـــا يجب أن تطرد عليـــه فى عرف المجتمع ؟ » (ص ٥٤) .

وأخيرا هى خلق ، لمـــا فيهـــا من صياغة محكمـــة أصيلة وأسلوب حار يضمنان لهـــا الخلود كعمل فنى . وفى الحق إننـــا لنستطيع أن نرى فى ذلك مرحـــلة أخيرة من مراحـــل الأسلوب العربى فى العصر الحـــديث ، فلقـــد كان فى البـــدء سجعا وتكلفـــا وزخرفة لفظيـــه ثم مال — كرد فعل — إلى البسط والتبسيط بحيث تكشف لك الكتابه عن كل ما تحمـــل القراءة الأولى دون أن تترك لك ما تفـــكر فيـــه وتتأمله . ولكن أسلوب هـــذا الكتاب قـــد خلا من سوءات الصنعة المتكلفـــة ونـــأى عن البسط المسرف ، فجاء أسلوبا مركزا موحيـــا غنيـــا بمـــا يرقـــد تحتـــه من إيحاءات ، فلا تملك إلا أن تقف بين الحين والحين لدى الجمـــلة تمضغها وتجترها لتستخرج كل ما يكمن فى قلبهـــا من معنى . وهو إلى هـــذا قـــد خـــلا من ثقل المحـــاجة المنطقية وجفاف الأسلوب التعليمى ، بل نراه يلقى ما يريد فى خفـــة تشـــبه خفـــة الاغريق الذين كانوا « يفكرون بخيـــالهم » ويحلون مشكلات الوجود بالأساطير .

فى جوليـــان سوريل تجـــده يقول بعد أن صور ما قـــد يلاقيـــه بعض الممتازين من اضطهاد فى المجتمع يدفعهم إلى ارتكاب الآثام : « وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من سوريل طيورا جارحة » (ص ٦٩) أنظر كيف اهتـــدى المؤلف إلى الوصف الدقيق النـــاقل للاحساس يلقيـــه فى خفـــة عابرة فيصيب موقعه من النفس ، فهو لم يقل « وحوشـــا ضوارى » مثـــلا لأنه يريد أن يحتفظ فى نفسك ببعض العطف على أولئـــك الذين « جعلتهم الجمـــاعة » بظلمها لهم يصلون إلى تلك الحال . وكذلك وصفه للتشابه بين فتاتين صغيرتين بقوله « شبه قطرات الندى بعضها لبعض » (ص ٣) فهو لم يشبههما بزهرتين مثلا ، بل اختـــار أدق ما يحمل ما فى النفس من إحساس بالصفـــاء والطهر والرقة ، وهل أدق من قطرات النـــدى فى نقـــل ذلك الاحساس ؟

وإنك لتلمح مثل هذا التوفيق فى التعبير فى قوله « فلئن كان ألسست « ضميرا ينطق » بمكتونه صادقا صريحا فسليمين « أكذوبة اجتماعية » تتحرك ، ومن عجب أن يحبها ألسست حبا صادقا عميقا » (ص ٥٠) وانظر أى وصف كان يكون أكثر انطباقا على امرأة كسليمين « فى حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما فى ألوان وجهها وأصباغ شعرها » (ص ٥٠) وأى وصف كان يكون أبلغ عن رجل كألسست ، لا يكتفى « بأن يقول إلا ما يؤمن به ، بل وأن يقول كل ما يؤمن به ولو كان فى ذلك شقاؤه ، ولو أصبح به موضع سخرية الناس أجمعين » — من أنه ضمير ينطق (٤٨) ثم انظر كيف ثبت الكاتب العجب فى نفوسنا من حبه لسليمين حين جمع فى دقة بين « الضمير » و « الأكذوبة » .

واقرأ معى تلك الجملة يفسر بها كيف أن رأس المحكوم عليه بالاعدام فى اللحظات السابقة للتنفيذ ، تحظى بحياة غنية تتدافع فيها الأفكار غزيرة متتابعة « أو ما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى بحمى اليأس أشبه » ثم خبرنى ألم يرقك هذا التفسير الانسانى بما فيه من دقة وتركيز يدعوان إلى التأمل ؟

واستمع إلى قوله : وهكذا تتصور النفوس الممتازة وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الادارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقا حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » (ص ٦٨) ثم انظر إلى قوة الصورة ودلالتها وأصالتها فى قوله : « تحنى أصلابها وتتصبب عرقا » . إننى لأتصور أمامى الآن رجلا رث الثياب يخرج من فوهة منجم ، وقد حمل فوق ظهره حملا ثقيلا انحنى عوده تحت وقره ، ونفرت عروقه وتصبب منه العرق ! وانظر إلى تلك الجمل الاعتراضية

التى قطعت الأسلوب : عقبات تقف فى طريقك كلما حاولت الانطلاق . مما يشعرك بالجهــد ، جهــد أولئك المتــازين الذين وضع المجتمع فى سبيلهم العقبــات ، « حتى تستطيع — وقــد لا تستطيع بعــد جهــد عشرين عاما — جهــد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » . ولكن الجملة الأخيرة تطول قليــلا ، إذ فيهــا راحة الوصول فأى مطابقــة فى الأسلوب بين الفــكرة وما يساوقها من عاطفــة ، وبين الموسيقى اللفظيــة ! وما دمنــا بصــدد الموسيقى فلتقرأ معى تلك الفقره : « ولــكم قطعت أســلحة رولان فى مفاوز الجبــال ، ولكم نشرت قلاع برباروس الرعب على صفحات الميــاه ، فما له لا يغامر كما غامروا ؟ وما له لا يلتمس المجــد بحــد السيف كما التمسه من قبل أبطــال ؟ » (ص ١٢) . واستمع كيف « قعقعت » الأســلحة فى « مفــاوز » الجبــال ، وكيف « نشرت » ، لابعثت « قــلاع » برباروس « الرعب على صفحــات الميــــاه » ، لاسفن برباروس ، الخوف على صفحات المــاء . ثم احكم أى توفيق قد صاحب الكاتب فى اختيــاره للألفاظ المميزة بمعنــاها وموسيقاها . ورولان هو ذلك البطل الشهير الذى زعموا أنه حاول رد العرب عن إسبانيا ، فأوحى بأول ملحمــة فى الشــعر الفرنسى ، وبرباروس هو ذلك القرصان الرومانى المرعب الذى دوخ رواد البحر .

« تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق البــاب فيأتيــك من النافذة ، تحسبه بالداخل بينما هو فى الخارج ؟ أليس هو فيجارو مضرب المثل فى الخفــة والمهارة ؟ أليس هو فيجارو .. » (ص ٩) .

نعم إنه فيجارو مضرب المثل فى الخفــة والمهــارة ، إذن فليتابع المؤلف خفتــه فى حركة الأسلوب ، فى تلك الجمل المنفصلة المتلاحقة ، وفى ذلك التساؤل المتكرر الذى يتبعهــا .

وبعــد فليس الحديث عن السيل الموسيقى فى الأسلوب والدقــة فى اختيــار الأصوات المعبرة بالأمر الهين . ذلك لأنهــا ليست من البساطة والوضوح بحيث تمسك بهــا وتدرجهــا فى رقم أو أرقام

كذلك الذى كانوا يعلموننا فى المدارس من أدب هـذا الكاتب أو ذلك « سجع قصير الفقرات ، ومقـابلة أو طبـاق ، وبـدء بالتحميدات الخ الخ .. » . إنهـا ليست موسيقى رقص ، محـددة مقسـمة متقـابلة ، ولكنهـا فيض نفس ، نفس حارة غنيـة ، موسيقى سيالة تعلو وتهبط وتتكسر وتتراخى وتتدافع حسب الاحساس أو وثبـات الفكر ، فاذا أردت أن تدرك خصائصهـا ، فعليـك أن تقف إزاء كل جملة ، وإزاء كل فقرة ، تتأمل السر فى إحكام ما بهـا من نغم .

« وإذا كان المؤلف قـد اسـتعان بتجسيم شخصياته على إيراد الحقائق التاريخيـة ، فانه قـد استعان بذلك أيضا على استحضارها أمام القراء ، حين تكون أبلغ تأثيرا فى نفوسهم « ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظـلام الليـل ، وها هو فيجارو وحيـدا مجهـدا يقص علينـا آلامه ويشكو ظلم الحيـاة بعـد أن نفـذ صبره وأصابت السهام شغاف قلبـه ، ها هو فيجاروا يصيح غيرة على عروسه التى يحب ... » (ص ١٠) . ثم إذا بـه يعقب بعـد أن انتهى فيجارو من إلقـاء مونولوجه بقوله : « وحزن الحاضرون لحزن فيجارو » . وفى الحق لم يكن ثمـة حاضرون سوى النظارة فى المسرح ، ولكنـه أحالهم « حاضرين » معه حتى يوهمنـا بالواقع فيكون أفعل تأثيرا فى نفوسنا .

وبعـد فاذا كان المؤلف يملك تركيز الفـكر ودقـة اللفظ وقوة إيحـائه ، ثم دلالة الصور وموسـيقى الأسلوب ، وإذا كان يعرف اصطناع السذاجة وإحيـاء الشخصيات ، فانه يملك هبـة لا تقـل خطرا عن كل هؤلاء ، يملك حرارة القلب ، يملك قوة الشعر ، ومثالية التصوف . استمع إلى قوله : « دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعـل فى النفس من تلك الأحلام ؟ قـد تذهب أحداث الحيـاة بتلك الآمال العـذاب التى يقوم عليهـا صبانا كمـا كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعـابد الآلهة يمسكن ضرامهـا عن أن يخمد ، ولقـد تنقطع أوتار القيثـارة فلا تعود تملأ نفوسنا

بنغماتهـا الساحرة ، ولكن النـار لا بـد مخلفـة رمادا مقدسا ، ولا بـد للآلهـة من رجع فى النفس تحن إليـه كلمـا عادت بهـا الذكرى من ثنـايا المـاضى الجميـل » إننى لأشفق أن أمس تلك الفقرة الرائعـة بالتحليل فألقى ظلا على ما بهـا من شعر وتصوف ، ولكن عليك أن تعيـدها على سمعك فتحس بكل ما فيهـا من جمـال وجـلال •

ثم هو إذا كان يملك الشـعر فانه ليعرف السخرية • استمع إلى قوله فى « العبيط » : ولـكن الرجل عبيط ، عبيط ما فى ذلك ريب ، فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقـدر نفسية من يخاطبه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخـادم من وقاحة متصاعدة ، وهو أخيرا لا يعرف أن ما كل حق يقـال ، وإذا قيل فمـا ينبغى أن يقـال لكل إنسان وما إلى ذلك من حكمتنـا الثمينـة ! قـد تقول هـذا وخيرا من كل هـذا ، أما أنا فأعتقـد أن عقولنـا نحن هى الفاسدة وأن حياتنـا الاجتماعيـة كانت من القسـوة بحيث خلقت أرواح عبيـد وأرواح سادة • وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنـا نفـاقا متصلا ، واتخذت من هـذا النفـاق قانونا صارما يصيبنـا من عدم احترامه أكبر الأذى (ص ٣٦ ، ٣٧) فأى سخرية أبلغ منهـا فى قوله « عبيط عبيط ما فى ذلك ريب » ووصفـه لتلك الحجج بأنهـا « حكمتنـا الثمينـة » ثم استخفافه بهـا فى قوله « قـد تقول هـذا ، وخيرا من كل هـذا » • ثم إننى أرجو أن تقف عنـدما فى هـذه الفقرة من سخط على التواء حياتنـا الاجتماعيـة ونفاقهـا وما بهـا من دعوة لتحطيم تلك القسوة التى خلقت أرواح عبيـد وأرواح سادة • ولكنهـا دعوة لا تأتى من الخارج ، لا تأتى من أنه « ينبغى » لنـا أن نحث على الفضيلة وأن نجعـل الأدب منـابر وعظ ، لا تأتى عن قصد وتعمل — فذلك ما يميت الأدب ولا يحيى الأخلاق — وما يؤمن الكاتب بشىء من هـذا ، بل إنه ليؤمن بأن الفن غاية نبيلة فى ذاتهـا ، ولكن تلك الدعوة وأمثالهـا إنمـا تصدر لديه عن فيض نفسى ، عن

شعور شخصى وإيمـــان عميق ، ولذلك تحتفظ بقوتهـــا على التأثير ، فتسلم لهـــا النفوس ، بدلا من الوعظ المفتعل المرسوم .

ولكى يستجيب إلى ذلك الشعور الذى يعتلج فى نفسه من حبـــه للمثل العليـــا نراه يقف فى تصويره لبعض الشخصيات عنـــد مرحلة بعينهـــا حين يراها تفقـــد دلالتهـــا الأولى كمثل ممتـــاز « ولهـــذا نقف فى تصوير فيجارو عنـــد هـــذا الحـــد لنتركه فى ذهن القـــارىء مثلا حيـــا لمبلغ ما يستطيع أن يصل إليـــه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئـــة الاجتماعية الفاسدة » . (ص ١١) .

وفى الحق إن فى « النمـــاذج » لخير غـــذاء للجيل الجديد . نراه يدعو إلى المثـــل وإن كان ينصح بملابسة الحيـــاة « وهكذا نحن فى الحيـــاة لا بـــد لمن يريد أن يظفر منهـــا بما يسـمّيه جمهرة البشر نجاحا وقوة أن يستوثق من الأرض بقـــدم وأن يلابس الواقـــع عن قرب . وأما المثـــاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقـــدامهم فمثلهم لنـــكد الطـــالع كمثل أنتيـــه وقـــد رفع إلى الفضاء ما تلبث السيوف أن تذهب برؤسهم » (ص ١٢) ففى هـــذه الفقرة نراه يصور ضرورة ملابسة الواقع فـــلا يهيم الشباب فى واد سحيق من الأحلام لا يفضى إلى شىء ، وإن كان لا يزال يحتفظ بحبـــه للمثـــل فى قوله « أن يظفر بمـــا يسميه جمهرة النـــاس نجاحا وقوة » وفى قوله « لنـــكد الطـــالع » .

وهو يدعو إلى الجهـــاد ، الجهـــاد ، الذى لا يعرف اليـــأس مهما لاقى من إخفاق « وأما أولئك الذين يستطيعون فهمـــه على وجهـــه فهم الشباب الذين يحسون أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيـــل مثل أعلى ... » ثم هو يرفع من قوى النفس الخلقـــية « ولكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقـــه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم أو رفعهم حمق البشر فوق ما كان يجب أن يبقيهم اتضاع نفوسهم » .

ولقـــد نجـــد تفاوتا فى الحرارة بين النمـــاذج المختلفـــة ، فمـــا ننتظر أن يتحمس للمحتـــال « بتلان » وإن كان قـــد يتحمس ضـــد

أوليس بعـــد أن ينحـــدر • إنه يفهـــم محنـــة هاملت ويعطف على فيليسيتيه ويرثى لجوليـــان ســـوريل ويخشى على رستنياك ويحب جفروش ، ولكن حماسته تبلغ أقصاها حين يتصـــل النموذج بمعنى عام شـــديد المساس بحياتنـــا قريب من آلامنـــا وآمالنا • استمع إلى قوله عن فيجـــارو « أنموذج بشرى خالد لأبنـــاء الشعب الذين لا يطامن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم ســـلاح فان لم يكن العنف فلتكن السخرية ••• فيجارو روح خالدة لأنهـــا كقوى الطبيعة التى لا تدفع ، فيجـــارو من روح اللـــه لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذى لا يريد أن يستجدى أحـــدا وإنمـــا يطالب بحقوق لا بـــد أن ينالهـــا يوما ، ذلك الشعب الذى يشكو من نظـــام فاسد لا بـــد من أن يقيم على أنقـــاضه نظاما أصلح » (ص ١١) وفى هـــذا الكلام من حرارة القلب وقوة الايمان ما يشحذ القوى ويحيى النفوس •

وبعد ، فلعلى أطلت عليك أيهـــا القارىء الكريم ، ولعلك تتساءل وما بالهـــا تكتب كل هـــذا الكلام عن صـــاحب الكتـــاب ؟ ولكنـــه لو لم يكن زوجى لكان لى الحق فى أن أكتبـــه كمحبـــة للأدب ، فكل ما طرأ هو أنه قـــد أفسح لى الكتـــاب لأقول ما أريد •

« ملك عبد العزيز »

جفــروش
Gavroche

للكاتب الايطالى المعروف بيراندللو Pirandello رواية مسرحية هى « ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود » ، وهــذا هو معنى الخلق فى الأدب • ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة ، حتى يتــاح لهــا مؤلف يجمع أشتاتهــا ويوضح معالمهــا ويدعم حياتهــا ، فاذا هى أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بهــا تجتــاز الأجيال مستقلة الوجود فى مأمن من الفنــاء ، لأنهــا أعمق فى الحيــاة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع •

ولقــد يبــدو غريبــا أن نترك النماذج المشهورة كدون كيشوت وهاملت وفوست مثلا ، لنبــدأ بجفروش • وجفروش طفل فى الثالثة عشرة من عمره يظهر ويختفى بعد أن تبــدأ رواية « البؤساء » لهيجو وقبل أن تنتهى ، فــلا هو بطل الرواية ولا هو مدارها ، ولكنى رغم ذلك أحب هــذا الطفل وأفضله على الرجال ، حتى لقــد أقعــدنى المرض أياما فلم أجــد جليســا تستريح إليــه النفس خيرا منــه • ولقد سئمت منطق البشر وأصبحت أرثى لذلك الفيلسوف الجليل (١) الذى غــذى شبابى بمــا فى الخير والحق من جمــال • وما أدرى أضل رجلنــا عنــدما زعم أن النفوس لا يمكن إلا أن تعشق الخير والحق إن بصرت بهما ، أم يخادع النــاس أنفسهم ويخادعون الغير عنــدما يتحــدثون عن الخير والحق ؟ ومن يدرينــا ؟ قــد لا يكون هــذا ولا ذاك ، وإنمــا هو عبث بالألفــاظ وإخراج للغة عما خلقت له من حمل معــانى النفوس ونفثات القلوب • ولكم من مرة حدثتنى النفس أن اختراع اللغــة هو أقسى ما نزل بالبشر من كوارث •

---

(١) أفلاطون •

فأشد انفعالات النفس وأعمقها غورا وأصدقها رنينــا هو ما يعقد اللسان ، وأكمل الرجال شهامة أقلهم حديثــا عن الخير والشر ، وتلك ألفــاظ ما كان جفروش يعرف لهــا معنى ولو أنه علم أن للأخــلاق قواعــد تواضع عليهــا النــاس لفسدت حيــاته ، لأنه نشــأ على السخرية من مواضعاتهم والعبث بقوانينهم ، وحتى وخزات الضمير ما كان يعرف لهــا ألمــا ، وما كان قوام حيــاته إلا معنى عميقــا للشهامة وفطنــة إلى مواضع التهلكة أكسبته إياها تجارب عاجلتــه بهــا الحيــاة صغيرا . نعم لقــد كانت تجاربه محدودة ، ولكنهــا كانت غنيــة لشدة ما قاسى من آلام حتى ما كان يدهشه شيء وهو بعــد في العــاشرة من عمره .

« وكان جفروش يرتدى بنطلونا لم يأخــذه من أبيــه وقميصــا لم يأخــذه من أمه ، وإنمــا كســاه بتلك الأسمال قوم محسنون ، ومع ذلك فقــد كان له أب وقــد كانت له أم ، ولكنــه لم يكن موضع تفكير أبيــه ولا أمه ، لقــد كان من أولئــك الأطفــال الذين لهم أم وأب ومع ذلك فهم أيتــام » .

« وكان شــعوره بالسعادة أتم ما يكون عندما يجــد نفســه في الشارع ، إذ أن حجارته كانت عليــه أقل صلابة من قلب ذويه ، وقــد ألقوه إلى الحيــاة بركلة قدم . فطــار إليهــا راضى النفس . لقــد كان طفــلا صاخبــا شاحبا خفيفــا يقظا ساخرا حى الملامح مريضها ، فكنت تراه رائحا غاديا مغنيــا لاعبــا يحفــر القنوات . ويسرق أحيــانا ولكن في مرح كمــا تسرق القطط أو العصافير ، وكان يضحك لمن يسميه عفريتــا ، ويغضب ممن يسميه لصا . لقــد حرم المــأوى والخبز والنــار والحب ، ولكنه كان مرحا لأنه حــر » .

هــذا هو طفل باريس ، وهو منهــا بمنزلة العصفور من الغابة .

« وبباريس أطفال لا يجدون عشاء كل يوم ، ولكنهم قــد يذهبون إلى المسرح كل مساء لا قميص على جسدهم ، ولا حــذاء بأرجلهم ، ولا سقف فوق رؤوسهم ، فهم كذباب السماء لا يملكون من كل ذلك

شيئا . يعيشون أسرابا . يذرعون الطرقات ، ويسكنون الفضاء ، ويرتدون بنطلونا قديما يخلعه عليهم أبوهم فينزل إلى ما دون أكعابهم ، وقبعة لأب آخر تغطى آذانهم ، وحمالة ذات فرع واحد يعلقونها بأكتافهم . يعدون ويتربصون ، ويضيعون وقتهم ، ويدخنون ، ويقسمون أغلظ الايمان ، ويغشون الحانات ويعرفون اللصوص ، وما فى قلوبهم من الشر أثر لأن بها لؤلؤة هى الطهر ، واللآلىء لا تذوب فى الأوحال .

« وهم يصيحون ويسخرون ويصخبون ويتضاربون ، وعليهم خرق كالشحاذين ، وأسمال كالفلاسفة . يصيدون فى المجارى ، ويطاردون فى القمامة ، ويستخرجون المرح من الأوحال . يصرون بأضراسهم ، ويعضون بالانياب . يصفرون ويغنون ، يحيون ويسبون . يجدون بغير بحث ، يعرفون ما يجهلون ، هم إسبرطيون إلى حد اللصوصية ، ومجانين إلى حد العقل ، وشعراء إلى حد الاسفاف ، يرقدون فوق الأولمب ، ويندسون فى الروث ويخرجون منه مرصعين بالنجوم » .

ولنتبع جفروش قليلا فى أزقة باريس وهو يبحث عن عشائه : ها هى حديقة يتدلى منها التفاح (وقد أودت بآدم تفاحة ، فلم لا تنجى أخرى جفروش من الموت جوعا ؟ !) ، ودون التفاح سياج يعبره جفروش ، فاذا به على مقربة من زارع الحديقة ، وزارعها شيخ فان . يسترق جفروش السمع إلى حواره مع زوجه العجوز ، فاذا بهما فى ضيق شديد ، وإذا بالمالك ينذرهما بالطرد ، وإذا بهذا الحديث يذهب بما يحس جفروش من ألم الجوع فيتفقد إلى جوار السياج مضجعا يأوى إليه .

ومن خلال ذلك السياج لمح طفلنا شبحين يتبع أحدهما الآخر . أولهما شبح شيخ وقور ومن خلفه شبح فتى خليع يتربص به ، وما هى إلا أن وثب الفتى بالشيخ فسقط إلى الأرض ، وهم جفروش ليرى ما حدث ، فاذا بالشيخ قد أرغم أنف الفتى ، وانتظر

جفروش ليرى بقيــة المغــامرة ، فاذا بالشيخ ينهض الفتى آخــذا بتلابيبــه كمــا يفعل قط بفــأر ، وإذا به يعظه وعظــا طويلا يفهم منه جفروش أنه لا تستقيم الحيــاة بغير جهــد وإلا انتهت بغياهب السجون أو دماء المقاصل ، ثم يدفع الشيخ محفظة نقوده إلى اللص ويخلى ســبيله •

لم يرق جفروش ما رأى ، وإذا به يتسلل فى الظلام خلف اللص حتى يأتيــه ، واللص لا يشعر بوجوده ، ثم يضع يــده فى الجيب الذى به المحفظة ويعود بهــا حتى يقترب من موضع مضيفه الشيخ خلف السياج ، فيرمى بالمحفظة إلى الحديقــة ويعدو ملء أرجــله ، وقــد نسى جوعه ونسى مخدعه ، ولكنــه فرح مغتبط بتلك البطولة الساذجة ، لأن مزاجه مزاج فنــان وما يعنيــه من بعد ذلك شىء ، وما يريد أن يعرف شــيئا من أحكام البشر • هل ما آتاه يعتبر خيرا أم شرا ؟ هــذا ما لا يعنيــه ، وما أظنــه قــد ساءل نفســه يوما سؤالا كهــذا ، لأنه كمــــا قلنــــا لا يعرف للشر أو للخير معنى ، ولا يأتى أيهما عن حساب أو تقدير ، وإنمــا هى طبيعته تسوقه إلى ما يفعل وفى فعله هــذا جمــال لا شك فيــه •

لقــد يلقى فى الطرقات طفلين مشردين أصغر منــه سنا وأضعف قوى ، فيبسط عليهمــا حمايتــه ، ويقودهما إلى حيث يجــد لهمــا قليلا من الخبز ، أو يمهــد لهما مضجعا إلى ساق تمثــال نابليون ، مستعينا بمــا يسرق من أخشاب سياج حديقــة النباتات ، حتى إذا أويا إلى مضجعيهما خف فى ظلام الليــل ليساعد مجرما على الهرب من السجن ، والمجرم أبوه والطفلان أخواه ، ولكنــه لا يعــلم عن ذلك شــــيئا ، ولو أنه علم لمــا تغير موقفــــه ، لأنه يأتى ما يأتى لجمــال ما يفعل فى ذاته ، وما للخير أو الشر عنــده أى اعتبــار •

ويعود طفلنــا عنــد الصباح ليوقظ طفليــه اللذين يعتبر نفســه قواما عليهما ، ويعتزم أن يبصرهما بالحياة ، وأن يقوم على تنشئتهما ، فيقتادهما معــه وسط الطرقات ، ولكنــه يفقدهما فى ازدحام يلقاه ،

فيأسف أشد الأسف ، ولا يجد عزاء عما فقد إلا أغنية ساذجة يردد مقاطعها خلال الأزقة المظلمة .

كل تلك المغامرات قصيرة الباع ، لا تظهر ما بنفس هذا الطفل الخيرة من غنى ، وأما اليوم الذى تجلت فيه ثروته الروحية فكان يوم ثورة سنة ١٨٣٢ .

فى ذلك اليوم كان جفروش عائدا من إحدى ضواحى باريس وبيده غصن مكلل بالأزهار ، وإذا بروح الثورة تهب وإذا به من رجالها فيلقى الطفل بغصنه من يده ، ويسرع إلى مخزن أسلحة يختطف منه طبنجة واعبدأ بردها ، ويعدو إلى قلب باريس ، ولكنه يلاحظ أن الطبنجة بغير زناد ، فليكن ، وليعد طفلنا وسط الجموع صاخبا مهللا ، وليتغن بالمرسييز مع المتغنين ، وليخطب من حوله : « لا عليكم ! إن برجلى اليبيرى ألما شديدا ، ولقد قسا بى الروماتيزم ، ولكنى مسرور أيها المواطنون ، وما على الأعيان إلا أن يستوثقوا من مواضع أقدامهم . من هم أفراد الشعب ؟ كلاب ! ليكن ، ولكن ليحترموا تلك الكلاب . آه ! نيت هنا زنادا . لقد أتيت من ظاهر المدينة حيث النار تضرم والقلوب تغلى . آه ! لقد حان الحين لنقطف زبد القدر » .

وفيما هو سائر لا يلقى رجلا إلا حثه على السير إلى القتال وإن يكن الحزن قد تسرب إلى نفسه دقيقة عندما نظر إلى سلاحه قائلا : « سأنطلق إلى المعركة وإن لم تنطلق منك رصاصة » .

وفيما هو كذلك إذا بجموع الطلبة الثائرين يمرون وعلى رأسهم زعيمهم « أنجولرا Enjolras » فينضم إليهم ، لأنهم يعلمون إلى أين يسيرون . خف فى مقدمتهم وسلاحه الخرب بيده ، والأغانى لا تفارق شفتيه ، حتى وصلوا إلى حانة قرروا أن يتخذوا منها مقرهم ، وأن يقيموا أمامها حواجزهم ويأخذ جفروش على نفسه إنجاز تلك الحواجز .

« ها هو يغدو ويروح خفيفا مرحا . ها هو يصعد وينزل ويصيح ، ويرغى ويزبد ، حتى لكأنه خلق ليبث الشجاعة فى نفوس

الجميع . عجبــا ! أي باعث كان يحفزه ؟ وأى أجنحة كانت تطير به ؟ لقــد كان باعثــه ما عانى من بؤس ، وكانت أجنحته ما يفيض بــه قلبــه من مرح . لقــد كنت تراه بغير انقطاع « وكنت تسمع صوته فى كل لحظة . لقــد كان وجوده يملأ الفضاء حتى لكأنه فى كل مكان . كنت تراه بأعلى الحواجز يدفع المتسكعين ، ويحث المتكاسلين ، ويبعث النشاط فى المتعبين ، ويقلق المتــأملين . يثير فى البعض النشوة ، وفى البعض الغضب ، وفى الآخــرين الجهــاد ، كمــا يدعو الجميع إلى النشــاط . يخــز طالبــا ، ويعض عاملا ، يقف ويسير ، ويستأنف السير متنقــلا بين هؤلاء وأولئــك ، يتمتم حينــا . ويطن أخرى » ثم لا يقف جهده عند ذلك الحــد ، بل يحاول أن يشترك فى المعركة ، فيرمى ســلاحه الخرب إلى الأرض ، ويأخــذ بندقيــة أثقل منــه وزنا ، ويقــدح الزناد . فإذا بالبندقيــة فارغة ، وإذا بوجهه يتقطب امتعاضا . ولعــل هيجو لم يشــأ أن يجعل منــه ســفاكا للدماء . ويرسله أحــد الثوار بخطاب إلى فتــاة ، فيطيع ، وينتهزها فرصــة ليحطم بالحجارة ما يلقى من مصابيح ، وهو فى أثنــــاء ذلك يغنى بصوته المرتفع وسط الشوارع المظلمة ، ويعثر فى أثنــاء سيره بعربة يــد يدفعها حمال ثمل ، فيأخذها منــه ويسوقها أمامه فوق الحجارة فى ضجة تسترعى انتبــاه رجال البوليس . فيسرعون إليــه فيدفعها فى أرجلهم ، ويولى الأدبار كدخــان تبــدد ، ويعود إلى الحواجــز ليحضر المعــركة الحاســمة ، فإذا بالاخــوان الثوار قــد نفــذت ذخائرهم . يرى ذلك فيأخــذ لساعته سلة يعبر بهــا الحواجز إلى حيث تتمــدد جثث الموتى من الجنــد يفرغ جعبهم ، وما يزال ينسل من جثــة إلى جثــة ، والجنــد يصوبون إليــه رصاصهم دون أن يصيبه أذى ، وهو يحاورهم ويداورهم ، مختفيــا وراء جثـــة ، محتميــا بمصراع باب ، وكلمــا رفت رصاصة بجوار أذنه غايظ من أطلقهــا بحك إصبعه على أنفــه ، والحواجز تهتز ، وصوته لا يسكت عن الغنــاء ، حتى حم القضــاء وأصابتــه رصاصة أقعــدته والدم يسيل فوق وجهــه ، فرفع ذراعيــه إلى السماء ، وأدار وجهــه إلى

الجهة التى أتتــه منهــا الرصاصة وهو يغنى : « لقــد سقطت إلى الأرض وتلك غلطة فولتير . لقــذ سقطت بالقنــاة وتلك غلطة .. » .

ولم يتم أغنيتــه ، إذ أتتــه رصاصة أخرى خر منهــا صريعــا ، وجهــه على الأرض ولا حراك بــه .

وهكذا قضت روح ذلك الطفل الكبير ، وقــد اجتمعت بنفسه قوة الثورة على الظلم إلى جوار المرح والسخرية من آلام الحيــاة .

هــذا هو جفروش كمــا تعرفــه باريس فى أطفالهــا الذين قــد لا يعرفون للأخلاق قواعــد ، ولكنهم يصدرون عمــا هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء فى النفس ، وحرارة فى القلب وإمعان فى الحياة ينشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود .

هــذا هو جفروش كمــا يعرفــه كل الفرنســيين وكل من يتكلم الفرنسية ، حيث خلدت اللغــة هــذه الشخصية الأصيلة الجذابة ، بأن أدخلتهــا بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة ، وهم يدعون الرجل « جفروش C'est un gavroche » ، كما يصفونه بتلك الروح التى صورنا « il a l'esprit gavroche » . وليس بعد ذلك دليــل على خلود هــذا الأنموذج البشرى بين ما خلق الأدب من نمــاذج .

ولكم يذكرنى جفروش هــذا بهيجو خالقــه وقــد ظــل طفــلا حتى آخر عهــده بالحيــاة ، ولكم يذكرنى برينــان الذى قال عنــه أحــد النقاد فأصاب القول : « إنه كان يفكر كرجل ويحس كامرأة ، ويتصرف كطفــل » . وهكذا شــأن كل من تميز بين البشر ، فمــا يجــوز أن نخضعهم لأحكامنا الوضعية المتواضعة . ولحياتهم منطق لا يفهمــه إلا من يضارعهم . وأما نحن فلنخضع لمــا تملى علينــا الجمــاعات التى ننتمى إليهــا ، وإن كان لنــا أن نحــذر أحــدا فليكن ذلك الحــذر ممن يتشدقون بكلمــات الخير والحق ونفوسهم أصغر من أن تحوى معــانى تلك الألفــاظ الجميــلة .

فيجـــارو
Figaro

لست أدرى إلى أى حـد يصح ذلك الرأى السائد عند المفكرين من اعتبـار السخرية قفزات من الذكاء لا تمت إلى القلب بصـلة ، ولكم من مرة لا يجـد المرء سـبيلا إلى الانتقـام من آلام الحياة غير ابتسـامة ساخرة أو حكم ضاحك ، ولكم من مرة اهتزت النفس انفعالا من حركة لـ « تشبلن » أو قهقهـة منـه ! ومن عجب أن يضحك المرء ويحزن ! ومن عجب أن يفتر الفـم وينقبض القـلب ! وفيجارو كتشبلن من أولئك الذين تحمل ضحكاتهم فيضا من الأسى يكاد يلهب منـا القلوب .

فيجارو من رجال سـنة ١٧٨٠ الذين مهـدوا للثورة الفرنسية ، وقـد خلقه مؤلفـه فى زمن كان الفلاسـفة قـد أيقظوا فى الشعب ذلك الاحساس بالبؤس الذى حررهم من كل ظلم ، وأخـذت الثورة تضطرم فى قلوب الرجال ، وكان لا بـد لهـا من متنفس . وكيف السـبيل والبستيل لهم بالمرصـاد ، والفرنسى رجـل حامى الطبع لا يطيق صبرا على ضيم ، وهو من يقظة النفس بحيث لا يستطيع أن يمسك لسـانه من الحكم على ما يرى من فسـاد ، ويرجو من خير ، وإذا فلتكن السخرية سـبيله ، ينفث فيهـا مكنون نفسـه ، فينـال ما يريد دون أن يتعرض لهـلاك محقق .

سخرية فيجارو إذا ليست دليل جفاف فى نفسـه ، وإنمـا هى انتقـام مر من نظـام بلغ من فسـاده أن كان الشعب يسعى إلى هـدمه دون أن يفكر فيمـا يريد أن يقيم على أنقـاضه من نظام ، وعنـدما يلجم الظلم ألسنة الرجال لا يجـد ذوو الإباء منهم سبيلا غير تلك السـخرية التى لا تعرف سـلاحا أمضى منهـا بين أيدى الشخصيات القوية .

وفيجارو شخصية نادرة المثال فى إبائها • ولنستمع له وهو الخادم يخاطب سيده :

السيد — أيها الكسول المخبول •

فيجارو — سيدى ! دعنا نحصى الفضائل التى تطلب من خادم ولننظر بعد ذلك • ألا يعرف سيدى أسيادا كثيرين جديرين بأن يكونوا خدما •

هذا هو فيجارو يرتدى ملابس الخدم ونفسه أعز من نفس الأسياد • وما ولد فيجارو خادما ، ولقد ثقلت به أحداث الحياة ، ولو أنه أراد لوصل إلى ما وصل إليه جيل بلاس «Gil Blass» (١) من قبل ، ولكنه أبى النفس ، يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم ، أو رفعهم حمقى البشر فوق ما كان يجب أن يبقيهم اتضاع نفوسهم •

ولد فيجارو ابنا طبيعيا لطبيب وخادمته ، وتخلى عنه آباؤه وسط أمواج الحياة « فزاول الطفل كل المهن احتيالا على الحياة الغشوم ، وبخاصة مهنة « الحلاقة » وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاقى الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم • ولقيه المؤلف بومارشيه (Beaumarchais) وقد سئم مهنته ، ومنذ ذلك اليوم أحبه فصاحب خطاه فى الحياة وقص عليه نبأه فى روايات مسرحية ثلاث : « حلاق اشبيليه » و « زواج فيجارو » و « الأم الجانية » • وقد مثلت الروايات الثلاث تباعا فى سنى ١٧٧٥ و ١٧٨٤ و ١٧٩٠ ، ومرت السنون وفيجارو يجالد الحياة ، وهو هو ذلك المرح الصاخب الذى يلتمس فى كل ألم جانبه المضحك • وانصرمت الأيام وكل ما فيها من ألم لا يستطيع أن يخلف فى نفسه غير ابتسامة هادئة • وأما الغد فما كان يعنى بأمره • وما له من

---

(١) بطل رواية من تأليف لوساج Lesage وصل الى السلطة بمرونته بل بوضاعته بادئا من العدم •

سلاح غير تلك السخرية يرسلها سهاما لمن يمسه بسوء فيبلغ ما يريد من خصمه دون أن يترك جراحا ظاهرة .

ها هو « حلاق أشبيليه » يقفز إلى المسرح وكأنما يغلو منبرا ، وها نحن نراه أول ما يبدو فى أحد شوارع أشبيليه وقد علق فى ظهره قيثارته بشريط عريض من الحرير • وها هو يوهم نفسه أنه قادر على كتابة أغنية يشيد فيها بالخمر والكسل اللذين يقتسمان قلبه ، وها هو يعثر مصادفة بالكونت الما فيفا أحد زبائنه القدماء فيقص عليه ما كان له من أحداث كصبى بصيدلية ، وكممثل مسرحى ، فيسأله الكونت : لماذا ترك مدريد ؟

فيجارو : هو طالعى السعيد — يا مولاى — قادنى إلى حيث ألقاك ، لقد رأيت فى مدريد جمهور الأدباء ، وقد أضبح بعضهم لبعض ذئبا ضاريا ، فسئمت الكتابة ، ومللت نفسى وضقت ذرعا بالآخرين ، وقد ثقلت ديونى وخف جيبى فاستقر رأيى على أن دخل « الموسى » أجدى على من مجد باطل أصيبه بقلمى • وتركت مدريد لأجوب متأملا قشتالة والمانش والأندلس ، يرحب بى قوم ويزج بى فى السجن آخرون ، ونفسى أينما حللت تحلق فوق أحداث الحياة ، يلومنى قوم ويمتدحنى قوم ، أنعم بما أصيب من خير وأصبر على ما ينزل بى من محن ، ساخرا من الحمقى مناهضا الأشرار ، أضحك من بؤسى وأقص ذقن كل من ألقى ، حتى استقر رأيى على المسير إلى اشبيليه ، حيث أنا الآن على أتم أهبة لأن أخدم مولاى فيما يسره أن يأمرنى به •

الكونت — ومن أين لك بتلك الفلسفة الباسمة ؟

فيجارو — من مصاحبة البؤس يا مولاى • ترانى أسارع إلى الضحك من كل شىء خشية أن تساقط منى الدموع •

واستعان الكونت بمواهب فيجارو ليصل إلى ما يريد من الزواج « بروزين » ، وكانت روزين بنتا جميلة تبناها شيخ فان ، وكان الشيخ يغار عليها كما يغار من ملابسه . وفيجارو « حلاق

صحة » أشبيلية ، فالسبيل أمامه ممهــدة ليحمل إلى روزين رسائل الكونت ، وفيجـــارو واسع الحيــلة يستطيع أن يسخر من الشيخ ومن الخدم ، وأن يحضر المــأذون ويعقــد الزواج ، وقــد أصبح الكل ألعوبة فى يــده يســخر منهم ويضحك الحــاضرين ما اتسعت أشداقهم لضحك ، وهو فى كل ذلك كنسمات الريح تحس بهــا ولكن لا تستطيع لهــا لمسا • وإنه لأهون ، على من يريد ، أن يمسك بنغمة من قيثــارة فيجــارو من أن يمسك بالرجل ، وما لشخصه من وجود محس أكثر ممــا لأغانيــه التى تشــيع فى الفضاء • تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق البــاب فيأتيك من النافذة — تحسبه بالداخل بينمــا هو فى الخارج • أليس هو فيجــارو مضرب المثــل فى الخفــة والمهــارة ! أليس هو فيجارو الذى يعرف كيف يستفيد لا من أغلاطه هو فحسب بل ومن أغــلاط الآخرين ؟ وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ، وهل يحــد من حيلتنــا غير الهموم التى لا نعرف كيف نسخر منهــا ؟ !

وجازى الكونت فيجارو على ما أسدى إليــه من يــد ، فأخــذه خــادما له • ويعود بطلنــا إلى الظهــور على المسرح فى « زواج فيجارو » ، وقــد صمم على الزواج من « سوزان » خادمة الكونت ، وكانت الوقاحة فى ذلك الحــين قــد بلغت بالأشراف مبلغــا ما كان فيجارو ليستطيع معــه صبرا • كانوا يدعون لأنفسهم حق قضــاء أول ليــلة مع عرائس أتبــاعهم ، ومن يريدون من خدمهم ، وكانت سوزان من الجمــال بحيث أغرت الكونت باستعمال هــذا الحق • وجن جنون فيجارو ، فلاقى وقاحة الكونت بوقاحة ، وثار كل ما فى نفسه من حرارة ، وأحس بالطعنــة توجه إلى صميم قلبــه وقــد اكتملت قواه بمرور الأيام ، فمــا له لا يســتخدم الســخرية التى لم تخنــه يوما ما ؟

وتحركت بنفس زوجــة الكونت تلك القوة الهــائلة ، قوة الغيرة التى تكسب النســاء جرأة ما لهــا من دافع ، واتفقت الزوجة مع

خادمتها على أن تتنكرا ، كل فى زى الأخرى ، وأن تذهب الزوجة فى زى سوزان للقاء الكونت فى المكان والزمن المتفق عليهما ، وفيجارو فى أثناء ذلك لا ينى عن السخرية والضحك وتدبير الخطط ، حتى يوقظ شكوك الكونت .

الكونت — لماذا يلوح على كل ما تفعل شىء من الالتواء ؟

فيجارو — لأن من يلتمس عيوبا عند الغير يستطيع دائما أن يجد ما يريد .

الكونت — وسمعتك التى لا تساوى شيئا ؟

فيجارو — ولكنى أساوى أكثر من سمعتى ؟ وهل يعرف مولاى كثيرين من الأشراف ممن يستطيعون أن يدعوا ما أدعى الآن ؟

الكونت — كثيرا ما رأيتك تسير نحو النجاح فى الحياة ، ولكنك لا تسير أبدا فى طريق مستقيم !

فيجارو — وما ذنبى ، والطرق دائما مكتظة ؟ ! هذا يعدو ، وذاك يدفع ، يسقط من يسقط ويصل من يصل ، إننى لفى غنى عن هذا الزحام .

الكونت — بشىء من الذكاء والخلق تستطيع أن « تترقى فى الدواوين » .

فيجارو — شىء من الذكاء لأترقى ؟ لا شك يا مولاى أنك تسخر بكلامك هذا من ذكائى . إنما الترقى بالغباوة والزحف !

وهكذا يظل فيجارو يحاور الكونت ويداوره ، كما يحاور ويداور كل من يلقى حتى يكون يوم زواجه ، ويخيل إليه وقتا ما أن عروسه قد ذهبت للقاء الكونت ، فتختفى الابتسامة من شفتيه ويتقطب جبينه ، وقلوب الحاضرين تحوطه جميعا بحرارتها وعطفها .

ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظلام الليل ، وها هو فيجارو وحيدا مجهدا ، يقص علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة بعد أن نفد صبره ، وأصابت السهام شغاف قلبه ، ها هو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التى يحب .

« لا . لا يا سيدى الكونت . ألأنك سيد كبير تحسب أنك عبقرية فذة ؟ المولد والثراء والوجاهة الاجتماعية — كل هذا يغرى بالخيلاء . ولكن ماذا فعلت لتنال كل تلك الخيرات ؟ لقد قاسيت آلام الولادة ! أليس ذلك كل ما فعلت ؟ وأما أنا فياويل القضاء فيما فعل بى ! ولدت لأب لا أعرفه ، واختطفنى لصوص ، نشأت على ما ألفوا من خلق حتى سئمت الحياة معهم ، وحاولت أن أجد لى مهنة شريفة ، وطرقت كل باب ، وكل الأبواب موصدة أمامى . لم يستطع الناس احتقار الذكاء ، فانتقموا بعجزهم بالاساءة إلى من وهب ذلك الذكاء .... وزج بى فى السجن حتى منوا إطعام رجل مغمور مثلى ، فألقوا بى إلى الشارع وكاد اليأس يأتى عنى . ثم وجدت مركزا خاليا ، كان المطلوب كاتب حسابات فتقدمت إليه ، ولكنهم أعطوه لرقاص . فلم يبق لى إلا أن أسرق . ولكن كيف السبيل وكل من حولى يسرق ما استطاع ؟ ولكنهم يطلبون إلى أن أكون أمينا ، وإذا فليس لى إلا أن أموت جوعا ... وأخيرا أخذت حقيبتى ومواسى ، وخلفت الدخان ورائى يتغذى به الحمقى ، وأما الخجل فقد طرحته فى منتصف الطريق ، لأنه أثقل من أن يحمله من يمشى على قدميه ، وسرت أحلق من بلد إلى بلد ، وقد استطعت أخيرا أن أتخلص من هموم الحياة المادية .

« لقد دفعت إلى الحياة بغير علم منى ، وسأغادرها دون أن أريد ، ولكنى نثرت على جوانب ما سلكت من سبلها الوعرة كل ما استطاع مرحى من أزهار » .

وحزن الحاضرون لحزن فيجارو ، ولكن الموقف لا يلبث أن ينجلى ، فاذا زوجة الكونت هى التى ذهبت للقاء زوجها . وأما سوزان عروس فيجارو فتخف إلى زوجها ، والكل مغتبط بانتقام ذكاء فيجارو من وقاحة الكونت .

وتصفو النفوس ، ويظل فيجارو فى خدمة الكونت هو وسوزان ، وتتقدم بفيجارو السن ، ويخلص لعائلة سيده

فى « الأم الجانية » وينجى تلك العائلة من العار • ولكنه لم يعد فيجارو كما عهدناه ، لم يعد رمز ذلك الشعب الأبى الذى ثار على الظلم وأبى أن يستسلم لوقاحة أولئك الأشراف المجرمين ، لم يعد ذلك الشجاع الساخر الذى يجالد الالم ويضمد لشكل بؤس ، لم يعد بعد مونتسكيو ورسو وديديرو وفولتير وغيرهم ممن قوضوا بالسخرية اللاذعة نظاما كان لا بد من زواله ، ليستطيع من رهبهم البله حرارة فى قلوبهم ، وذكاء فى رؤوسهم من أبناء الشعب ، أن يعيشوا فى جو حر أبى لا تستقيم الحياة بدونه •

ولهذا نقف من تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه فى ذهن القارىء مثلا حيا لمبلغ ما يستطيع أن يسمو إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة التى حكم القضاء أن يعيش فيها •

فيجارو أنموذج بشرى خالد لأبناء الشعب الذين لا يطامن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح ، فان لم يكن العنف فلتكن السخرية •

فيجارو رمز ثورة مجيدة ، حررت البشر من قيوده ، وفتحت أمامهم آفاقا من الحرية واحترام الانسان لأخيه الانسان ، لا نزال إلى اليوم نلمح فى جوانبها أجمل الأحلام •

لقد فعل فيجارو فى الثورة الفرنسية ما لم يفعله الحديد والنار ، وتلك أسلحة الأيدى أما فيجارو فكان ولا يزال سلاح النفوس •

فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التى لا تدفع • فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذى لا يريد أن يستجدى أحدا ، وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوما ما ، ذلك الشعب الذى يشكو من نظام فاسد لا بد أن يقيم على أنقاضه نظاما أصلح •

دون كيشوت
Don Quichote

يحكى أنه كان ببلاد اليونان عملاق جبار اسمه « أنتيه » لم يستطع بطل من الأبطال أن يثبت له فى نزال ، حتى ضجت الانسانية من بطشه ، وحتى ضرع البطل المشهور هرقل إلى أبيه زيس كبير الآلهة أن يدله على وسيلة يقهر بها ذلك المارد المخيف ، واستجاب زيس لضراعة ولده ، فكشف له عن مصدر قوة « أنتيه » ، قال : « أى ولدى هرقل ، إن أنتيه ابن لـ « جية » (الأرض) ، فما دامت قدماه مستوثقتين منها ، فلن يقهره أحد ، لأنها تمده بقوتها فما عليك إن اردت قتله إلا أن ترفعه عن الأرض ثم تجهز عليه » • ورفع هرقل « أنتيه » بيده ، وأطاح برأسه باليد الأخرى ، فتخلصت الانسانية من شروره ، وهكذا نحن فى الحياة ، لا بد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحا وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم وأن يلابس الواقع عن قرب • وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم ، فمثلهم لنكد الطالع كمثل انتيه وقد رفع إلى الفضاء ، ما تلبث السيوف أن تذهب برءوسهم •

عن مغزى تلك الأسطورة القاسية تمخضت حياة سرفنتيس الكاتب الأسبانى الذائع الصيت ، خالق دون كيشوت (١٥٤٦ — ١٦١٦) • فقد امتلأ خياله منذ طفولته ، كما امتلأ خيال دون كيشوت بكل ما قرأ فى قصص الفروسية ، حتى لم تعد أحلامه إلا سحرا ومعارك ، وتحديا وقتالا ، وجروحا وصيحات غرام وعذاب ، وما إلى ذلك من خوارق الأمور ، وتمكنت تلك الأحلام من نفسه حتى نزلت منها منزلة الحقائق الثابتة ، وحتى لم يعد تاريخ العالم فى نظره سوى

سلسلة من تلك المغـامرات • ولـكم قعقعت أسلحـة « رولان » بمفـاوز الجبال ، ولـكم نشرت قـلاع « بربروس » الرعب على صفحات الميـاه ! فمـا له لا يغـامر كما غامروا وما له لا يلتمس المجد بحد السيف كما التمسه من قبـل أبطال ؟

وشـاءت الأقـدار أن يفشـل سرفنتيس فى كـل مـراحـل حيـاته • حارب فى البر والبحـر من أجـل أسبانيـا ومن أجـل المسيحية • حارب بايطاليا وتونس والبرتغـال • وفى سـنة ١٥٧١ شهد تلك المعـركة الداميـة التى شنهـا المسيحيون ضـد الأتراك فى « ليبانت » بمضيق كورنثـا بأرض اليـونان وخـرج من القتال وبصـدره طعنتان داميتان ، وذراعه اليسرى ممدودة إلى عنقه ، وأقعـدته الحمى سبعة أشهر بصقلية ، حتى إذا أبل من مرضـه ، واستقل سفينة ليعـود إلى وطنـه ، سقط بـين أيـدى قراصـنة البحر يقـودونه إلى الجزائر حيث يظل أسـيرا أربعـة أعوام • وأخيرا ساقت إليـه الأقدار من بنى وطنـه من افتداه بثمن غال • وعاد إلى أسبانيا ، ولكن البؤس لم يفارقه ، فكم من محاكمة ! وكم من أيام قضـاها بالسجن لذنب ولغير ذنب ! وحتى مجـد القلم لم يستطع أن ينـاله ، فرواياته التمثيلية لم تصب ما أمل من نجـاح ، وشعره الغنـائى لم يلق آذانا مصغيـة •

لقـد كـان من حـق سرفنتيس أن يتنـكر للحياة ، وأن يعـود من أحلام صبـاه ليستوثق من الأرض بقـدم ، وقـد ألقت محن الأيام فى نفسـه بذور الشك ، فاستحالت آلامه سـخرية من آماله التى طوحت به فى كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة • ومن منـا لا يحس فى نفسه بتلك الحقيقة الانسانية اللاذعـة ، وهى أننـا مهمـا تنـكرنا لأحلام شبابنا ، ومهما سـخرنا ممـا كان فيهـا من طيش ، لا نملك إلا أن نحنـو عليهـا ، ونرفق بهـا ، كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا •

دون كيشـوت رمز لأحـلام الشـباب ، وأى سـحر أفعـل فى النفس من تلك الأحـلام ؟ لقـد تـذهب أحـداث الحيـاة بتلك

الآمال العذاب التى يقوم عليها صبانا كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها على ان يخمد • ولقد تنقطع أوتار القيثارة ، فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رمادا مقدسا ، ولا بد للألحان من رجع فى النفس تحن إليه كلما عدت بها الذكرى من ثنايا الماضى الجميل •

وهل أدل على نبل أحلام الشباب وسحر جمالها من أن تتحطم فى نفس صاحبها فيسخر منها ، وإذا بتلك السخرية الرفيقة الحزينة تأتى بأروع تحقيق لتلك الأحلام ؟ لقد كان سرفنتيس يبغى المجد بحد السيف أو بسنان القلم • فخانته الأقدار وخيل إليه أن تلك الآمال لم تكن إلا نزقا مضحكا ، فاتخذ من دون كيشوت رمزا لشبابه ، وقص له ما كان له من مغامرات جنونية ، فأصاب دون كيشوت الخلود ، وأصبح اسم سرفنتيس على ألسنة الانسانية أنى ذهبت : يقرؤه الأطفال فيلهون بما فيه من قصص ممتع ، ويقرؤه الرجال فتفتر شفاههم وتنقبض قلوبهم لما خلف هذا العبث الظاهر من مآس ، وحتى الشيوخ تراهم يجمعون الأطفال من حولهم ليقصوا عليهم نبأ ذلك الفارس الجوال الذى ثم يفرغ البشر من فهمه وتخريج أفعاله وأقواله كل مخرج • وقد بلغ من غنى تلك الشخصية أن أصبح دون كيشوت رمزا لكل معنى . فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خبله أنه موكل بالآم البشر يحاول لها إصلاحا ، فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب فى غير مضرب • ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء • وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه وعلى وجهه فهم الشباب الذين يحسون بفيض من الحياة : أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه ، لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها ، ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ وأما

سرفنتيس فيكفيه مجدا ألا يرى اليوم طفل أو شاب أو شيخ حصانا هزيلا محطما إلا صاح : آه ! روسنانت • وروسنانت حصان دون كيشوت الذى رفعه بطلنا من مرتبة خيل الفلاحة إلى درجة جياد الفرسان عندما انعقد عزمه — أو جنونه إن أردت — على أن يجوب بقاع الأرض ليصلح ما بها من شرور •

وذلك أن دون كيشوت لم يكن فى بادىء حياته ذلك الفارس الجوال الذى خلفه سرفنتيس فى عقولنا • لقد نشأ سرفنتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا • نشأ فلاحا متواضعا إلى أن حفزته قراءة قصص الفروسية إلى أن يحيى عهد هؤلاء الأبطال • ولقد كانت للفروسية إذ ذاك مواضعاتها • فلا بد للفارس من أسلحة ، ولا بد له من جواد كريم ، حتى إذا اجتمعا له طلب إلى أحد الفرسان القدماء أن يقيمه فارسا فى حفل سنقص مراحله عما قريب ، والفارس لا يحيا لنفسه ، ولا يجد ما يحفزه على البطولة خيرا من فتاة يجعلها مستقر حماسته ومعبد أفكاره • فكيف السبيل إلى كل ذلك ؟ الأمر هين : بحث دون كيشوت فى زوايا منزله المتواضع ، فعثر لحسن الطالع على أسلحة قديمة بمخزن غلاله ، فاستلها منه ، وأصلح ما بها من عيوب ، وأزال ما علاها من صدأ • وأما الجواد فأمره أهون ، وقد بلغت حكمة هذا الفارس المجنون أن فطنت إلى أن حقيقة الأشياء كثيرا ما تقف عند مسمياتها وإذا فليعط حصانه اسما جميلا نبيلا ، فاذا به « روسنانت » الجواد الكريم ، وأى جواد حمل اسما أجمل من هذا ؟ روسنانت ؟ وهب أن الاسم لا يلاقى المسمى ، فما على دون كيشوت من ذلك وأغلب قيم الحياة مواضعات لانفهم من حقائقها شيئا ! وأما الفتاة وما يجب أن يتوفر لها من نبل فى المحتد وسحر فى الجمال فالأمر عنده لا يعدو مجرد إيمان من يحب بما تخيل إليه نفسه العطوف من قيم بمحبوبته ، وإذا فليتخذ دون كيشوت له فتاة ريفية ساذجة لم يرها فى حياته

قط ، وليعطها اسما من أسماء الأميرات ، وليشد بجمالها ونبلها أينما حل . لتكن فتاته « دولسينيه دى توبوزو » . ولاح أن فى هذا الاسم من جمال الجرس وندرة الوقع وجلال المعنى ما يتفق مع اسمه هو « دون كيشوت فارس المانش » .

ها هو دون كيشوت مسلحا على ظهر روسنانت جواده الكريم ، وها هو ما يستانف شوطه فى الحياة « ولتكن أولى مغامراته حفل تنصيبه فارسا . سار فى يومه الأول حتى انتهى إلى فندق بالريف ، خيل إليه أنه قصر منيف ، فاتجه إلى صاحبه ، وأخذ يخاطبه كشريف يخاطب شريفا ، وكان صاحب الفندق من الخبث — رغم بلادة حسه — بحيث قبل منه أن يقيمه فارسا ، وأدخله إلى فناء فندقه ، حيث امضى المسكين دون كيشوت ليله قائما إلى جوار أسلحته التى عقدها فى حزمة إلى حافة بئر هنالك ، حتى إذا أتى الصباح أتاه صاحب الفندق ، وبيده « دفتر حساباته » ، وتظاهر بأنه يقرأ فيه صيغة الفروسية ، ثم ضربه بمسطح سيفه ، وصاح به أن اذهب فأنت فارس .

خرج دون كيشوت من الفندق فارسا أصيلا ، وبقلبه إيمان ثابت بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو إصلاح ما فى العالم من شرور . ولم يكد يخطو خطوات حتى رأى فلاحا قد شد خادمه إلى شجرة ، وأخذ يوجعه ضربا لأنه طالب بأجره . أثار هذا المنظر شهامة دون كيشوت ، فخف إلى الرجل وأرغمه على أن يفك وثاق الخادم ، وأخذ عليه عهدا ألا يعود إلى ما ارتكب من ظلم ، ولكنه لم يكد يمتطى « روسنانت » ويواصل سيره حتى عاد الفلاح فشد وثاق الخادم وعاد الظلم إلى مجراه . وهذا مثل مما أوهم به دون كيشوت نفسه من إمكان رفع الظلم عن المظلومين .

ويااليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولم يمتد الأذى إلى شخص دون كيشوت نفسه ، فنكم جرت عليه أحلامه شرا مستطيرا . لقد كان من واجبه — على الأقل فى نظره هو — أن

يدافع عن فتـــاته ، وأن يحمل كل من يلقى من فرسان على الاقرار بأنهـا أجمل وأنبـل من تقـل الأرض ، وإلا فكيف يقبل أن يكون فى الوجود فتـاة خيرا من فتـاته ؟ وفعلا لم يلبث أن لقى جمـاعة من التجار فى طريقـه ومن خلفهم خدمهم ، فحسبهم لجنونه فرسانا جوالين مثـله ، فاستوقفهم ، وتحداهم أن يدلوه على فتـاة أجمل من « دولسينيه » . فقـال أحدهم : « أيهـا الفارس الكريم ؟ لسنا نعرف دولسينيه فتـاتك تلك . أرنا إياها فإن وجدناها على ما تزعم من جمال حكمنا لك بما تريد » . فأجاب دون كيشوت : « وأى فضل يكون لكم ، وكل ما ستفعلونه عنـدئذ سيكون الاعتراف بالحقيقـة الراهنـة ؟ إنمـا المهم هو أن تشهدوا بهـذه الحقيقة دون رؤيتها وأن تعلنوا تلك الحقيقه ، وأن تقسموا بإيمانكم بهـا ، وأن تدافعوا عنها ضـد كل إنسان » . هكذا أراد دون كيشوت ولكنه لم يستطع حمـل هؤلاء الرجـال على ما أراد ، فهجم عليهم « بروسنانت » ، وزلت قـدم الجواد فسقط الفـارس على الأرض ، وأشبعه أحـد الخـدم ضربا ، وبقى دون كيشوت على الأرض متعثرا بأسـلحته لا يقوى على النهوض ، حتى خف إليه أحـد الفلاحين من معارفه ، فأنهضه وقـاده فى حالة يرثى لهـا إلى منزله ، حيث لزم الفراش أياما يداوى جراحه .

رأته مربيتـه وبنت أخته وأصدقاؤه القسيس والحلاق على هـذه الحـالة ، فقرروا لساعتهم أنه لا بـد من إحراق قصص الفروسية الموجودة بمكتبـة دون كيشوت ، لأنهـا هى التى أضلت عقـله وأصابتـه بهـذا المرض العضال ، وهم يظنون أنهم بعملهم هـذا سيشفون دون كيشوت من هـذا الداء شفاء لا نكسة بعـده ، ولكن أنى لهم بأن يلزموا هـذا الفارس الجامح حيـاة مغلقـة الآفاق مبتذلة الأحداث ؟ لا . لا بـد لدون كيشوت من الرحيل من جديد ، ولكنـه سيحتاط للأمر هـذه المرة فيأخـذ معـه مالا وتابعا يسير وراءه أينمـا يذهب . واختـار دون كيشوت تابعـا له فـلاحا من

جيرانه لا يقل عن البطل شهرة ، ومن يجهل « سانكوبانشا » ؟ وقبل سانكو أن يصاحب فارسنا لصداقتــه له ولأنه كان رجــلا طلعــة بطبعــه ، ثم لأن دون كيشوت وعــده بأن يعطيه جزيرة ليحكمهــا بمجرد أن يكون الامبراطورية التى يأمل أن يخضعها لسلطانه .

واستأنف دون كيشوت السير ومن خلفــه سانكو ، وبين الرجلين من التنــاقض ما بين الجنون والعقــل فى عرفنــا . فعنــدما يغرق دون كيشوت فى أحلامه ، نرى سانكو يملأ بطنــه أو يرطب حلقه ، وبينما يسهر دون كيشوت الليــل الطويل يناجى دولسينيه ، نسمع سانكو يغط ما استطاع غطيطا ، ولكنه لا يخلو الأمر ، إذا ما سقط دون كيشوت عن ظهر روسنانت واشبع ضربا ، من أن تصيب سانكو بعض لكزات ، إذ أن محاولاته الفرار لم تكن دائمــا منتجة ، فكثيرا ما كان يلحق بــه ، وربما تخلف عن سيده قليــلا فسقط بين أيدى من لا يرحم له موجعــة .

ولكم كان بودى لو استطعت أن أقص على القــارىء شــيئا من حوارهما ، ليستبين موضع الحكمة من كلام هــذا المجنون ، وموضع الجنون من كلام هــذا العــاقل ، أو العكس ، ولكن أنى لى بذلك ؟ وأى جــدوى من سرد مآس تضحك منهــا الشفاه وفى القلوب أسى عميق ؟ ثم من منــا لا يذكر طواحين الهواء التى حسبها دون كيشوت عماليق فانقض عليهــا بجواده فألقتــه أذرعهــا إلى الأرض محطم الأضلاع . ألا يرى معى القارىء كيف بلغ من بؤس هــذه النفس الخيرة أن أخــذت تضرب فى غير مضرب ؟ وكم يكون أسف القارىء لو أخبرته أنه اتفق يوما لدون كيشوت أن قاتل دون مسجونين حتى أطلق أيديهــم من الأغــلال ، ثم طلب إليهــم أن يذهبــوا — إلى « دولسينيه » ليقــدموا إليهــا « واجبات الاحترام » ، فرفضوا ، بل وضربوا دون كيشوت ضربا مبرحا .

حــدث كل هــذا لدون كيشوت وأمر منــه ، فكم عجز عن رفع ظلم لفساد نفوس البشر ، وكم لاقى عن شــهامته أســوأ الجزاء ،

بن دنم أضل انقضاء ضرباته فضاعت عبثـا ـــ حدث كل هــذا ممــا لا أريد أن أحزن بــه القــارىء ، ولكنى لا أملك أن أمسك القــلم عن ذكر ما كان من نزول دون كيشــوت وســانكو بأحــد الأشراف الحقيقيين ، وكيف أن هــذا الشريف أعطى سانكو بالفعل ضيعة من ضياعه ليحكمهــا موهما إياه أنهــا الجزيرة التى وعــده بها سيده .
وبودى لو أمعن القــارىء فى النصــائح الثمينــة التى زود بهــا دون كيشوت إذ ذاك سانكو ، فقــد أوصاه قائلا :

« أى بنى : أوصيك بتقوى اللــه ، فتقواه رأس الحكمة ومادمت حكيما يصحبك التوفيق فى كل أمر . ثم اذكر دائمــا نشأتك الأولى لكى تفهم نفسك على حقيقتهــا ، وهــــذا الفهم هو أشق وأنبــل ما يجب أن تتطلع إليــه . احــذر نزوات نفســك ، ولتحرك فيــك دموع الضعفاء رحمة لا تقل عمــا تحرك شكوى الأقوياء من عدل . حاول أن تعثر على الحقيقــة فى ثنــايا ما يعدك بــه الأغنيــاء من وعود ، وما يقــدمون لك من عطــايا ، قــدر حرصك على التماسها فى زفرات الفقراء وإلحاحهم الممــل .

« اذكر دائمــا أن طبيعــة البشر فاسدة ، وأن الكثير من آثامهم إنمــا مرده هــذا الفســاد الأصيــل . فعنــدئذ لن تقســو على مجــرم » .

يا له من جنون ذلك العقل الذى يفوه بتلك الحكم !

وأما « سانكو » فلم يطل حكمه . وكيف له ـــ وهو الرجل الواقعى العــاقل ـــ أن يزج بنفسه فيما لم تهيئــه له الأقدار ؟ لطالمــا طلب إلى دون كيشوت أن يحــد من طموحــه ، وأن يتخلى عن أوهامه ، فكيف له الآن أن يقيم نفسه ـــ وهو الفلاح البسيط ـــ حاكمــا على العبــاد ؟ أليس من الخير أن يقنع بمــا خلق له . أليس من العقل أن يتخلى عن جزيرته الموهومة ليعود إلى جــوار ســيده ؟ أليس سانكو على النقيض من دون كيشوت ؟ أليس هو العقــل نفســه إن صح أن دون كيشوت هو الجنون المطبق ؟ وبالفعل تخلى سانكو عن جزيرته الموهومة ليعود إلى مصاحبــة دون كيشوت . ومن عجب أن يحرص العقل على مصاحبة الجنون كل هــذا الحرص !

واستمر دون كيشوت فى مغامراته . وكل فشل يغريه بمغامرة جديدة ، وعزمه ثابت لا ينال منه شىء ، حتى كان يوم انهزم فيه بمعركة دارت بينه وبين فارس آخر . وعز عليه أن يهزم كرجل ضد رجل ، ونالت الأحزان من نفسه فخر مريضا ، ولازمته الحمى عاما كاملا ، خرج منه وقد عاد إليه عقله .
وبودنا لو امتدت به الحياة ليقص علينا ما هداه إليه جنونه من دروس . ولكن الموت لم يلبث أن واتاه ، وكأنه قد ناء بحمل عقله ، أو كأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسى :
« نحن أمواج إن تسترح تمت » .

مات دون كيشوت بعد كفاح تعزى بنبل غايته عن كل المآسى ، ونأى به لم يستطع عزاء عن تلك الأحلام الجميلة التى تهدمت بتهدمها حياته . مات فتلقى الموت كما يتلقى محب ابتسام حبيبته أو شهيد وجه ربه . مات بعد أن علم أن القتال لخير البشر قتال مع طواحين هواء . مات بعد أن فشلت جهوده ولم تعد لديه القدرة على استئناف حياة بليدة راتبة كالتى يحياها ملايين البشر من الخاملين .

مات هذا المجنون . ولعله « كالسست » موليير و « مغفل » دوستيوفسكى من أولئك الذين لا نضحك منهم ولا نرميهم بالجنون إلا لقصور فى عقولنا وفساد فى طبائعنا . وهذا العالم الجميل الذى صبت إليه تلك النفوس النادرة ، لعله العالم الحقيقى ، العالم الذى يجب أن يحيا فيه البشر إن أرادوا رفع قلوبهم إلى المثل الأعلى .

مات دون كيشوت فى كتاب سرفنتيس ، ولكنه بقى فى عقول جميع الأجيال التى عبرت الحياة ، أو التى ستعبرها رمزا لما فى نفوس الشباب الخيرة من التماس الخير والفناء فى سبيله ، رمزا لما قد تقود حماسة القلوب إليه ، مما يسميه الحمقى جنونا . مات وظلت حياته درسا خالدا لما فى الجهاد فى سبيل المثل الأعلى من نبل يكتفى به عن كل النتائج .

فوست
Faust

(١)

« تسألونني : أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لى أن أعرفها ؟ ثم أنى لى بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء ! هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن فى فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى ما زال وهو فى حمأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك — ما ينير الكثير من وقائع حياته ، ولكن هذه ليست الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، بل ولا فى أى جزء من أجزائها تأخذه على انفراد . أى نجاح كنت أصيب لو أننى حاولت أن تنتظم تلك الحياة الغنية النزعات المتنوعة الأحداث فكرة واحدة كما يجتمع العقد إلى نظامه ! ولكنه ليس لى كشاعر أن أجسم فكرة مجردة . لقد أودعت نفسى كل ما تلقيت من احساسات ، إحساسات عديدة حية متنوعة ، وأتانى بها خيال دائم اليقظة ، فتناولتها كشاعر بالصياغة والصقل ، ثم أسلمتها القارىء صورا نابضة الألوان أرجو أن تثير فيه ما أحسست » .

هكذا يحدث جيته صديقه إيكرمان عن فوست ، وعلى ضوء هذا الحديث نستطيع أن ننفذ بعض الشىء إلى أسرار تلك الشخصية العجيبة التى رافقت جيته خمسين عاما من حياته ، يصور بعض نواحيها حينا ، ثم يتركها ليعاودها بعد زمن ، وهو فى كل يوم يفيد جديدا يضفيه على رجله الذى اتخذ منه رمزا لمأساة النفس البشرية ، تجالد الحياة لتنتزع منها سرها الكامن ، فتطمئن إلى يقين وتفلت من حيرة أبدية .

على أن جيتـه لـم يخلـق فـوست من العـدم ، فقـد ألفت القـرون الوسطى تلك الشخصية : شخصيـة الرجـل يهب إبليس روحـه على أن يـكشف له عمـا يجهـل من سر وأن يمكنه ممـا تصبو إليـه نفسـه من لذة ، فينـال من الحياة ما يعـز على عامة النـاس ، ولـكم آمن رجال ذاك العهـد بالسحـرة وعصيهـم وحيلهم مما تغص به آدابهـم ، بل لقـد عاش بالفعل فى القـرن السادس عشر « دكتـور » اسمه « فوست » اجتمعت إليـه كـل خصـائص السحرة التى تحدثنا عنهـا آداب القـرون الوسطى •

ونحن بعـد لا نـدرى أكان هـذا الرجـل نصـابا أم كان ممن يصـدرون عن فيض إلهى ، ولـكنا نعلم أنه أنفـق عمـره ضاربا فى بقـاع الأرض يحتال على الحيـاة بخـداع سذج العقـول ، ولـكم سما صيته بين طلبـة انجامعات بألمـانيا ، ولم لا ؟ ألم يكن مثلهم ضليعا فى الآداب اليونانيـة واللاتينيـة القـديمة ؟ ثم ألم يبلغ من مهـارته يـوما أن بعث من قبرها أمام أبصـارهم الذاهلة تلك الحسناء الفاتنة « هيلانه » التى جعـل هوميروس من سـحر جمالهـا سببـا لحرب ضروس بين الشرق والغـرب ؟ لقـد كان دكتورنا بلا ريب على صلة وثيقة بابليس — بهـذا ذهبت الأسطورة وهو حى ، فما بالك بعـد موته ! • تناولها خيـال الشعب بالتنمية حتى كان مسيحى متـدين لعله قسيس ، اتخـذ من تلك الحيـاة العجيبة موضعـا للعبرة وعرضهـا فى كتاب — (كتاب الشعب) — يصـور فيـه فوست رجلا حبته الطبيعة بمواهب فذة ، ولم تستطع المسيحية التى نشأ بين أحضانهـا أن تمسكه عن الغـرور ، فهـوى فى الخطيئة • تطاولت نفسـه إلى معـرفة كل سر ، والتمتع بـكل لذة ، ولم يجد سبيلا إلى تحقيـق هـذا الحلم غير الاتفاق مـع الشيطان على أن يهبـه روحـه عنـد المـوت ، وعلى الشيطان أن يرسل إليـه أحـد رجاله (إبليس) يقـوده خلال ما يبغى من لذة محرمة أو معرفة منعت عنا — نعـم إن الدكتـور لم يفقد إيمانه ، وكانت نفسـه لا تزال تحن إلى رحمـة اللـه • ولكم منـاه ذلك

الايمان أن يخادع يوما إبليس فيفلت من قبضته ، وقد فاز منه بما يريد • ولكنه لم يستطع ، فقد نصب له إبليس من أشراك الرذيلة ما تعثرت به خطاه وعز معه الخلاص •

وتناول الكتاب تلك الحياة دون أن يغير أحد من فكرتها كما صاغها « كتاب الشعب » ، ومثلت تلك الحياة على مسرح العرائس ، حيث كان الممثلون شخوصا من الخشب على نحو ما نرى في « الأرجوز » حتى جاء الكاتب الانجليزى الممتاز « مارلو » Marlowe معاصر شكسبير ونده الفذ ، فجعل من فوست ثائرا على ربه ، ثائرا على قضائه ، ثائرا يكسب عطف من يستمع إليه ، وحسب الناس أن مارلو قد خلع على فوست وجودا لم يفلت منه أبد الدهر • وما علموا أن جيته سيتناول هذا الشبح فينفخ فيه روحا جديدة ، روحا تجعل من الشبح رمزا لكل عبقرى يضيق بما في بطون الكتب من معرفة زائفة فتصبو نفسه إلى الحياة ، وإلى المعرفة المباشرة ، يستقيها من قلوب البشر ، أو من حفيف الأشجار ، وإن يكن في نزعته هذه ما يباعد بينه وبين البشر ، فتثقله وحدة النفس ، ويعقد به ضعفا البشرى عما يريد فيتعاقد مع الشيطان كما تعاقد أسلافه • ولكنه اليوم لم يعد كما تصوره خيال الشعب : ذلك الرجل الذى يهوى مع إبليس إلى نار جهنم ، فقد جعل منه « أسنج » رمزا للمعرفة الكاملة ، وقد ارتفع به جيته إلى سمو الرجل الممتاز الذى يسعى بكل قواه وراء المعرفة والحياة ، وقد اتخذ منه شاعرنا مستقرا تجتمع إليه مسرات البشر وأحزانهم •

وفى الحق أن فوست ليس نفسا مبتذلة ، وإلا لما كان موضع نزاع بين إبليس والله (تعالى عن ذلك) • وهل يقتتل أحد على توافه الناس أو الأشياء ؟ وفطن إبليس إلى أن نفس فوست بها من قوة الحياة ما يدفعها إلى التماس كل سر والتمتع بكل لذة ، فأحس فيه فريسة لشره ، وود لو فاز به ، ولكن كيف

السبيل والله مستقر بضمير فوست ؟ وهل النفوس الخيرة مهما أسفت إلا ملائكة هوت ، فما تزال تذكر السماء . ولكم ترددت نفوس فى الخطايا ثم أثار بها الندم سبيل الخلاص ! اللهم إن هذا حق آمن به فوست واطمأن إليه ، فتعاقد مع إبليس بمداد من دمه على أن يهبه روحه يذهب بها أينما شاء ، إن رضيت نفسه الرضاء كله بما يمكنه منه إبليس من لذات .

ها هو فوست فى غرفة درسه يحاور نفسه الثائرة : أو ما يسميه الناس « دكتوراً » ؟ أو ليس يعلم أكثر مما يعلم الغير ؟ ولكنه قد انتهى إلى حدود المعرفة ، ونظر فوجد معرفته جوفاء لا تورث يقينا ولا تجعله خيراً مما كان . ومتى كانت المعرفة ، متاعاً يسلمه شخص إلى شخص حتى نستطيع أن نلتمسها فى بطون الكتب ؟ وكيف لروح قوية كروح فوست أن تفنى بين جدران حجرة ضيقة وهى أوسع من أن يحتويها عالم الأرض على رحابته ؟ وكيف لحواسه أن تهدأ وقد خلقت حادة قوية لا يشبعها غير الاحساس المباشر يرسله خلالها ندى الصباح وبريق نجوم الليل ؟ وهبه أصاب معرفة ما ، أليس فى ملابساتها ما يذهب بما لها من سلطان مطلق ؟ وهبه خطا نحو ما نألف من سعادة خطوة ، أليس من خلف خطوته هذه هوة سحيقة يتردى فيها فيبتلع الزمن ما لم يكد ينعم به ؟ وهبه أصاب لذة ما ، أليس من ورائها ندم لاذع يذيقنا مر العذاب ؟ وإذاً فيلتمس فوست من إبليس عوناً على أن يصل إلى معرفة أسرار الحياة والوجود معرفة مباشرة كلية مطلقة ، وأن يصيب من اللذات ما يترك فى النفس رضى أبديا ونشوة لا تزول . هذا ما يبغى فوست ، ولكن ترى أيستطيع إبليس أن يقدم إلى فوست ما يريد ؟

إبليس هو روح الشك والنكران — روح هدامة — روح الشر ، فكيف له أن يهدى فوست إلى يقين أو أن يدله على لذة تدوم ولا تورث ندما ؟ إبليس هو وحى غرائزنا الوضيعة ، يكمن فى أنحاء

نفوسنا المظلمة ينير ما استقر فيها من عناصر الشر ويلتمس لها أهدافا يغرينا بها . ها هو يتقدم إلى فوست وقد ارتدى ثوبا أحمر يطرزه الذهب ، وفوق كتفيه معطف من الحرير الثقيل ، وبقبعته ريشة ديك . وسيفه الحاد السنان معلق بخاصرته . وها هو ينصح إلى فوست ان يرتدى رداء كرداثه ، وان يترك غرفته مخلفا بها تلك الوساوس التى آتلفت عليه ايامه ليدنف إلى الوجود ملتمسا أسرار الحياة .

« وای ثوب يستطيع أن يغير من شعورى بضيق الحياة وقد جاوزت سن المرح دون أن أبلغ سن اليأس من اللذات وماذا يستطيع العالم ان يمنحنى ، ودقات الزمن تصيح باذاننا صيحات أبدية بح بها صوت الوجود فى أغنية لا تنقطع ان « تنح ، نعم ، تنح » ؟ استيقظ مع الصباح فتغلى نفسى غيظا ، وألقى ضوء النهار بدموع مريرة لعلمى آن اى نهار لن يحقق شيئا مما آملت ، بل إنه لمفسد على ما أتوقع من سرور ، وفى ضوئه تتناولنى الألسنة بالنقد اللاذع المرير ، فتشل فى نفسى كل توثب للخلق بما تأتينى به من أحزان الحياة البغيضة ، ثم إذا جن الليل ذهبت إلى فراشى وفى النفس لوعة مقضة ، هنالك لا أنعم براحة ، وفى أضغاث الأحلام ما يملؤنى رعبا . ترى الآله الذى يسكن عقلى لا يمسك عن إثارة ما استقر باعماق نفسى ، وقد بسط سلطانه على كل ما آملت من قوى ، بينما هو أعجز من آن يثير شيئا من هذا العالم الخارجى . شيئا اتبع به ما يثير فى نفسى ، ولهذا كانت الحياة عبئا يثقلنى ، وكان الموت احب إلى نفسى من هذه الحياة البغيضة » .

ولكن إبليس لم ييأس من فوست ، لعلمه انه بشر ينتابه اليأس والأمل طورا بعد طور ، وهو بعد على ثقة من انه يستطيع ان يغير من لون نفسه ما انتزع تلك النفس من وحدتها وصرفها عن التفكير فى حقيقتها ، ولقد نجح إبليس فيما أراد . وقبل

فوست أن يصاحب إبليس « على أن يسلمه روحه إن استطاع أن يسلمه إبليس إلى الدعة يركن إليها ، فيطمئن ويرضى عن نفسه بما يخادعه به من لذات ويتملق عنده من غرائز » . وفى الحق إنه لا تفاق عجيب ما يزال الناس حتى اليوم يستوضحون معناه . ترى أموضع النزاع هو : إلى من ستصير روح فوست ؟ إلى خالقها تسمو إليه ما تعلقت بأشمه المثل العليا ، ام إلى جهنم يقوده إليها بليس بخطا حثيثة ملتوية ؟ أم هو مصير الانسانية قاطبة تتنازعها قوى الخير والشر أم هو لا هذا ولا ذاك ، بل نزاع بين ملكات النفس المختلفة — ملكات تسمو بنا إلى أعلى ، وأخرى تهبط بنا إلى أسفل . ومن يدرينا ؟ قد يكون الأمر مجرد جونة — كما يقول جيته نفسه — يحمل الشاعر فوست عليها بين الأرض والسماء ليرى ماذا تخلف خطاه من أثر ، وقد انعقد عزمه على أن يجوب خلال الطبيعة التى خلقنا بين أحضانها وفى حناياها كل سر دفين . « ألست ترى إلى الأشياء كيف تفكر خلالنا وكيف نفكر خلالها ، وإن تكن وحدة تفكيرها أدق من أن تكون قضايا وأكثر ما تكون نغما أو لونا » وقد انعقد عزمه على أن يجوب خلال النفوس البشرية ، ولكم أودعها الله من سر لا تسلمه إلا لما يشابهها من نفوس ! ولكم تجرى أصدق الحقائق على أبسط النفوس ! ولكم يفيض التبتل من أشد القلوب سذاجة ! ولسوف نرى كيف أن لذات الحياة المادية لم تورث فوست غير ندم سما بنفسه ، ولسوف نرى نشوة الخيال لا تدوم إلا إلى حين ، ثم تولى تاركة فى النفس فراغا مؤلما ، ولسوف نرى أن العمل نفسه قد تخدعنا ضوضاؤه وإن لم يخلف أثرا يبقى ، ولسوف تنجلى مأساة فوست عن سبيل النجاة ، وما سبيلها إلا أن نحيا بقلوبنا ، وأن نضع لعقولنا حدودا تلزمها دائرة لا تعدوها .

وما لنا نستوضح هذا السر ، وفى خطوات فوست وإبليس ما هو أوضح دلالة من كل تفكير ؟ أليس من الخير أن نصاحبهما

لنرى ما هما منتهيان إليـه ، ثـم نحكم بعـد ذلك على ما تعـاقدا عليـه ؟ .

ها هـو فوست وإبليس يبدان رحلتهما الطويلة الشـاقة بزيارة لحانة بليبزج . حاول إبليس أن يغـرى فـوست بالتماس اللذات وسط جماعة الطلبـة وهم يلهـون فى صخب وضيـع ، وكؤوسهم بين أيديهم يعبونها عبـا ، وحناجرهم تردد أقبح الغنـاء وأتفهه : « نحن وحوش اللذة ـ نحن خنازير الورى » وسمع فوست هـذا القرار فصـدفت نفسـه ولم يجـد ما يقول إلا رجـاءه إبليس أن ينصرف به عن هـذا المـكان ، وكيف لنفس حامية كنفس فوست أن تستريح للذات الحانات الحقيرة ؟

وحسب إبليس أن فـوست لم يسـترح إلى تلك اللـذات لأنه قـد جاوز السن التى كان يستطيع أن يلهـو فيهـا مـع الطلبة ، فقـاده إلى سـاحرة أعطته شرابا يرده إلى بـدء الشباب ويوقظ فى نفسـه لذات الحواس ، ولئن صدفت نفسـه عن لذات الشراب وصخب الشباب فليعد له إبليس هـذه المرة أشراكا أحكم حلقات ، وليغره بما هـو أعلق بكل نفس ، ليدفعـه إلى الحب . وفيما هـو فى الطريق مرت بهمـا فتـاة جميلة طاهـرة النفس تطلعت إليهـا رغبـة فوست الظمأى إلى الجمال ، واحتـال إبليس حتى أوصله إليها ، وحسب أنه قـد نجح فى الهـوى بنفس فوست إلى ما أراد من سقوط ، ولكنه لم يفطن إلى أن جمال تلك الفتاة ونبـل نفسهـا خليقان بأن يسموا بفوست عن كـل إسفاف . ولم لا ، وقـد خبرا جبته نفسه تلك التجربة الرائعة عند ما أحب ـ وهو فى الرابعة عشرة من عمره بفرنكفورت ـ فتـاة تشبه مرجريت هـذه شبه قطـرات النـدى بعضها لبعض ؟ ودخـل فوست إلى غرفة مرجريت ، وكان الوقت أصيل الغـروب ، فارتفـع قلبه إلى المثل الأعلى ، وانطلق لسانه بأجمل الشعر : « مرحبـا بك أيهـا الشفـق العذب ؟ أيهـا الضياء البليل يرسـل أشعته الذهبية تنير هـذا المعبد المقـدس !

وأنت أيها الغرام المبرح ! دونك قلبى أمسكه بعذابك العذب عن أن يأتى عليه الفناء وسط ندى الآمال ! يا له من هدوء وديع ! يا له من استقرار راتب ! يا له من رضى نفسى جميل ، ذلك الذى يعمر تلك الدار ! أى غنى يملأ هذا الفقر البادى ؟ وأى سعادة تملأ هذا السجن المظلم ؟ » .

ووجدت نفس فوست راحة من حيرتها الأبدية ، وأحست نفس فوست برضى لم تستشعره أبد السنين ، وكاد رجلنا يفلت من أيدى إبليس ، وكاد رجلنا يطمئن إلى الحياة مخلفا وراءه عهدا مظلما لم يعرف فيه غير القلق وشقاء النفس . أليست مرجريت بطهارة نفسها ، وجمال روحها ، وفتنة وجهها — خيرا من فوست بعلمه الذى أنزل بنفسه الخراب وساقها إلى تطلع أبدى لن يلقى من ورائه خيرا ؟ ولكن إبليس له بالمرصاد ، ما يزال يغريه بالشر حتى يقع ما لا بد منه . حملت مرجريت ، وسقت أمها السم على غير علم منها ، وهى تحسب أنه منوم بسيط سيمكنها من أن تخلو بحبيبها كما أوهمها إبليس . وظهر حملها وثارت ثائرة أخيها لهذا العار الأبدى ، فأغرى إبليس فوست بقتله فى نزال دبره ذلك اللعين . ووضعت مرجريت حملها ، وضعفت نفسها عن مجابهة الناس بعارها ، فألقت بوليدها إلى اليم . وحزن فوست حزنا عميقا ، وقد أخذ الندم يحز فى نفسه حزا ، وإبليس لا يمهله لحظة ، دائب الوسوسة فى أذنيه . ولكم ود لو يعينه إبليس على أن يقوض ما بقى من أركانها ليفلت من هذا الشقاء المقيم : شقاء النفس الخيرة تساق إلى الشر سوقا فلا تعود منه إلا بأمر الآلام .

وألقى بمرجريت إلى ظلام السجن ، وثارت ثائرة فوست ، وود لو تسحق قدرة الله إبليس اللعين . وحاول إبليس أن يمد من غواية فوست بمعسول القول فلم يستطع ، ولهذا لم ير بدا من أن يأخذه إلى قمة جبل بروكن حيث تعقد الجن عيدها

المنوى ، وهناك أغرى به فتـاة حسناء ، لعله ينسيه ألم الندم الذى أوشك أن يطهر نفسه من كل شر ، ولعله يعود بـه إلى السقوط ، ولكن هيهات فها هى مرجريت تلوح وسط هذا الصخب فيما يشبه أحلام اليقظة ، فيغادر فوست العيد عاديا ملء أرجله إلى حيث تقيم مرجريت وسط غياهب السجن ، وأرغم فوست إبليس على أن يقوده إلى حيث هى ، ووصل فوست إلى مرجريت ، وحاول عبثا أن ينجو بها من السجن ، ولكن إلى أين تذهب وقد أصبح العالم لها سجنا أضيق من سجنها ؟ لا ! لقد فات الوقت ، وصاح إبليس مغتبطا : لقد كتب لها الهلاك ، وصاحت أصوات من السماء : بل كتبت لها النجاة ، وقاد إبليس فوست إلى خارج السجن ومن جوفه صوت يصيح متهافتا : هنرى ! هنرى ! وخرج هنرى فوست إلى فضاء الأرض وقد ضاق بـه الفضاء بما رحب ، وأخذ منه الاعياء كل مأخذ ، فألقى بنفسه على حشائش الأرض ينتظر قضاء الله فيه ، ترى ماذا ستفعل بـه رحمة الله ؟

أراد فوست أن يمس الحياة عن قرب ، فلم يجد فى الحياة غير مرارة الندم ، أراد فوست أن يلتمس من الطبيعة أسرارها ، فضاق به فضاء الأرض ، ولكن أليست هناك رحمة الله تملأ الوجود ، وقد حلت بكل شىء ، ونفذت إلى كل نفس ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الله غافر لهذا العبد النادم ما أتى من سيئات لم يقصد إليها ، ولعله ملهمه نسيان ما كان ، ولئن كانت لذات الحياة الحسية لم تعقب خيرا ، فلعل فى نشوة الخيال ما يغنى ، ولئن ضاقت بفوست الأرض ، فهناك ما خلف الأرض ، هناك لا شك عوالم غير عالمنا ، ليحاول فوست أن ينفذ إليها ، ولننظر ما هو مصيب منها ، لقد عافت نفسه اللذات الحقيرة ، وشقيت نفسه بحب حسى ، فليطلب إذا لذة المجد ، وليصرف قلبه إلى مثال الجمال يحبه بروحه ، ليصرفه إلى هيلانه رمز الجمال ، وليسخر إبليس فى بعثها إلى الحياة ، ولننظر بعد ذلك ما سوف يكون من أمره .

(٢)

تركنـا فوست وقـد جره إبليس إلى مغامرة غرام ، خرج منهـا ونفسـه يحطمهـا النـدم • ومن عجب أن تكون نجاته على يـد ضحيتـه ؟ ومن عجب أن تلاقى نفس مرجريت السيئة بالحسـنة ولكنهـا نفس خيرة — هى من معـدن نفس فوست — نعـم من معدنهـا ، وإن تكن تفضلهـا بمـا احتفظت به من سذاجة وطهر ، ولئن سقطت مرجريت فما كان ذلك لشر فى طبعهـا ، ولا لاسـفاف فى غرائزها • وهل كانت مرجريت إلا زهرة تفتحت لندى الحب عن طيبـة قلب ، وحسبته خيرا صراحا ؟ وهـل أدل على نبلهـا من أن تخف إلى فوست وهو بين الجن والسحرة • وقـد أوشك أن يهوى هويا لا نهوض بعـده فتدعوه بحزنهـا البـادى ونفسها الكسيرة إلى أن يخف إلى السجن يتلقى عنهـا قبـل أن تحتضر ، درسـا لن ينسـاه أبـد السنين ؟ ماتت مرجريت وتركت فوست طريحا على الحشائش بين أحضان الطبيعة التى طالمـا حن إليها ، ولكن أنى له أن ينعم من الطبيعة ببـال وقـد تملكه النـدم يهمس فى أذنيـه : « إن من أتمـلكه لا يحس للعـالم بوجـود — تتراكم من حـوله الظلمات — للشمس أن تشرق أو أن تغيب ، ولحواسه أن تظل يقظة مفتحة الأبواب ، وأما نفسه فهيهات أن يتبـدد منهـا ما يملؤها من ظلام — تحوطه كنوز الأرض ، وهو عاجز عن أن يفيـد منها شيئا • تشقيه السعادة قـدر ما يشقيه البؤس • يتضور جوعا ومن حوله خيرات الأرض جميعـا ، يرجىء إلى غـد كل لذة وكل ألم ، وأنى له أن ينعم بشىء وقـد علقت حيـاته بانتظـار المسـتقبل الذى لا يأتى ؟ إن هم بأمر لم يدر أيتـابع السير فيـه أم يعود أدراجه ، يخونه العزم وهو فى منتصف الطريق ، فيتردد ويتعثر فى خطـاه ، تزل به القـدم شيئا فشيئا وتختلط أمام بصره الأشياء ، هو حمل على نفسه وحمل على الآخرين — لا هو بالحى ولا هو بالميت ، وقـد عز عليـه حتى اليأس أو الاستسلام ، فهو دائم الحيرة ، متراخى

العزم ، ينتـابه كسل مؤلم ونفور من كل نشـاط ، نومه هيـج ، وصحوه عذاب ، وقلبـه نهب للرق والأسر ، وهو فى كل ذلك ملصق بالأرض ينتظر أن تنشق أفواه جهنم لتبتلعـه » •

ولكن أليس هـذا الندم شـفيعا له لدى رحمة اللـه ؟ أليس دليلا على أنه لا يزال هنـاك بريق من ضوء اللـه ينير حطام نفسه ؟ أليس دليـلا على انه لا تزال هنـاك شرارة مقدسـة تلمـع وسط هـذا الرماد الفـانى ؟ نعم لقـد فشلت حيـاته التى عاشها حتى اليوم ، ولكن ما أصاب من لذة أو شـقاء لم يعـدم أن ينير مكنون ضميره ، كمـا تثير الرياح المتضادة أمواج البحار ، وما دامت روح الشر لم تتملك روحه ، فـلا شك أن سبيل الخلاص لا يزال مفتوحا أمامه •

وأتتـه أرواح الطبيعـة ترنحه حتى نام ، ثم وسدته أكاليـل الورود وحملتـه إلى نهر النسيان ، حيث عادت الحيـاة إلى جسمه المحطم ، ثم فتحت عينيه على ضوء النهـار المقدس • ولكنه لم يكد يعود إلى الوجود حتى وجـد إبليس أمامه • وهـل روح أشـد عنـاداً من روح الشر ؟ وهل إبليس من الغفـلة بحيث لا يفطن إلى أن الفوز بنفس ممتـازة كنفس فوست لا يعدله فوز ؟ ليكن لابليس ما يريد من ملازمة فوست • وأما بطلنـا فهيهـات أن يعود إلى تلك الخواية التى لا تزال ترتعـد لهـا فرائصـه • لقـد التمس اللذة الحسية فلم يجـد غير المرارة ، وفيم هـذا العناء ؟ ألسنا نستطيع أن نحيـا بالخيـال ما تنطلق إليـه رغباتنا ؟ أو ما ترى إلى الناس يذهبون إلى المسرح فيخيل إليهم أنهم قـد عاشوا فيمـا يرون من أحداث وهميـة ، وبذلك يدخرون من طاقتهم الفعليـة ويضيفون إلى حيـاتهم ألوانا أخرى من الحيـاة ! أو ما يذكر بعضنا كيف أن رغبات النفس قـد تبلغ من القوة حـدا إذا تحققت معه ، لا ندرى عنـدئذ أحلمـا نرى أم ماضيا نذكر ؟ ثم أليست السعادة والشقاء معـانى ذهنيـة أكثر منهـا حقائق واقعـة ؟ وإذا فليلتمس فوست

لذات الخيال بعد أن خدعته لذات الواقع ، وليسخر إبليس فيما يريد ، وليدن أول ما يريد مجد الشهرة والغنى .

وقاده إبليس إلى بلاط الامبراطور ، فاذا بالأمبراطورية فاسدة ، وإذا بالأمبراطور عاجز عن إصلاحها . واتفق أن كان مضحك الأمبراطور فى شبه موت من شدة السكر ، فقبل الامبراطور إبليس ليحل محله ، وأصبح فوست ساحر القصر الأمبراطورى ، وهنا تقع مهزلة ملأى بالعبر — رأى المضحك الجديد أن موضع الداء بالأمبراطورية هو نضوب المال ، فأكد للأمبراطور أن جوف أرضه ملىء بالكنوز الدفينة ، وأنه ليس من الضرورى أن ينقب عنها ، بل يكفيه أن يحمل الشعب على الاقتناع بوجودها ، وفى إيمان الشعب ثروة لا يجف لها معين ، وتحققت تلك الأضحوكة ، وانتهز إبليس فرصة انهماك الامبراطور ذات مساء فى لجب اللذات فحمله على التوقيع على ورقة بنكنوت يضمنها ما فى جوف الأرض من كنوز ، وطبع من تلك الورقة عددا لا حصر له وجرت تلك الأوراق فى التداول ، والكل مؤمن بقوة ضمانتها ، فاغتنى الأمبراطور واغتنت الامبراطورية ، ولكم من أناس يبنون مجدهم فوق أكذوبة كهذه ، ولكم من أناس يجمعون المال ، والفضل كله لحمق البشر !

وتساقطت عن الأمبراطور همومه ، وتكاثرت من حوله الخيرات ، وكان على إبليس وفوست أن يفتنا فى طرق تسليته وإدخال السرور على نفسه ، فأخذ فوست مفتاحه السحرى ينظم بفضله عيدا من أعياد الأدب ، وهل أمتع للأدباء من أن يبعثوا إلى الوجود هيلانة وباريس ؟ وسر فوست بما أتى ، ولكنه لم يكد يرى هيلانة حتى هاله جمالها النادر ، وأحس نحوها بحب قوى ، وبلغ هذا الحب المثالى من نفسه مبلغا أخذ بكل حواسه . فجعله يستشعر نحو باريس غيرة شديدة أنسته الدور الذى يلعبه كساحر ، فأدار مفتاحه نحو هذا الراعى الجميل ، وما هى إلا حركة بسيطة حتى اختفى الكل ، وبقى فوست يتحرق لوعة على هذا الجمال الذى

لم يستطع أن ينعم به ، وإن ترت فى نفسه أثرا لن يمحى . ألم يصح عنـد رؤيتهـا ، « أو ما تزال عينـاى تبصران ؟ أليست نبع الجمال فياضـا يتدفق فى أعماق نفسى ؟ ما أحلاك جزاء لمـا بذلت من جهد ! وهل كان العـالم قبل أن أراك إلا عدما أو لغزا معمى ؟ وأما اليوم فقـد أعطـاه جمالك معنى ترغبه النفس وتطمئن إليـه الحواس واثقـة من بقـائه ؟ ألا فلتغـادرنى أنفـاس الحيـاة إن شئت ان أحيـا بدونك . أنت الحـافز على كل نشاط ، أنت الباعث لكل عاطفة قويه ، إليك كل ما أملك من عطف وحب وعبادة وجنون » .

إذا لقـد وجـد فوست غاية فى الحيـاة . وأى غاية أنبـل من هيـلانة ، مثـال الجمال المطلق ؟ وعلى إبليس ان يبلغـه ما يريد . سـيعيد الحيـاة إلى هيـلانة أليس فى ذلك ما يذكر جيتـه بتلك ولكنـه لن يقنع هـذه المرة من هيـلانة بذلك الشبح الذى لا يكاد يرنو إليـه البصر حتى يختفى كضباب الصباح تبـدده أول أشـعة النهـار . إنه يريد هيـلانة الحقيقيـة — هيلانة أسبرطة وطروادة — هيلانة فى زهرة الشباب — هيلانة ابتسامة تسحر وجمال يسبى . نعم هـذا ما يريده فوست ، وقـد جعلت منـه لمحة الجمال رمزا لخيـار البشر يلتمسون الحق والجمال بالعلم والحب ، وما تهـدأ لهم ثائرة حتى يصلوا إلى ما يريدون وهنـا تتسع عبقرية جيتـه حتى تشمل كل ما فى الوجود ، بل وما خلف الوجود و حتى إن إبليس نفسه ليخشى أن تسوق فوست قدماه « إلى ذلك الفراغ اللانهائى الذى لن يرى فيـه شيئا ، ولن يسمع حتى وقع أقدامه ، ولن يجـد ما يركن إليـه طلبـا للراحـة » . وتختلط على القـارىء السبل ويحـار فى أمره ، ولكن ما دام فوست يريد من إبليس أن يأتيـه بهيلانة الاغريقيـة ، أليس من الطبيعى أن ينقلنـا الشاعر إلى تلك البلاد ، بل إلى اسبرطة نفسها موطن تلك الحسناء ؟ وما دام إبليس سيعيـد الحيـاة إلى هيـلانة أليس فى ذلك ما يذكر جيتـه بتلك المعضلة التى لازمت تفكيره طول حيـاته ، معضلة أصل الحيـاة ؟ ولم لا يستعرض إذا ما وصـل إليـه العلم فى عصره من فروض ؟ ولم لا يقص علينـا ذلك النبـأ العجيب نبـأ فجنر تلميـذ فوست

الأمين • وقــد خلق إنسانا صغيرا فى أنبوبة اختبــار بفضل ما يعلم من قوانين الكيميـــاء • وها نحن نرى أبطالنــا الثلاثة يسيرون معا إلى بلاد اليونان : الانسان الصغير باحثــا عن مصــدر الحيـــاة ، وفوست جريا وراء هيــلانة ، وإبليس متربصا لتلك النفس الكبيرة التى يريد كسبها ، وجيتـــه يحلق فوق الجميع بتلك العبقرية الفــذة التى أحاطت بكل شىء ، فانطلقت آلهــة الأساطير وأنصاف الآلهــة وأرواح البحر والبر والســماء •

ولقى فوست فى طريقه « شيرون » الحكيم فأخبره أنه يبحث عن هيلانة ، وأنه لن يستطيع الحيــاة بدونهــا ، فظنــه شيرون لأول وهلة مجنونا ، وأخــذته به رحمة ، فأراد أن يلتمس لجنونه علاجا ، ولكن فوست يرفض هــذا العلاج بإباء ، ويخبره أنه يريد أن يحيا حيــاة مبتــذلة كما يحيــا غيره من الناس ، وإلا كان جديرا بكل احتقــار ، ويقوده شيرون إلى « مانتو » بنت إله الطب إسكيلاب ، وعنـــد مانتو كل علم بأسرار النفوس • ودار بين مانتو وفوست حوار أحست خلاله تلك الآلهــة الخبيرة بأن فوست ليس مجنونا ، وإنمــا هو رجل ألهب المثل الأعلى قلبــه ، واستحوذ على مشاعره ، حتى ليحســـبه الحمقى معتوها وما هو بمعتوه ، وســكنت مانتو من جأشـــه بتلك الــكلمة الرائعـــة : « إننى أحب من يطلب المستحيل » وقادته إلى « برسيفون » إلهة العالم الآخر ، ورقت له تلك الأخيرة ، فردت إليـــه هيلانة مشرقة الجمال •

وأقام إبليس لهيلانة وفوست قصرا رائعا بأعلى جبال البلبونيزيا ، حيث عاش فوست مع هيــلانة أروع أحلام حيـــاته ، إلا أن حبهما لم يكن حبــا مبتــذلا ، بل كان مغامرة لا مثيل لأصالتهــا • وكادت تتم لفوست السعادة لولا أن ولدهما « إفريدن » — رمز الشعر — ذلك العنصر النــارى الذى لا تهــدأ له حركة ، لم يستقر له قرار ، فأخــذ يجوب الآفاق حتى سقط فى مخالب الفنــاء داعيــا أمه إلى اللحاق به • ولحقت هيلانة بولدها فى العــالم الآخر ، وبقى فوست

وحيـــداً وفى نفسه حسرة ما لهـــا انقضاء ، فيا عجبـــا ! حتى هـــذه الحياة الشعرية لا تسكن إلى بقاء ! أهكذا كتب على البشر إلا تطمئن بهم حال حتى ولو كانت من نسج الخيـــال ؟

والآن ترى ماذا يفعل فوست بنفسه وقـــد خانتـــه لذات الخيال كمـــا زخانته لذات الحواس • وقـــد أورثه الحب مرارة الندم كمـــا أفلت الجمـــال من بين يديه ؟ لم يعـــد له إلا أن يصرف نشاطه إلى ميـــدان العمل يأتى فيـــه بما لم يأت بمثله أحـــد من قبل ، فينـــال إعجاب النـــاس به ورضي نفسه عما وفق إليـــه • وأى دواء لنفس حائرة كنفســـه خير من أن يشـــغل ملكاته عن التفـــكير فى نفســـه وفى الحيـــاة •

ونظر فوست فرأى البحر يغمر الأرض فيشل إنتاجهـــا ، وحدثته نفســـه عن مبلغ ما يصيب من مجـــد لو أنه استطاع أن يرد البحر عن شواطئـــه ، وأن ينتزع منـــه بقاعا يخصبها بالأشجار الدانيـــة القطوف والأزهار الباسمة الألوان والرجال الناعمين بالحياة • وأى عمل أعظم من أن يضع للبحر حـــدودا لا يعدوها ؟ بذا جرت الأحلام فى نفس فوست ، فاتجه إلى إبليس يطلب إليه تحقيق تلك الأحلام ، وصدع إبليس بالأمر وهو على ثقـــة من أن فوست سيرضى بمجـــد باطل يفقـــد معـــه رهانه • واتفق عنـــدئذ أن كانت الأمبراطورية فى ثورة ضد الأمبراطور ، وقـــد نصب أحـــد الأعداء نفسه امبراطورا جـــديدا ، فأعـــد إبليس لفوست من أسباب سحره ما استطاع معه أن يقهر الأمبراطور الجـــديد ويثبت الأمبراطور القديم فى عرشه • وشـــاء عرفان الجميل أن يحمل هـــذا الأخير على أن يكافئ فوست بمنحه الأراضى المجاورة لساحل البحر ، وبذا أصبحت احلام فوست سهلة التحقيق • أليس فى استطاعة إبليس أن يأتى فوست بقوى غير مرئية تدفع البحر عن شاطئه وتقيم أمامه حواجز متينـــة ترد أمواج الميـــاه ؟ وزرعت الأرض المنتزعة من الميـــاه • ونمـــا زرعها وانتشرت بينـــه مساكن الزراع • والآن — ترى أرضيت نفس فوست ؟ كلا •

فهناك شيخان لا يثقان بما أتاه فوست من معجزات ، وللشيخين (رجل وزوجة) منزل بأعلى الشاطىء ، وهما همـا يرفضان النزول عنـه والسكن بالأرض الوطيئة التى انتزعها فوست من اليم . وبقى منزلهما قائما يسخر من فوست . وبنفسه رغبة فى شراء هـذا المنزل ليضيفه إلى قصره الذى بناه ، والشيخان يصران على التمسك بـه فكيف السبيل ؟ وأحس إبليس بما يدور فى نفس فوست ، ومن أدرى منه برغبات النفوس ؟ فأخذ يحرك غرائزه ويهيج من كبريائه حتى استفحل الأمر ونفد الصبر ، فتقدم له عندئذ راجيا أن يكل إليه أمر مفاوضتهما بالحسنى ، على أن يكون له الحق فى استعمال ما يرى من وسائل الاكراه إن فشلت المفاوضة . وأبى الشيخان الاستماع إلى حديثه ، فأمر إبليس رجاله باحراق المنزل ، وأكلت النار المنزل كما أكلت الشيخين بداخله .

فنى الشيخان ، وما إلى هـذا قصد فوست ، ولكن ما فعله إبليس لم يكن إلا استجابة لرغبات نفسه الدفينة ، ولهـذا نراه يلعن إبليس ويستنكف فعلته . ولكنه يحس فى أعماق ضميره أنه مسئول عن هـذا الجرم ، ولذلك يعقد العزم على أن يفارق إبليس ، وأن يحيا حياة بشرية عادية دون الاستعانة بوسائل الشيطان ، ولكن أنى له ، وقد جاوز الخمسين فى صحبة إبليس ، أن ينهض بأعباء حياته التى أنفقها بعيدا عن حياة البشر وسط عالم مسحور حتى أصبح عاجزا عن فهم الواقع ، وامتلأ وجوده بالأشباح ؟ ! ومع ذلك فما تزال إرادته قوية كما كانت ، وما يزال نشاطه موفورا . وإذن فليحاول حياة البشر :

« لقـد أنفقت حياتى أجوب خلال الأرض ، أقتنص ما تصبو إليه نفسى وأطرح ما لا يرضينى ، موليا ظهرى لما يفلت من بين يدى . لكم تحركت بنفسى رغبات ، ولكم أشبعت تلك الرغبات ، ولكنى ما أكاد أفرغ من واحـدة حتى تثور بنفسى أخرى . وهكذا

واصلت شوطى فى الحيـاة بقوة لا تدفع وبخطى بدأتهـا حثيثـة ، ثم ها هى اليوم تهدأ وتعتدل . لقـد أحطت بآفاق الأرض علمـا ، وأما ما خلف تلك الآفاق فدونه حجب مسدلة . ما أحمق من يرفع إلى السماء بصر يعشيـه ضياؤها ، وقـد خيلت إليـه أوهامه أن وراء السحب أحيـاء تشاكله . لقـد خلق الانسـان فوق تلك الأرض ، فليكتف إذن بالنظر إلى ما حوله ، وإن فيـه لعبرة لذوى الألباب . ثم فيم الضرب خلال الأبدية ؟ أو ما يكفينـا أن نمسك بمـا نعلم ؟ أو ما يكفينـا أن نسير على ضوء الحيـاة ؟ وإذا لاحت لنـا بعرض الطريق أشباح فلندعهـا وشأنهـا ، وإن أصبنا سـعادة أو شـقاء فلنقبـله ، ولنواصل السير دون أن يطمئن بنـا أبدا رضاء » .

على هـذا وطد فوست العزم وقـد أعلن أنه سـيقبل الحيـاة كمـا هى دون أن يرضى عنهـا . فهل تراه بذلك مفلتـا من قبضـة إبليس ؟ كلا . فإبليس لـه بالمرصاد ، وما دامت الحيرة قـد عادت إلى نفس فوست ، وما دام القلق قـد تملك نفسـه البشرية يقلق راحتهـا ، فقـد عادت الهموم تغزوه من جـديد ، وتعمى بصره ، وها هو إبليس ينتهز فرصـة عماه ليخدعه من جـديد ، وقـد أمر فوست رجاله أن يبكروا فى الصباح إلى حمل معـاولهم ومهاجمـة البحـر يردونه عن الأرض دفعـة أخرى . وأثار إبليس من حـول فوست — بوسائله السحرية — ضجيجا يشبه ضجيج الفعلة ، وحسب فوست أن الأمور تسير على هـواه وأنه مستطيع بوسـائل البشر ما لم يكن يستطيع من قبل بغير وسـاطة الشـياطين ، وما علم أن ما حوله من ضجيج لم يكن إلا خـداعا من شـياطين إبليس ، وأن المعـاول لم تكن تعمل لترد البحر ، بل لتهيىء له قبره الأخير . وبلغ من بؤس الرجل أن صاح برضاه عمـا أتى ، ففقـد رهانه ، وسقط بين يدى إبليس يقوده إلى جهنم وفوق شفتيه ابتسامة الرضى .

« ها هى ذى جنـان الأرض تشرق ! للبحر أن تزخر أمواجه وأن تأكل ميـاهه ما أقمنـا من حـواجز ، فنحن البشر له بالمرصـاد ،

ما نلبث أن نرد عـــدوانه ، ونقيم حاجزا مقـــام حاجز ، على هـــذا كرست حياتى • وأى حكمة يمكن أن تتمخض عنهـــا الحياة خير من تلك الحكمة التى تسوقنـــا إلى وقف حياتنـــا على هزيمة البحر كل يوم ، فنستحق بذلك الحيـــاة ونستحق الحـــرية ؟ وهـــكذا ينصرم الشباب كما تنصرم الكهولة وتتصرم الشيخوخة وسط صراع مستمر يحكم حلقاتهـــا • آه ! لكم وددت أن أرى من حولى من بشر فوق أرض حـــرة بين قوم أحـــرار ، إذن لصحت بالزمن أن قف جريانك لأنعم بتلك اللحظة السعيدة • ولو أنى استطعت ذلك ، لخلفت حياتى على أديم هـــذه الأرض اثرا لن تمحوه أبدية السنـــين • إن نفسى لتحس بتلك السعادة الفياضة ، وإنه ليحلو لى فى هـــذه اللحظة أن أتمتع بمـــا أنا فيـــه من نعيم » •

وهل بعـــد هـــذا من رضى ؟ وهل بعد هـــذا يستطيع فوست أن يفلت من إبليس ؟ ولكن هـــل سعادة فوست هـــذه إلا وهم باطل ؟ وهل رضاه إلا خدعة من عمل الشيطان ؟ يا للعجب حتى ثمار جهدنا تتلقـــاه منـــا الأحضان فإذا هـــواء ؟ وحتى راحة النفس نلتمسها فى الدأب المتواصل فلا يورث الدأب إلا خداعا !

وهوت روح فوست مع إبليس ، ولكنهـــا روح خيرة فمـــا لرحمـــه اللـــه أن تتخلى عنهـــا ، وإلا كانت الهـــزيمة ! وما إلى مثـــل هـــذا يستطيع جيتـــه أن يطمئن ، وإنه لمهيىء لبطله سبيل الخلاص ، ولمعلمه عنـــدئذ كيف يستطيع أن يعـــالج الحيـــاة •

(٣)

هوى فوست بين يدى إبليس إذ أعلن رضاه عما خيل له هذا اللعين من مجد باطل ، ولكن كم كانت دهشة إبليس عندما نظر فوجد روح فوست ما تزال مستقرة بالجثة تأبى أن تغادرها أو تتفكك ذرات ، فاحتاط للأمر وطلب إلى رجاله أن يقصوا أجنحتها حتى لا تغافله فتصعد إلى خالقها . ولو أنها استطاعت لتفتحت لها أبواب السماء ، أما وقد عجزت فهاهى ملائكة الرحمة تأتيها منشدة : « نحن رسل الرحمة نحمل الحياة إلى البؤساء الذين ما تزال قلوبهم تتجه بالدعاء إلى رحمة الله . هيا .. هيا نمس بأجنحتنا هذا الطين البارد ، فتدب فيه الحياة ، هيا نملأ الفضاء بحماسة قلوبنا ، هيا نسكب رحمة الله فى قلوب البشر » .

وسمع إبليس نداءهم ، فهزه الخوف من أن تنقذ تلك الملائكة فوست . ولكن متى كان للملائكة أن ترهب إبليس ومن خلفها قدرة الله ؟ ها هى تساقط الورود فوق جثة فوست كما يتساقط الندى على رقيق الحشائش . وأمر إبليس رجاله أن ينفثوا على الملائكة والورود لهبا يبدد شملها ويذهب بنضرتها ، وعادت الملائكة تحمل الحب والضوء ، وضاعف إبليس من ناره ، ولكنه باء بالهزيمة ، وقد مسه الحب الذى نثرته الملائكة فى الفضاء ، بلهب كوى منه الأديم .

واختطفت الملائكة فوست تسمو به إلى رحاب الله ، وما زالت تقوده فى مقامات الجنة حتى لقى مرجريت ، فقادته ابتسامتها إلى العذراء تسألها أن تمكنه من لقاء وجه ربه ، وبذا انتهت حياة فوست كما ابتدأت بابتسامة من مرجريت ، فيا عجبا ! ضحية تشفع لمن كانت فريسته ؟ . ولكنه الحب سبيل نجاتنا ، الحب بأعم معانيه : حب البشر وحب الله . ولنذكر قول أحد القديسين :

« لو أنني نطقت بكل لغــات البشر بل حتى بلغات المــلائكة ، وكان قولى خاليــا من الحب لكنت كطبل يدوى أو نحاس يطن ، ولو أنني تملكت أسرار الغيب ونفذت إلى كل معنى خفى ، وأحطت علمــا بكل شيء ، بل لو أن قلبي عمر بإيمــان ينقل الجبــال ، وركت بغير حب لمــا كنت شيئا . ولو أنني وهبت كل ما أملك طعــاما للفقراء ، ولو أنني أسلمت جسمي وقودا للنــار وكنت بغير حب لما أفدت شيئا . الحب صبر ودعــة وإحسان . الحب لا يعرف الحقــد ، لا تسمع له صخبــا و لا عجلة ، ليس للكبرياء أن تغل من سلطانه ، وهو تواضع لا يعرف التعــالى لا يسعى إلى نفع ، ولا يحس بمرارة » :

هــذا الحب الذى تستطيع النفس أن تطمئن إليــه فتجد الراحة ، هو ما كان ينقص فوست ، إذ أن عقله كان قــد امتــد إلى كل شيء ، ووسع كل معرفة ، وكان قــد أنفق حيــاته بين الجدران منحنيا فوق صحائف الكتب دون أن يورثه ذلك يقينــا أو يجعله خيرا ممــا كان ، فأحس بفراغ ثم يدر كيف يملؤه .

فوست عقــل طغى على القلب فاشقى صاحبه . فحاول أن يقيم اتزان نفسه ، وقــد فقــدت تلك النفس بفقدان اتزانها كل سيطرة على اتجاهاتها ، فأخــذ يضرب فى كــل مكان يلتمس غــذاء لهــذا القلب ، منــدفعا فى كــل ناحيــة اندفاعا لا يتبيــن معــه مواقع أقدامه ، وعاد من شوطه البعيد منتعلا دمه ، فغادر عالمنا إلى العالم الآخــر على أجنحة من الخيــال لم تلبث أن هيضت ، فسقطت إلى الأرض حيث الحــيرة الأبدية والجهــل الذى لا حــدود له ، وود لو انصرف عن نفسه إلى عمل مجيد يستغرق قــواه ، ولكنه فى تلك المرحلة أيضا لم يستبن الوهم من الحقيقة التى اختلطت أمام ناظره بالأحلام فــكيف له إذا أن يســتقر أو أن تهــدأ له نفس ؟ ومن يدرى ! لعل إرادة اللــه قــد قضت على البشر أن يظلوا فى حيرة أبدية وقلق لا انقضاء له « ولعــل فى ذلك ما يتميز به الإنســان . ألا ترى الأمهــات لا يلدن إلا وسط الآلام ؟ فــكيف لعقــل بشرى

أن يدرك سرا أو يكشف الغطاء عن لغــز إذا لم تهزه المحن فتشحذ من قـــواه .

ولـــكنا نعـــود فنتساءل : وكيف استطاع إذا فوست أن ينجو ؟ وكيف تفتحت له ابواب السماء ، رغم ما كان فى حيـــاته من إسراف لا شك فيـــه ! ويقيننا أن سر نجـــاته يرجـــع إلى ما تمخض عنـــه ذلك الاسراف من دروس . لقـــد علم فوست أن علما يبذر الشكوك فى النفس علم لا خير فيـــه ، وأدرك أن الاحساس قـــد يكون لنـــا فى الحياة دليلا اهـــدى من عقـــل دائم التعثر فى خطاه . ألا ترى إلى مرجريت على سذاجتها وضيق افقها العقلى كيف سبقت فوست إلى رحمـــة اللـــه تمهـــد له سبل السماء ؟ أليس ذلك لأنهـــا آمنت بحبها فغفر اللـــه خطيئتها ؟ وهل أتت فوست ملائكة الرحمة إلا لأن حب مرجريت له لم يعـــدم أن يمس نفســـه فيطهـــرها من شرورها ويقربها من اللـــه ؟

ولقـــد علم فوست أنه إن لم نستطيـــع أن نحيـــا بنفوسنا تلك الحياة الأرضـــية التى قضى علينـــا أن نحياها ، فإنه لا ينبغى لنـــا أن نســـتعين بعنـــاصر الشر وأوهام السحر ، وإلا تراخت قـــوانا وفقـــدت المقـــدرة على الاعتماد على نفسهـــا . وإنه لخير لنـــا أن نشبع ما يثـــور فى نفوســـنا من رغبـــات بما منحتنـــا الطبيعه من قوى ، وأن نعـــرض عما لا نستطيع له تحقيقا ، إذ أنه من الأسهل أن نغير من انفسنا لنلائم العالم الخارجى عن أن نحاول تغيـــير ذلك العالم لـــكى نخضعه لرغبـــاتنا . وسعادتنـــا منوطة بذلك ، وهـــل استثمرت نفس راحة إلا إذا استطاعت راضـــية أو كارهة أن تلائم بينها وبين ما يحيط بهـــا من أناس وأشياء ؟

ولقد علم فوست أن المـــرء ضعيف بنفسه قوى بربه ، وســـيان بعـــد ذلك أكان ذلك الرب ما يعبده المسلم أو المسيحى او اليهودى . أو كان تلك الروح الشاملة التى تحـــل فى الوجـــود كما كان يعتقد جيته . ولقـــد حدثت مرجريت فوست يوما عن الايمان . فسالته :

أمؤمن هو بدين المسيح ! فلم يحر جوابا ، وإن أخذ يصف لها حبه فى ألفاظ ترتعد إيمانا . فأحست مرجريت — كامرأة تدرك بفطرتها أسرار النفوس — أن قلب فوست عامر بالايمان ، وإن لم يكن ذلك الايمان وفق كتاب مقدس ، أو عقيدة مقررة .

ولقد تنطق عناصر الوجود أمام فوست فيحس فيها دبيبا من روح الله ، ولقد تنطلق نفس فوست من سجنها إلى رحاب الطبيعة ، فتحس كأنها تسبح فى معبد أقيم لعبادة الله . هذا الايمان الشائع فى قلب فوست قدر شيوعه فى الوجود كله ، هو سر نجاته ، ولكم تساقطت نفسه حطاما ثم عادت إلى النهوض بفضل ذلك البريق من الايمان الذى لازم الحطام . أليس الايمان بهذا المعنى الانسانى الشامل هو ما يمسك النفوس وقد علقت بين الأرض والسماء ؟

ولقد علم فوست أنه من الخير أن نضع لعقلنا حدودا لا يعدوها . وإنه لتحضرنى الآن كلمة لعميد كلية الطب بباريس قال فيها : « إن من إمارات ضعف عقلنا البشرى ألا يستطيع الوقوف عندما هو فى متناوله ، وأن يتطلع إلى معرفة ما خلف عالمنا المحسوس ، وإن فى منبسط الأرض وحقائق الطبيعة ما يكفى لأن يشغل أكبر العقول ، فما لنا نتطاول إلى ما دون ذلك من أصل الوجود ومصدر الحياة وكنه الله ؟ » وهل فى هذا التطاول إلا بذر للشك فى النفوس وبلبلة للايمان ؟ بهذا اقتنع فوست قبل أن يسقط بين يدى إبليس بدقائق معدودات ، إذ فطن إلى أنه من الخير أن نصرف جهدنا فى عمل منتج ، يعود علينا وعلى الانسانية بالنفع . وإنه لأجدى على فوست وعلى البشر أن يقاتلوا البحر دون أرزاقهم من أن تتبدد نفوسهم فى فضاء الأبدية .

ولقد علم فوست أن المرأة باب من أبواب الجنة ، وإليها تسكن النفوس ، فهى مصدر الرضى ، ولكم دعاها من قبل شعراء لتضع يدها المقدسة على قلوبهم الجريحة . ولقد قادت « بياتريس »

من قبل « دانت » فى مجاج الجنة ، ولقد قادت ابتسامة مرجريت فوست إلى جوار ربه . والمرأة عند فوست أو عند جيته رمز لقوتين كبيرتين : الحب والجمال . وقديما قال أفلاطون : « لو أن الحقيقة صيغت امرأة لأحبها جميع الناس » وهل أدل على ذلك من أن تكون خاتمة فوست تلك الكلمات الرائعة : « ها هو ذا عنصر النساء الأبدى يفتح أمامنا أبواب السماء » .

والآن قد نتساءل : هل تتمخض حياة فوست عن يأس أم عن رجاء ؟ ولقد نعود لنستعرض تلك الحياة ، فنجد أنها قد دارت حول ذلك الثالوث الذى طالما تغنى به أفلاطون : ثالوث الحق والجمال والخير ، ثم ننظر فنجد أنه لم يصل لأى منها . ألم يضق نفسا بتلك المعرفة الزائفة التى نجدها فى بطون الكتب ، فاستنجد بروح الأرض — روح الطبيعة — أن تكشف له الغطاء عما تصبو إليه نفسه من أسرار الحياة والوجود . وخشى ضعفنا البشرى يواجه به قوى الطبيعة ، فاستعان بالشيطان ، وجال خلال الأرض كما جال خلال النفوس ، بحثا عن اليقين ، فلم يعد بغير الندم والخسران ؟ ولقد هفت نفسه إلى مثال الجمال يلتمسه فى هيلانة ، فلم يكد يظفر به حتى دلف من بين أصابعه كنسيم رقيق ، فكيف لنا إذا أن نسعى وراء الجمال وقد عجز الخيال نفسه عن أن يقيم هياكله ؟ ولقد اندفعت نفسه نحو الخير ، فأنقذ الأمبراطور من محنته ، وانتزع من البحر أرضا ود لو درت الخير على العباد ، وإذا بثروة الأمبراطور وهم ، وإذا بمجالدة البحر رجس من عمل الشيطان ، فكيف لنا إذا أن نسعى وراء الخير ، وما الخير من وجود فى غير أوهام البشر ؟

إن فى كل ذلك ما يدعو إلى اليأس ، فهل للانسانية إذا أن تولى ظهرها نحو ما ألفت من مثل عليا ؟ هل لها أن تهجر الحق والخير

والجمال ؟ ذلك ما لا نؤمن به ، وما لا يمكن أن يكون الدرس النهائى الذى انجلت عنه حياة فوست • ودليلنا على ذلك أن حياته لم تضع هدرا ، وقد ارتفعت نفسه إلى جنات ربه • وما ذلك إلا لأنه قد أحس بالحق والخير والجمال • فجاهد فى سبيلها ، وكان فى جهاده هذا خلاصه • نعم إن معنى تلك الحياة والأثر الذى خلفته خطى فوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا فى سبيل المثل العليا ، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحا أم إخفاقا ، فالجهاد نبل فى ذاته •

هاملت
Hamlet

(١)

هملت كصـورة لفنان كبير تلاحقك نظراتها أينما اتجهت وكأنهـا تسائلك : أتستطيع أن تفهم من أنا ؟ حدثنى عما تظن . و لايهولك ما لطخت به يدى من دماء . وكلنـا لا شك قـد بلا من أحـداث الحياة ما يعـرف معه أن النفوس الخيرة ، قـد تحمل على الشر ، وما أنا إلا مثـل لطغيان الروح على الارادة . ولو أننى بقيت على الفطرة كمـا خلقت لانتقمت لوالدى فى غـير تردد ، ولـكان بعـد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثرا إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثـل ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus يسوق اسمى بين من يسوق من ملوك الدانمركة . ولعله يذكر ما كان من محاولتى الانتقام لأبى . وكم فى ثنـايا التـاريخ من أحـداث كهذه طفا القليل منها على الزمن ، وهوى الـكثير ، والناس بعـد لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهـم بما هوى ، ولـكن شكسبير قـد خلقنى خلقا جديداً وأودع روحى من النفاذ ما أزال أشقى به . ألا ترانى أسلط العقل على ما يجيش فى نفسى ، أتناوله بالتحليل فلا أعـود من ذلك إلا بعـزم مفلول ، فأثور على محاولة الفهم والاسراف فى القول ؟ وكل تحليل تحطيم ، وكل عزم لا بـد متراخ ما أرسلناه ألفاظا » .

هـذه مأساتى . ولئن كانت النفـوس الفطرية تشقى بأوهامهـا فنحسب فى كل شجرة إلهـا يرغب ويرهب ، وفى كـل نسمة روحا تحمل الخراب أو العمران ، لأنهـا لا تستطيـع أن تدرك حقـائق الأشياء فتتحرر من الوهم ، فاننى لست دونها شقاء ، وقـد نفذت روحى إلى كل شىء ، بل نفـذت إلى حقيقتها : نفس خـيرة ناطت بهـا الأقدار إراقة الدماء انتقاما لأب كريم ، فكيف السبيل ؟ لقـد

صحت يوما عندما كشف لى شبح والدى عن الجريمة صيحة يأس : « لقــد خرج الزمن عن مجراه ، وإنهــا لمحنــة قاســية أن يكون على رده إلى ذلك المجرى » فحسبت نفــوس كبيرة كجيته Goete « إن نفسى أصغر مما نيط بهــا ، ورأتنى كزهرية — لا شك ثمينة — ولــكنها أضيق من أن تحتوى جذور شجرة عاتيــة ، وما أعــدت إلا لرقيق الزهــور . ونمت الشجرة فحطمت الاناء » . وأضــاف جيتــه إننى نفس لا شك جميلة خيرة ، ولكنها أضعف من أن تستقل بحمل كهــذا ، بل أضعف من أن تستطيع طرحه عنهــا ، وأننى قــد كلفت المستحيل ، لا المستحيل فى ذاته ، بل المستحيل على طبعى . ورأى فيما كان من حيرتى وترددى بين الاقــدام والاحجام مأساة نفس لا تزال تائهــة حتى تضل عن قصــدها ، وكلمــا ذكرته ذكرت حقيقتهــا ، فطغت هــذه على ذاك ، وأخفت معالمــه حتى يصــير القصــد سرابا ، وما استراحت النفس ولا هــدأ الفــؤاد ، إلى أن ساقتنى أحداث الحياة سوقا إلى النهوض بما ندبت له .

ولكنى مسائل نفسى : أضعف أن أتردد فى سفك الدماء قبــل أن أستوثق من جريمة الجناة ؟ أضعف أن أتردد فى قتل رجل أتيته فاذا به يعبد اللــه ؟ وهاك تفصيل ما كان :

عــدت من فيتنبرج Wittenberg التى تلقيت العلم بجامعتها سنــين طــويلة إلى السينور Elsinore حيث علمت أن أبى قــد مات منــذ شهرين ، ونظرت فوجدت أن عمى كلوديوس Claudius قــد خلفــه على العــرش وأنه قــد تــزوج من والدتى جــرتريد Gertude . ورأيت فى مرح عمى ووالدتى وتكالبهما على الحيــاة وعــدم ذكرهما لوالــدى أو الحــزن لوفاته ما نغص على عيشى وألقى الاضطــراب فى نفسى ، فاستشعرت وحشــة غريبــة ، وكأن أسرارا غامضة تحوطنى أينما اتجهت . حتى كان يوم ظهــر لى وسط ظلام الليل ، وأنا بصحبة أحــد الأصدقاء ونفر من الحرس — شبح والدى فــكدت أصعق . وقــد أخبرنى الشــبح بما وافق إحساسى

الغامض • أخبرنى أن عمى قــد ســكب السم لوالدي وهــو نائم بالحديقة ، وأن والدتى قــد قبلت الأمر الواقع واستبدلت راضــية رجلا برجل ، ثم طلب إلى أن آثأر له بقتل كلوديوس ، وأما والدتى فقــد حذرنى من أن أمــد إليهــا يدا بسوء •

صدعت بالأمر وعقــدت العزم على الثأر ، ولكن كيف السبيل ؟ ومن حولى رقبــاء أيقاظ لم أر معهم بــدا من أن أتصنع الجنون • وأوجس الملك خيفة من جنونى هــذا ، فأخذ يعمل بكل ما يملك من حيلة لينفذ إلى أسرار نفسى ، وقــد اتخذت من الجنــون ســتارا أنثر من خلفه كل حقيقة مرة • ودس المجرم على عيــونه يتسقطون نجوى فؤادى أو يحتالون لانطاق مــكنون نفسى • وكــم قاسيت من أن تكون أوفيليا Ophilia الحبيبة بنت بولونيــوس Polonius كبير أمناء الملك — من بين تلك العيون • وفطنت إلى تلك الدسائس فأتلفت على الرقباء مكرهم ، وسخرت من حيلهم • وما ضقت بهــم فى شىء ، وإنما أتانى الضــيق من نفسى ، وما أنا بالرجل الساذج الغفل ، حتى أركن إلى شــبح رأيتــه ، وماذا كنت أتــرك لبسطاء النفوس لو أن الشك لم يتسرب إلى عقلى فيحملنى على أن أضــع حديث الشبح موضع النظر والتجربة • وقلبت وجوه الرأى فلم أر خيرا من أن آتى بممثلين يمثلون أمام الملك والملــكة رواية جريمتهم لأرى أثر ذلك على وجوههم • وكان ما توقعت فلم يطق الملك صبرا على رؤية جريمته ، وأسرع إلى الانسحاب والرعب يملأ نفســه ، وتبعته الملكة التى أرسلت فى طلبى ، وكان بينى وبينها حــوار عنيف لم يؤلمنى منــه إلا أنه كان بين ولد وامه •

« دار الحوار بينى وبــين أمى فى حجــرة تغلق أحــد جوانبها ستارة ضافيــة ، وبلغ من عنف الحديث أن اشــتد بى الغيظ حتى لم أعــد أملك نفسى ، وقــد تحققت من الجريمة ولم يعــد للشك مجال • وانسل إلى سمعى حفيف الستارة وأحسست أن من خلفها شخصا يتلقط الحديث ، فهجمت عليــه بسيفى هــذا ظانا أنه الملك ،

وكم كان أسفى عندما نظرت إليه مضرجا بدمائه فإذا به بولونيوس ، وعلم الله كم كان حزنى لقتل هذا الرجل لا لأنه فى نفسه جدير بأى محبة أو تقدير وهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابى ، ولكن لأنه والد ذلك الملاك الطاهر ، والد أوفيليا التى أحبها قلبى كما أحبتنى .

أسقط فى يد الملك وزادت مخاوفه ، وقد أحس بالموت يرفرف فوق رأسه ، ولما كان يعلم مبلغ محبة الشعب لى وقوة الشبهة التى تلابسه ، كما كان يحرص على رضاء أمى ، لم ير خيرا من أن يحتال على قتلى ، فأرسلنى برسالة إلى ملك انجلترا مع رجلين من رجال البلاط ، وبالرسالة أمر لذلك الملك أن يقتلنى بمجرد وصولى ، فان لم يفعل فالويل له ، وكان رفيقا رحلتى يعلمان ذلك ، وأما أنا فقد أوهمنى الغادر أنه يرسلنى إلى إنجلترا حرصا على حياتى بعد أن قتلت كبير أمنائه ، وكان من حسن طالعى أن توقعت غدره ، فغافلت رفيقى الخائنين وفضضت الرسالة لأمحو اسمى وأضع إسميهما محله ، وكان أن وقعت سفينتنا بين أيدى قراصنة نجوت معهم بنفسى لأعود إلى الدنماركة ، وأما الرجلان فقد وصلا إلى ملك انجلترا حيث لقيا حتفهما .

عدت ولكن لأرى وأسمع ما ينفطر له الفؤاد ، فقد جنت أوفيليا لقتل أبيها على يد حبيبها وفيما هى تجمع الزهور إلى حافة النهر تردت فيه فماتت غرقا ، وفيما أنا عائد وسط المقابر حيث كان لى حديث حزين عن مصائر البشر مع الحفارين رأيت حفلا مهيبا لم ألبث أن علمت أنه جنازة أوفيليا ، ورأيت أخاها لا يرتس Laerts وقد ثارت ثورته وانعقد عزمه على أن ينتقم منى لأبيه ولأخته ، ورآها الملك فرصة سانحة ليستوثق من هلاكى ، فدبر نزالا بينى وبين لايرتس على أن تكون حربة خصمى مسممة السنان ،وزيادة فى الحيطة أعد كأسا دس فيه السم لأشرب منها فيما لو أخطأتنى ضربات الخصم . وكان النزال ، وأصابنى لايرتس

بضربة قوية ، ولكنى تمالكت نفسى وهويت عليه بكل جسمى فسقطت حرابنا ، وتناولت مسرعا حربة كانت حربته وطعنته بها أشد من طعنته ، وأسرعت الملكة إلى شرب نخب ولدها فسقطت صريعة ، وسقطت ، وسقط لا يرتس ، ولكن منازلى النبيل لم يكد يصا رحنى بحقيقة المؤامرة ، وقد صفت نفوسنا على قبر أوفيليا أمام الموت والدماء المراقة ، حتى عادت إلى قواى فنهضت وبذراعي المتخاذلة موتا ضربت الملك ضربة يأس أتت على حياته لساعته ، ثم أسلمت أنفاسى • وآل ملك الدنماركة إلى ملك السويد الغازى » •

نعم ذلك ما كان من هملت ، وقد ساقته الأقدار إلى إراقة دماء أراقها بالفعل سميه فى القرن الثانى عشر ، أو كان يستطيع إراقتها بقلب ثابت غفل وضمير صامت لا يعرف الندم • أما هو وقد أعاد شكسبير خلقه من جديد فى عصر البعث العلمى ، وقد تبدل الزمن فأرسلت المسيحية نور الايمان فى القلوب ، وهزت أوتار الضمائر ، وجاءت الجامعة فزادت بعهدها الطويل نفسه لينا ، ومدت من آفاق تفكيره ، فكيف له ألا يتردد ويناقش نفسه الحساب مرة ومرة ؟ إنه لمن الطبيعى أن تحجم نفس مهذبة كنفسه ، فى عصر النور ، عن ارتكاب جرائم ارتكبها سلفه أيام الظلمات • وإنه لمن الطبيعى أن يتخذ شكسبير من هذا التعارض بين حقيقة نفسه وشناعة جرمه موضوعا لأكبر ما تصورت العقول من مآس ، ونحن لا بدمتسائلون عن مبلغ ما حمله خالقه العبقرى من مرارة نفسه ، وقد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما نزال إلى اليوم حائرين فى فهم سرها ومداها ، وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة من شعره الغنائى (سونت Sonnets) الذى يدور حول ذلك العام عام ١٦٠٤ •

وفى الحق أن هملت لم تنقصه الشجاعة ولا نقصه العزم ، وقد قبل أن ينتقم لأبيه بقلب ثابت ، ورأى فى هذا الانتقام

واجبا مقدسا : ألا تراه يخف إلى لقاء أبيه وقد فرقت قلوب الرجال من حوله وتعلقوا به أن يمسك عن السير وراء الشبح عندما لاح له طالبا أن يتبعه ؟ وكيف يتراجع وهو القائل : « سأتحدث إليه إن ظهر فى صورة والدى النبيل . سأتحدث إليه ولو انشقت أمامى أفواه جهنم تصيح بى أن الزم الصمت » . وظهر الشبح ووجه إليه هملت الحديث ، وأومأ إليه الشبح بالمسير خلفه ، وما إن حاول رفاقه أن يثنوا من عزمه حتى صاح بهم : « فيم الخوف ، والحياة عندى لا تساوى قلامة ظفر ؟ واما عن روحى فبأى اذى يستطيع ان يصيبها وهى مثله خالدة ؟ آه — ها هو يومىء إلى من جديد . وإنى لسائر فى أثره » .

نعم هملت شجاع ، وله من الشجاعة كل مظاهرها ، حتى لقد يوصى نفسه بالهدوء :

« هدوءا أيتها النفس . إن الجرائم لا بد ظاهرة إلى وضح النهار ، ولو غطتها الأرض قاطبة لتخفيها عن أعين الناس . هدوءا أيها القلب ... » .

ولكن حماسته — لسوء الطالع — لا تلبث أن تتبدد حطبا . تراه يتلقى مهمته من فم الشبح بخطبة عنيفة يخشى أن تكون قد استنفدت كل ما فى قلبه من حرارة ، فيتناول قلما وقرطاسا ليدون وصية الشبح له « بأن يذكره دائما » حتى يراها أمام عينيه ، فيضمن بذلك أن تتبع الأفعال الأقوال :

« يا أرواح السماء ! أيتها الأرض ! وأنت يا ، .. ماذا أضيف ؟ أأضيف جهنم ! آه ! تماسك أيها القلب . وأنت أيتها الأعصاب حذار أن تدركى الشيخوخة لساعتك ! هيا ارفعى من قامتى ! أذكرك ؟ ! نعم أيها الشبح المسكين ، سأذكر ما احتفظت الذاكره لها بمكان تحت هذه الجمجمه الحائرة ! أذكرك ؟ ! نعم سأذكرك ! بل سأمحو من ذاكرتى كل ما علق بها من أحاديث الهوى التافه أو قضايا الكتب ! سأمحو منها كل صورة وكل

ذكرى للماضى خطهـا شبـابى أو تلقتهـا حواسى ، غير تارك على صفحات ذهنى إلا وصيتك منفـردة عن كـل ما يحوطها فيحط من قدرها . نعم بحق السماء . أيتهـا المـرأة الخبيثة ! أيهـا الوغـد المجرم المقضى عليـه بابتسامة نفاق لا تزول ! إلى بألواحى . إنـه لمن الخير أن أدون بهـا أنه من الممـكن أن نبتسم ونبتسم دائما ، ولا نـكون رغم ذلك غير أوغاد ، إنى لعلى ثقة من ذلك ، على الأقل بالدانمـركة ، (يكتب) هأنـذا عمى ! والآن إلى قسـمنا . (وداعا وداعا . أذكرنى دائما) وهأنذا اتخذ من كلمتك هذه قسمى » .

أى عنف أشـد من عنف هـذه النفس القوية ؟ وأى قـول أحمى من هـذا القـول ؟ ولـكنها نفس بائسـة نظـرت إلى أعمـاق نفـوس البشر فلم تـر إلا ظلاما ، وارتـد بصرها إلى مكنونها ، فاتخذت منـه وقودا لسخطها . ولكم ثار هملت على نفسه ، ولـكم خطب ضـد خطبه . ولقد أتاه يوما ممثلون يحاكون ما كان من حزن إيكيبا Hecuba ملكة طروادة لمـوت ولدها البطل هكتور ، ويذرفون مثل ما ذرفت من دمـوع ، فاذا بتلك الدموع كأنهـا سياط تلهب من نفس هملت « آه . يا لى من نذل مسف الفـؤاد ! يا للعـار ! هـذا الممثل يستطيع بمجرد التصور أن يحيا حلما من الاحساس ، فيرغم روحه على أن تجـارى خيـاله ، فيتمثل له الخيال حقيقـة ، حتى لا يشحب لونه وتتساقط منـه الدموع ، وكل ذلك لغـير غاية ! أكل ذلك من أجل أيكيبا ؟ ! وأى صلة بينه وبين أيكيبا أو بينها وبينه ؟ ! وماذا كنت تراه إذا فاعلا . لو أن ألمى كان ألمه ؟ ! ..

« أى نـذل أنا ! وكيف لا أكـونه ، وها هو قلبى الهش كالطمى يغـرسنى هنـا فى مـكانى شـبحا ينتظرنى وحى السماء ، وقـد تقاعدت عن غايتى ! إن اللسان لينعقد فى فمى ، ينعقد عن التحدث عن ملك كريم سلبته يد أثيمة تاج الملك ونعمة الحياة . أجبان أنا ؟ ! .

« ... إنه لمن الواضـح أنى لا أحمـل غـير كبد حمامة ، وأن هـذه الكبد قـد عريت من مرارتها تجابه بهـا الظلم كما ينبغى أن

يجابه ، وألا لأشبعت منــذ زمن بعيــد بطون الطيور الجارحة بجثة هــذا الوغــد الحقير ! أيهــا الوغد الملطخ بالدماء ! أيهــا الوغــد الفاسد الطبع الفــاسد النفس ! أيها الضمير الميت ! آه ! الانتقام ! آه ! أى حمار أنا !! يا لهــا من شجاعة ! شجاعتى تلك التى تدفعنى أنا الابن الذى مات أبوه العزيز قتلا ، وصاحت به جهنم والسماء : إلى الانتقام ، ثم ها هو يهــدىء من ثورة قلبــه باللفظ المسرف ، يبــدد قواه لعنات كنــذل حقــير ! ما هــذا ؟ ! ما هــذا ؟ ! إلى العمل ! إلى العمــل ! توثبى أيتهــا الروح ؟ » وكيف لتلك الروح أن تتوثب وقــد انحل عزمها ثورة ألفاظ ؟ •

واستمر هملت فى شقائه النفسى • ولــكم من حــدث أثاره ضــد نفسه ؟ أو لم ير يوما ملك الســويد الشــاب يجتاز أرض الدانمركة ليصل إلى بولونيا ، ينتزع من أهلها بضعة أميــال من أرض جــدباء فصــاح : « أنسيان كنسيان الحيوانات ؟ أم تحــرج الجبن ، جبن نفس تطيل الإمعــان فيما تريد أن تأتى من عمــل قبــل أن تأتيــه فتحطمه إلى أفكار ربعها حكمة وثلاثة أرباعها جبن • وفى الحق إنى لأتســاءل • فيم توقفى الآن ؟ أحاسب النفس : أينبغى أن أفعــل هــذا أو ذاك ؟ وفيم التســاؤل والقصــد واضح ولى من الارادة والقوة ووســائل التنفيذ ما يمكننى من إنفــاذ ما أريد ؟ ••• كيف أتقاعس أنا الذى قتــل أبوه ودنست أمه ، وفى ذلك ما يكفى لاثارة كل حفيظة وتحريك كل نفس ؟ وها هم آلاف الرجال يســيرون إلى قبورهم وكأنما يسير كل إلى فراشه ، والموت معلق فوق رؤوسهم ، وكل ذلك من أجل وهم خادع ومجد باطل يلتمسونه من الاستيلاء على قطعة من الأرض تضيق عن أن تتسع لخطاهم أو أن تضم جثثهم • آه ! لتكن روحى من الآن فصاعدا دما أو لا تكون شيئا » •

هــذا هو هملت كما يــرى نفسه • وإنهــا لرؤية مخيفة ، وإن فى عنف قوله لأوضح دليــل على ما يثــير هــذا القــول فى قرارة نفســه من خــزى • أو ما تراه يطعن بالألفــاظ وقــد عــز الطعن

بالسنان ؟ يا له من مشهد مؤلم ، ذلك الذى نراه فيــه يــكيل لوالدته السباب وقــد أعفــاه شبح والده من أن يثأر له فى شخصها ؟ وإنه لمغتبط بذلك الاعفاء ، وإن تكن غبطته على غــير وعى منـــه • ومن عجب أن يتكالب على قتــل أمه بقاسى اللفظ ، وقــد أمره أبوه أن يترك لهـــا الحياة ، بينما يتــوانى فى قتــل الملك المجرم الأصيل • ولــكن عنف نفسه يلتمس له مخرجا ، فيتبخر ألفاظا ، حتى تــكون مناسبة أخرى تحفزه إلى العمل ، ولو لا تضافر الأقــدار ما أرتكبت تلك النفس جرما قط •

لقــد قيــل إن هملت متردد ، ولــكنا نتســاءل عن معنى ذلك التردد ، وقــد استمعنا إلى أقواله فلم نجده ـــ وهـــو اللبق النافذ البصيرة ـــ يحاول أن يقنــع نفسه بالعــدول عمـــا كلفــه به شبح أبيـــه من انتقام • وإذا كان هــذا شأنه فــكيف لنـــا أن نسميه إذا بالتردد ؟ إن عزمه لثـــابت منعقد ، وإنه لوفى مخلص لمــا يريد • ولــكنه للمرور من العزم إلى التنفيذ ، ومن الاخلاص إلى العمـــل لا بـــد من عبـــور هـــوة سحيقة تتطلب قوة لا نحسب أنهـــا تعـــوز هملت ، ولكنه مغلول الأيدى بقوة أخرى لو أنهـــا أتتـــه من الخارج لحطمها شظايا ، ولــكن كيف السبيــل إلى الخلاص ، وقيـــوده من نفسه ؟

(٢)

لقد كان على هملت المهذب النفس النبيل الخلق والواسع الادراك، أن يرتــكب جريمة كانت ترتــكب فى عهـــود الجهالة الأولى ، ولقـــد ترتكب اليوم ، ولكن من نفس غير نفسه • ولكم تحدث إليـــه عمـــه القاتل المجرم عن قواعد الأخلاق وما يطلب إليهـــا دن أن تكون لحمة الحياة الاجتماعية تمسكها عن التفكك والانهيار • وإنه ليعلم نفـــاق ذلك العم الذى داس تلك الأخلاق تحت أقدامه عنـــد ما كان فى ذلك نفعه وهـــوى نفسه ، ولــكنه رغم ذلك لا يستطيع الافلات من تلك القيود التى درجت عليهـــا طفولتـــه وشبابه ، فهـــو ثائر خاضـــع

لا يدرى أى سبيل يسلك • وقد ألقت إليـه تربيته الأولى • وتفكيره المتصل ، والـكتب الـكثيرة التى قـرأها فى سنى دراسته الجامعية الطويلة بمعانى العـدل والحرص على التمكن من الحقيقة ، ولـكن كيف له أن يصل إلى ذلك والجرائم من حـوله تحاك خيوطها غدرا ، وقـد تلفت النفوس بما يصطخب فيهـا من كذب ومكر وخـداع ، حتى أصبح العـدل حلما ، وأضحت الحقيقة وهما ؟ ولكنه رغم ذلك متسائل • ترى أصدق الشبح ؟ وهل من العدل أن نقتل نفسا بشرية لـا سمعناه من ذلك الشبح الذى لم نره إلا وسط غياهب الظلام ؟ لهـذا تردد هملت وأرجأ الانتقام إلى أن يستوثق من جريمة المجرم فى حفلة التمثيـل التى دبـرها أمام أعـين الملك والملـكة الـذاهلة المضطـربة • وكان هـذا إرجاء لتنفيـذ ما اعتزم ، وما جـريرته فى ذلك وقـد خلق كألسست Alceste يأبى الأباء كله أن يصـدر عن غير الحق والايمان ، فاذا اعوزه اليقين فلينتظر وليكن ما يكون • وما إن ظفـر بما ينبغى من ثقـة حتى أسرع إلى والدته يعنفها بأمر القـول • وما إن أحس بحـركة خلف الستـار حتى انقض على من خلفـه يقتله ، فاذا بـه لسـوء الطالـع بولونيـوس Philinte لا الملك نفسه • وتأبى عبقـرية شـكسبير أن يقتـل هملت وجهـا لوجه ، بل من خلف ستار ، حتى لكأن تلك النفس المهـذبة تسمو عن أن تريق الدماء مسفرة •

ولقـد تتعقد الأمور فيتوقف هملت عن إنفـاذ عزمه ، لا لوحى من ضميره ، ولا لحرص على الحق والعـدل ، بـل لاحساس دينى عميق ، إحساس الذى يعلم أن العبد أقـرب ما يكون إلى ربه وقت الصلاة ، ولقـد رأى هملت قاتل أبيـه منفـردا فى الصلاة وكانت فرصة سانحة للاجهاز عليـه ، ولكنه لم يفعل • وهاك حججه •

« ها هـو يصلى • إن باسـتطاعتى الآن أن أرسله إلى العـالم الآخر • وإنى لفـاعل ذلك •• آه ! إذا لذهب إلى الجنة ، ولـكان انتقاما عجيبا ! لنفـكر فى الأمر : يقتـل مجرم أبى ، ثم آتى أنا ،

ولده الوحيد ، فأرسل هـذا المجرم إلى الجنة ؟ إيا اللـه !! إن هـذا ليس انتقاما ، بل مكافأة طيبة على جرم فظيـع ، لقـد قتـل أبى بقسوة وحشية ، ولقـد أثقله الهضم فنـام • وتناثرت من حـوله خطاياه كما تتناثر ورود الربيع ، وأما عن حسابه كيف قدمه بين يدى ربه ، فذلك ما لا يعلمه إلا اللـه ، وإن كان أكبر الظن أن حسـابه جاء عسيرا ، ثـم آتى أنا فأعتقد أنى قـد انتقمت له بقتلى هـذا الرجل وهو فى سبيل تطهير نفسه ، وقـد أخذ يعدها لرحلتها الأخيرة أحسن إعـداد ؟ ! لا • إلى الغمـد أيهـا السيف حتى تحـين لك ضربة أشـد من هـذه هـولا ، عنـدما يـكون سـكران أو نائما أو مقامرا أو سـاخطا على خالقـه ، أو معنيا بأمر لا يحمل ذرة من الفضيلة التى تنجو بصاحبها ، عندئذ يحق لك أيها السيف أن تضربه ضربة تجعله يصعد إلى السماء بأعقـاب أرجله ، فتهـوى نفسـه وقـد تكاثف بها من الظلمات قـدر ما يتكاثف فى جهنم » •

وفى الحق إنهـا لحجج غـريبة معقـدة • فيهـا رقة الايمان ، وفيها قسـوة الرغبـة فى انتقام مر • وكان هـذا إحجاما آخـر عن تنفيذ ما اعتزم •

كل هؤلاء مشاعر نفسية تعـوق هملت عن العمـل ، وفى بصيرته من الوضوح ما ينير جوانب نفسه ، ولكنه ضوء يكاد يعشى الأبصار ، هو ضوء الهذيان ، ضوء نفس قـد تفتحت أمامهـا أبواب العـالم الآخر فرأت أشباحه فاستحالت حياتهـا حلما مستمرا لا يراه أحـد غيرها ، لأن أحـدا لا يشاركها تلك الحياة ، فهى فريدة فى بابهـا • وهل أدل على ذلك من حـديث أوفيليا Ophilia عنـه وقـد لاقاها ببهـو القصر « لقـد أخـذنى من معصمى وضغطه ضغطا قـويا ، ثم ارتد عنى إلى الخلف طـول ذراع ، ورفـع يده الأخرى مفتوحة فـوق حاجبيه فيما يشبه حافة القبعـة ، وأخـذ يحـدق فى وجهى بامعـان حتى لـكأنه يريد ان يصورنى ، ومكث وقتا طويلا فى هـذا الوضـع ، ثم هز ذراعى قليلا ،ورفع رأسـه وخفضه ثلاث مرات

متتابعات ، هكذا ، وأرسل زفـرة حزينة عميقة خلتهـا قـد هزت كيانه وذهبت بروحه ثم خلى سبيلى وسار عنى ورأسه ملتفت إلى ، واستمر فى السير بغير حاجة إلى عينين تنـيران له الطريق ، وبصره معلق بى ضياؤه حتى اختفى » .

وظنت اوفيليـا به الجنـون ، ولكننا لا نعلم بعـد أكان مجنونا حقـا أم هو هذيان نفس محمومة ! بل من يدرينـا ؟ لعـل موقفه هـذا من أوفيليـا كان إسرافا فى شعـور حقيقى أراد منـه إلى إقناعها بمـا يتصنع من جنـون يتخـذ منـه وسيلة إلى الافلات من رقابة تلك العيون التى بثهـا من حوله عمـه الملك والتى كانت أوفيليـا إحـداها ، إذ أوهمهـا أبـوها والملك ان هملت قـد جن بسببها ، وإن من واجبها أن تقـوم عليـه ، وأن تخبر عمـا تلاحظه من أعراض شاذة يجب أن يسارع الكل إلى علاجها .

وفى الحق أن هملت قـد وجـد فى تصنع الجنون شهوة عجيبة ! لقـد خيـل إليـه أنه يحيا حلما مستمرا ، أو يلعب دورا أخاذا ، وأن روحـه لروح فنـان تعشـق الفن وتفنى فيـه ، وأى متعـة أجمل من أن نتصنع الجنون لنقـول كل حـق ونحطم كل مواضعة ، ونملأ الوجود بكل قول لاذع يكشف عما فى الأشياء والناس من قبح لا شك فيه ؟ وإن فى قول هذا المجنون لحكمة تنطق الأبله بولونيوس بقوله : « عجيب ما فى إجاباته أحيانا من عمـق ! ولكم جرى الجنون بحكم يعجز العقل والعافية عن مثلهـا » . أى نشوة تعـدل نشـوة هملت . وقـد أخـذ يهذى حتى لاح هـذيانه حكمة ؟ ترى أيكفينا إذا أن نسمو فـوق منطق البشر المبتذل وعدلهـم الموتور وحقائقهم الزائفـة لنلوح مجانين ؟ .

إن فى تصنع هملت للجنون لعجبا ، حتى ليحسب الحمقى ضحكاته تـكشير مجنون عن أنيـابه ، وهى بعـد سـخرية رجل ممتاز من حماقاتهم . أو لا ترى إلى أحـد رجال البلاط وقـد أخـذ يحتال عليـه ليعرف سر نفسه فلم يحظ منـه بجواب غير هـذا .

هملت ـــ أتعرف كيف تلعب على المزمار ؟

رجل البـــلاط ـــ لا يا ســـيدى ، فمـــا عهـــدت اللعب على هـــذه الآلة .

ـــ ولم لا واللعب عليهـــا أسهـــل من الـــكذب ؟ ما عليك إلا أن تضع بإحكام أصابعك وإبهامك فوق تلك الخروق ، وأن تنفخ فى الغاب ثم تستمع إلى موسيقى عذبة . انظر ! ها هى المفاتيح ! .

ـــ ولكنى يا ســـيدى لا أستطيع استخدامها بحيث تعطى صوتا منسجما ، وذلك ما لم أوهبـــه .

ـــ إذا أى رأى تظن بى ؟ تريد أن تتخذنى ألعوبة لك وقـــد لاحت عليك رغبـــة فى معرفة مفاتيح نفسى ، تحاول أن تصل بهـــا إلى سرى الدفين ، وأن تحمل أوتار روحى على أن تعطى نغماتهـــا على طول السلم ، ثم تعجزك هـــذه الآلة الصغيرة فلا تملك أن تحملهـــا على أن تجود بمـــا لديهـــا من نغمات عذاب ؟ أتظن إذا أنه من الأسهل أن تلعب بى عن أن تلعب بالمزمار ؟

وأحس هملت فى هـــذا الحوار وأمثـــاله ـــ وما أكثر ما حاور ـــ بضرب من التفوق على الغير ، تفوقا وجـــد فيـــه من الرضى ما طامن من سخطه على نفسه وضيقه بتقـــاعده عن العمل . وكيف لا يطرب للعب بالأفكار والتغلب على الرجال وقـــد نمت ثقافتـــه نموا حمله على التحمس لكل فكرة يرسلهـــا ســـافرة أو يطويهـــا مستترة خلف ما ينشر فوقهـــا عامدا من أغشية الجنون . هملت من رجال الفكر ، وهملت فنـــان يلعب دورا ، وقـــد انغمس فى الأفكار كمـــا انغمس فى الدور الذى يلعب ، فألهـــاه ذلك عن واجب العمل .

أو ما ترى عندما يطول عهـــدنا بالدرس فنستمر فى تقليب الأفكار بعـــد أن يكون عهـــد العمل قـــد حان ، كيف أننـــا نفقـــد القـــدرة على العمل السريع الحاسم ، وننفق أوقاتنـــا فى التفكير فيما نعمل ، أو ما نريد أن نعمل ، نتنـــاوله بالتحليـــل وتحـــديد ما بينـــه وبين أنفســـنا من علاقات أو بينـــه وبين قواعـــد الأخـــلاق ومواضعات

الجماعة ؟ وكذلك كان هملت ، فقد اتخذ من التفكير فيما يعرض له عيدا من أعياد الذكاء ، وإنه ليحلو له أن يقيم من كل جزئية حكما عاما أو مبدأ شاملا ، وإنه ليمر عند عودته من انجلترا باحدى المقابر ، فيتمهل نيبادل الحفارين حوارا عن مصائر البشر ، فيه من العمق ما يفزع ويملأ النفوس مرارة ! أو ما تسمع إليه يتحدث عن الاسكندر الأكبر ، وقد ذكره به ما يرى من جماجم :

« مات الاسكندر ، ودفن الاسكندر ، وارتد الاسكندر ترابا . والتراب من الأرض ، ومن التراب يصنع الملاط ، ولكن لم إذا لم يستخدم ذلك التراب فى سد برميل بيرة بدلا من حلق الاسكندر » .

وطال بهملت هذا التحليل والبحث وراء الممكنات — مقدمات ونتائج — حتى شقيت حياته وتفككت ، وحتى لم يعد يعلم ماذا يأتى وماذا يدع ، بل ما سر وجوده فى هذه الحياة أو حرصه على البقاء بها ، وتلك حالة نفسية يستحيل أن نعمل معها شيئا . ومن منا لا يذكر نجواه المروعة :

« كيف السبيل ؟ أموت أم حياة ؟ ! ذلك موضع النظر وما ندرى بعد أيهما أنبل : أن نتلقى صاغرين سهام القضاء الجارحة ، أم ننهض لأمواج المحن ندافعها فندفعها ؟ وهل الموت إلا نوم يضع حدا لآلام القلب وجراح الجسم التى لا عداد لها ؟ أليس فى ذلك ما يغرى ؟ الموت نوم قد تتخلله الأحلام ، ولكن آه ! ترى أى أحلام تكون وقد طرحنا عناء الحياة ؟ ذلك ما يدعونا إلى التردد ، وإن يكن فيه ما يمد من أجل محنتنا ، إذ من هذا الذى يستطيع أن يحتمل سياط الزمن وازدراءه وظلم الظالمين وصلف الكبرياء ، ووخزات حب عاثر ، وبطء تحقق العدل ، ووقاحة ذوى الأمر ، وإعراض من دوننا قدرة ، وهو يعلم أن باستطاعته أن يضع حدا لكل ذلك بضربة سيف ؟ ! من هذا الذى يقبل أن يحنى ظهره للأثقال وهو يئن ويتصبب عرقا من عبء الحياة لولا خوف ما بعد

الحيـاة ، ومن بعدها بقـاع مجهولة لم يعـد منهـا مسافر قط ؟ خوف يفل منـا الارادة ، فنفضل راضين آلاما نعرفهـا على آلام نجهلهـا » .

وهكذا ما يزال هملت ينعم النظر فى الحيـاة ويستوضح كنههـا ، بل وما بعـد الحيـاة ، حتى تتساقط من نفسه كل القيم ، ويدلف إلى الايمان بالعدل المطلق إن كانت نفسه لا تزال تستطيع إيمانا . ألا تراه يتنكر لذلك الحب الساذج الذى خيل إليـه يوما أنه مؤمن به راض عنـه مطمئن إليـه ؟ ! اسـتمع إليـه يخاطب أوفيليـا التى طالمـا سألهـا أن تدعو اللـه فى صلواتها أن يغفر له ما أخطأ فيـه .

« إلى الدير ! .. فيم حرصك على أن تصيرى أما لآثمين ؟ ها أنا فيمـا أظن رجل شريف ، ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى بآثام يخيل إلى معها أنه ربمـا كان من الخير أن لم تلدنى أمى . وأنا رجل مسرف الكبرياء ، مأخوذ بشهوة الانتقـام ونزعات الطموح ، رجـل قـد أخـذت بتلابيبـه مغريات بالشر أكبر من أن يحتويهـا فـكر أو يتصور خيـال أو يتسع لتحقيقهـا زمن .. أى نفع يرتجى من رجل مثلى يزحف بين الأرض والسماء ؟ ! إننـا جميعا أوغاد جبناء . حـذار حـذار أن تثقى بأحـد منـا ! هلمى ! حثى الخطى ! إلى الدير ! إلى الدير ! » .

أى مرارة أقسى من تلك ؟ ! وماذا يستطيع رجل نفـذت بصيرته إلى أعماق الحياة فلم ير فيهـا إلا ظلاما ؟ ماذا يستطيع رجل حطم عقله حيـاته ؟ ! ماذا يستطيع رجل فقـد الثقـة فى كل شىء ؟ ! .

هنا بلغت مأساة هملت أقصاها ، وقـد آمن أن لا خير فى الحياة ، ولا خير فى وجوده بهـا . وإنا لمتلمسون له العـذر ، فتشاؤمه لـه ما يبرره ، وإنه لتشاؤم نفس كبيرة !

هـذه مأساة هملت ، ولكم كثرت من حوله الأقاويل : فمن قـائل إنهـا مأساة جنون ، ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقـام ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفى الحق إنهم لمخطئون .

ليست مأساة هملت شيئا من كل هـذا ، وإنمـا هى مأساة رجال الفكر ، أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شىء ، فنفـذت بصائرهم إلى حقائق الحيـاة ، وتشعبت بهم أوجه الرأى فتحطمت بين أيديهم حيـاتهم التى اتخـذوها موضعـا للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء النـاس كيف لا يرون من الأشـياء إلا جانبـا واحـدا ، فيسرعون إلى تنفيـذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الكبيرة فى كل أمر ألف جانب وجانب ، فمـا تزال أحيـانا حائرة مترددة حتى تقف فى مكانهـا إلا أن يكون قضاء محتوم .

ألسست
Alceste

ألسست بطل كوميديا لموليير اسمها « عدو البشر » ، ولكن هذا العنوان لا يستنفد كل ما اجتمع لتلك الشخصية من صفات . وإلى اليوم لا يزال الناس يختلفون فى الحكم على هذا الرجل : فمنهم من يؤيده ومنهم من يضحك منه . وفى الحق إنه لأمر شاق أن نعرف أى الطريقين نسلك : أنحيا حياة ألسست موطدين العزم على ألا نقول إلا ما نؤمن به ، بل وأن نقول كل ما نؤمن به ، ولو كان فى ذلك شقاؤنا ، وأصبحنا به موضع سخرية الناس أجمعين ، أم نصانع الناس ونداريهم ونتنزل على مواضعاتهم الاجتماعية مهما يكن حلفها من ملق ونفاق كما فعل « فيلانت » Philinte صديق ألسست فى نفس المسرحية ؟ .

ولو أننا سألنا موليير نفسه جوابا لحيرتنا للزم الصمت قائلا : « دونكم وقائع الرواية ، أنطقوها بما شئتم ، فما أنا إلا مصور بالقلم ، وقد أتيتكم بصورة من الحياة ، لى فيها من الفضل ما لكل مصور فى اختيار الموضوع وتوزيع الظلال والأضواء وتحسس كل لون دال . ولو أننى كنت على بصيرة من حكم أستطيع أن آتيكم به لفعلت ، لكنى مثلكم حائر لا أدرى أى سبيل أسلك ، فيالكم من كسالى ! لقد فتحت بصرى على الحياة فرأيت ألسست يتخبط خلالها ، ورأيت الناس يضحكون منه ، وإن يكن فى خلقه وفى قوله ما يدعو إلى التفكير العميق ، وحاولت أن أتخذ منه موقفا يحمل حكمى عليه أو له فلم أستطع ، ولهذا أتيتكم به لتروا ما رأيت ولكم أن تحكموا بما تريدون . وأما أنا فلا أطلب إليكم إلا أن تعفونى من المصارحة برأيى ، فقد رأيت الصراحة تؤدى بأهلها إلى التهلكة . ولا أزال أذكر ما كان من تكالب رجال الدين ضدى عندما عرضت على الجمهور أمر ذلك القسيس « ترتيف »

الذى هـداه نفـاقه إلى استغلال سـذاجة البشر أشنع استغلال ، فهاجت ثائرتهم ، وكأنى بكل منهم ـ شأن من لايثق بنفسه ـ قـد خشى أن يكون هو ذلك القسيس •• وأنا الآن فى أزمة نفسـية تكاد تهـد كيـانى ، فهاهى زوجتى تحتمى وراء المجاملات الاجتماعيـة لتثير فى نفسى الغيرة تكوينى بنـارها كيـا • ألا دونكم ما كان من أمر ألسست ، فاقضوا فيـه بمـا ترون ، وأما أنا فيكفينى جهـدا ما كان من رؤيتى ما هو واقع تحت بصرنا كل يوم ، وما كل مبصر بصير » •

ولكنـا قـد نعود فنسـأل : ترى كيف يعرض موليير ألسست عـدوا للبشر ، وتلك جريمة شـنيعة ، ثم لا يعـد له من جزاء غير الضحك يثيره فى نفوس النـاظرين ، وإن كنت أحسب أن منهـم من لا تطاوعه شفتاه ؟ يا للعجب ! رجل يكره البشر ثم لا يورده البشر حتفـه ! ما السر فى ذلك ؟ لعـل البشر على حمقهم قـد ألهموا أن من يقسو عليهم قـد يكون أرفق بهم ، وأحدب عليهم ، ممن يطالعهم بابتسامة تطول ملازمتها للشفاه حتى تفقـد كل ما لهـا من معنى • ولعل أحـدا منهم يصيح مع روسو : ليس عـدوا للبشر من يفضح عيوبهم ويهاجم رذائلهم فمـا يفعل ذلك إلا لعنايتـه بأمرهم ، وإلا لجاز أن نعتبر أن الأب العطوف يحب أبنـاء الآخرين أكثر من أبنائه هو لأن نقـائص هؤلاء تثيره بينمـا يسكت عن نقائص الآخرين • وإنمـا يعد عدوا للبشر ذلك الذى يصافى الكل ويروقه كل ما يرى ، فيكون فى موقفـه من النـاس ما يشجع الأشرار على شرورهم ، ويتملق فيهم تلك الرذائل التى تهـد من كيـان المجتمع • تراه يعلن رضاه عن كل ما يرى ويعتبره حسـنا ، لأنه لا يحرص على أن تسير الأمور إلى الأحسن ، كما يصيح باعجابه بالكل لأنه لا يأبه بأحـد • ينكر أن من النـاس من يتضور جوعا ما دام هو جالس إلى مائـدة حافـلة ، ويستنكر أن يدعوه أحـد إلى عون فقير ما دام جيبـه مليئـا • يغلق منزله ليرى من النـافذة غيره يسرق ماله ، أو تقطع

أوصاله ، وما عليه من كل ذلك وقد وهبه الله رقة فى القلب يتحمل بها آلام الآخرين !!! وما له يحرك ساكنا ، أو يصل الشر إلى حيث يثوى ؟ ومثله مثل ذلك الايرلندى الذى أخبر يوما أن النار قد شبت بالبيت الذى يسكن فأجاب : وما يعنينى من هذا وما أنا بمالكه ؟ ! حتى إذا وصلت النار إلى فراشه ، انطلق يعدو ويصيح ، وقد أخذ يدرك أنه من الخير لنا أن نعنى بأمر البيت الذى ناوى إليه ، ولو لم نكن له مالكين » .

ذلك ما قد يقول قائل منهم ، وإن كنت أخشى أن ينهض خب من بينهم فيحاجهم ببعض ما قال روسو نفسه ، ذلك الرجل الذى نفذ إلى خفايا النفس البشرية لطول ما أمعن النظر فى نفسه الخاصة ، إذ قال : « إننا كثيرا ما نتسقط عيوب الغير ، ونبحث عن دوافعهم الخفية التماسا للذة نجدها فى الكشف عن فساد نفوسهم فنرضى عن أنفسنا » ولعله يضيف : « ونحن بعد نحيا فى مجتمع ، فلا بد لنا من النزول على مواضعاته ، وقد جرت سنة البشر على أن يجامل بعضهم بعضا ، وأن يتحمل بعضهم بعضا ، وما كل قول يقال . وإنها لضرورة من ضرورات الحياة أن ننافق أحيانا ، وأن نوارى ونخادع ونداهن ونكذب إن أردنا النجاح فى الحياة . وهبنا نكره هذا الفرد أو ذاك ، أما علينا أن نتصنع ابتسامة نلقاه بها إن لم يكن بد من لقائه ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الابتسامة التى نروض أنفسنا عليها تصبح فينا طبعا يحملنا على احتمال من نكره » . ذلك ما قد يقوله الخب ، وأهول ما أخشاه أن تناصره كثرة الناس ، وقد أورثنا ما نملك من ذكاء جبنا فى النفس ما له من علاج . نعم ، الذكاء ، وهل الذكاء كما يقولون إلا قدرة على ملابسة الواقع والنزول على حكمه والميل معه أينما سار ؟ وهل أخبث منه ملكة وهو يلتمس لكل خطيئة من خطايانا مبررا يسكت به صوت الضمير ، أو نفعا يكم من الأفواه ؟ ومن منا لا يذكر قول برجسون : « إن الدين والأخلاق ما هما

إلا رد فعل تنهض بـه الغرائز لتقوم ما ينزله بنـا الذكاء من تقويض لدعائم الجماعة وهدم لمقوماتنـا الشخصية ؟ » على أنه إن يكن لنـا عزاء فلا أراه فى غير تلك الحقيقـة الجميلة : وهى أنه لا يزال ولن يزال هناك نفر قليـل هم هدى البشر وطلائعهم ، قـد أودع اللـه فى قلوبهم نارا تحرق ذلك الذكاء المدمـر ، نفـر يصمـدون فى الحق يرفعون ألويتـه ، وما يعنيهم أسخر النـاس منهم أم أعجبوا بهم ، وفى عملهم هـذا من النبل ما يجعـله حمقـا أن نتهمهم بأنهم إنمـا يثبتون مع الحق ويجرحون نفـاق المنافقين التماسا للذة يجدونهـا فى التفوق على الغير .

من هـذا النفر فيمـا أعتقـد ألسست . والآن وقـد شـوقتك إلى معرفة ما كان من أمره فلأحدثك عن فعـاله لنشترك فى الحـكم سـويا .

ألسست فى الخامسة والعشرين من عمره عنـدما تبـدأ مأسـاة حيـاته . دلف إلى الوجود بضمير نقى صلب ، وقـد وطد النفس على مطاردة الكذب أنى كان ، وعلى الجهـر بالحق فى كل مجـال . ولم يغب عنـه أن الكذب ملء الآفاق وأن مهاجمتـه تتطلب جهـدا لا ينقضى : ولقـد حدث عمـا فى قول كل الحق من خطورة على قائله وعلى الغير ، ولكن قوة ضميره تأبى أن تلين . ومن غرائب المصادفات ، بل قل ومن أمارات غموض النفس الانسانية ، أن أولع هـذا الساخط المتزمت « بسيلمين » : امرأة لعوب تتصيد إعجاب الرجال وكلمـات إطرائهم ، على نحو ما يجرى فى الأوساط « الراقية » ، وقـد اتخذت لذلك عدته ، ففى حركات وجههـا وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما فى ألوان وجههـا وأصباغ شعرها . فلئن كان ألسست ضميرا ينطق بمكنونه صادقا صريحـا ، فسليمين أكذوبة اجتماعيـة تتحرك !! ومن عجب أن يحبهـا لعيوبهـا ، ولكنه ساخط على نفسـه ، إذ حمله هـذا الحب على أن يغضى عن مبادئه ، ولكم كان أجـدر به أن يتخير لحبـه امرأة تتمشى وآراءه . أما وقـد

ساقته نفسه إلى غير ما ينبغى له فليحاول إصلاح تلك المرأة وليقل لها فى صراحة وحزم ما يؤلمه من أمرها •

على هذا وطد ألسست عزمه • ها هو يسير إلى بيت « سليمين » فيعثر فى الطريق بصديقه « فيلينت » — شاب من سنه أتى الحياة بنفس راضية تقبل الناس كما هم ، يبتسم لكل من يلقى ، ويجامل كل من يصادف بمهارة تمكنه من الحياة وسط الأكاذيب الاجتماعية فى يسر لا يعدله يسر •

ووصل الصديقان إلى بيت سليمين فلم يجداها ، فهاجت هائجة ألسست ، وأما فيلينت فتلقى الخبر بابتسامة راضية ، ودخل الرجلان إلى غرفة الجلوس حيث انتحى ألسست ركنا ، وقد عبس وجهه وأمسك برأسه بين يديه كأنه يمسكه عن أن يطير شظايا ، وكان فيلينت يعلم منه ذلك ، ولكنه رآه هذه المرة أشد عبوسا مما عهد • ألم يأت ألسست هذا اليوم خصيصا لينفض ما فى نفسه وقد نفد صبره وأزمع على أن يصل مع سليمين إلى أمر صريح يرضاه ؟ أتى بعد أن أعد ما سيقول ، وإنه لفى لهفة لأن يقول ما أعد ، ولكن لمن يقوله وسيليمين خارج البيت وهو لا يدرى أين تكون ؟ •

وهال فيلينت ما يرى من ضيق صاحبه فسار إليه مربتا على كتفه متسائلا :

فيلينت : ما بك ؟ ما الأمر ؟ •

ألسست (متمتما دون أن يحرك ساكنا) أرجوك ! •• اتركنى لشأنى !

ولكن فيلينت يلح عليه فى السؤال فيصيح ألسست مغضبا • دعنى وشأنى — قلت لك — اختف عن بصرى !

وأراد فيلينت أن يستوضحه الأمر فذكره بصداقتهما ، ولكنه لم يكد ينطق بتلك الكلمة حتى قفز ألسست من مكانه ووقف أمام صديقه وهو يصيح مغضبا : أنا صديقك ؟ ! أمح هذا من دفاترك ! ربما قد كنت صديقا لك يوما ما ، أما اليوم وقد رأيت منك ما رأيت

فلا أريـد أن أكونه ، وما أريـد أن يكون لى أى مكان بتلك القلوب الفـاسدة •

ودهش فيلينت لهـذا الغضب الطارىء ، وألح على صـديقه أن يخبره بما كان منـه • فقـال ألسست • إليـك عنى ! أو ما تموت خجلا مما فعلت ؟ إن فى فعلتك ما لا يمـكن أن يلتمس له عـذر • إن فيها لمـا يثير حفيظة كل رجل شريف : تلقى رجلا تغمـره بلطفك المسرف ، وأيمان ودك ، وسخاء نفسك ، وتورطه بثـورة قبلاتك ، ثم لا يكاد يولى فأسألك من الرجل ؟ فلا تستطيـع أن تخبرنى حتى باسمه ! ! وكأنما حرارة قلبك قـد بردت بمجرد افتراقكما ! يا لهـا من نذالة ! إلى هـذا تنزل بنفسك ؟ ! إنى أفضـل أن أشنق نفسى على أن آتى فعلة كفعلتك هـذه •

ويضحك من فى المسرح • وإلى إثارة هـذا الضحك قصد موليير ، وإلا لا تهمه لويس الرابع عشر ، وكل من حوله من أشراف بمهاجمة آداب اللياقة « الـكاذبة » التى كانت فرنسا تفتخـر بهـا فى ذلك الزمن •

ويتلطف فيلينت مـع صـديقه لأنه يعلم ما فى نفسـه من طيبة لا شك فيهـا ، فتلين عبـارات ألسست وتتزن كلماته : « أريد أن يكون الانسان صـادقا مخلصا لنفسه ، فلا يقـول إلا ما يؤمن به قلبـه » •

ومن يستطيـع أن ينكر نبل هـذا القول وصـدقه ؟ أو ما ترى إلى المخلصين من النـاس كيف يقسطون فى اللفظ ؟ ولـكن فيلينت يحاول فى عبارات هينـة لينة أن يحمل ألسست على الاقـرار بأنه يجب أن نـرد المجاملات بمجاملات مثلهـا ، إذ أننـا بعملنا هـذا لا نسىء إلى أحـد • ولكن هيهات أن يبلغ من ألسست ما يريد : « لا لا ! بل يجب أن نقسو ما استطعنا على هـذا التظاهر الباطل بصداقة لا نؤمن بهـا • يجب أن نكون رجالا فى كل مقـام ، نجهر فى ألفاظنا بمكنـون نفوسنا — يجب أن تنطق نفوسنا لا ألسنتنا — يجب ألا نخفى حقيقة مشاعرنا تحت بهرج المجاملات » •

إلى هنا يستطيع نفر غير قليل من الناس أن يسنم بما يطلبه ألسست ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، حد ألا نقول غير ما نعتقد ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويطلب أن نقول كل ما نعتقد ، وفى هذا لا ريب ما يقوض حياة اجتماعية ، دعائمها ـ لو تأملنا ـ أكاذيب صارخة •

ويأتى إلى البيت زائرون آخرون فيسارع ألسست إلى إخبار أحدهم بأنه متطفل دخيل وإلى الأخرى بأنه قبيح بامرأة عجوز أن تتزين تمويها لجمال فقدته منذ زمن بعيد • ويستنكر الناظرون منه ما يفعل ، ويسخرون من قحته ، ولكنه لا يأبه لهم ، وفى قرارة نفسه أن الناس أغلبهم منافقون جديرون بالبغض ، وما دام هذا هو شعوره نحوهم فمن أين يأتيه الحرص على رضاهم أو إعجابهم ؟

وفيما نحن نرى ألسست يسرف فى تطبيق مبادئه ليؤكدها وليضحك فينجو موليير من الاضطهاد ، يأتى الشاعر « أورنت » «Oronte» » ويدور حوار بينه وبين ألسست ينتهى بأن يخرج أورونت من جيبه مقطوعة شعرية من ذلك الشعر المتكلف الرخو البارد الذى ينظمه أصحابه ليسمعوه لأولئك النساء المتحذلقات الخاويات النفوس ، ويختتم المقطوعة بالبيتين : « أيتها الحسناء ، إننا لفى يأس وإن كنا لن نزال نأمل » وتثور ثائرة ألسست فيوصى شاعرنا أن يحمل مقطوعته إلى « المرحاض » • وليظهره على مبلغ تكلفه الباطل يسمعه مقطوعة ساذجة جميلة من الشعر القديم •

وتضج قاعة المسرح بالضحك الذى لا تهدأ له ثائرة حتى تدخل سليمين عائدة من المدينة ، وليتصور القارىء بأية حالة نفسية مريرة يلقاها ألسست : « لا يا سيدتى ! أتريدين أن أصارحك القول ؟ إن فى سلوكك ما لا يمكن أن أرضاه ••• الخ » •

والحاضرون لا شك متسائلون : بأى حق يغضب ألسست ربة الدار وهو ضيف بمنزلها وما له أن يقف منها موقف المؤنب •

ولكن ، أو ما يجب ألسست سليمين ؟ ومتى كان الحب يعرف حقوقا لأحد • ثم ماذا يريد ألسست ؟ أليس يقصد إلى الخروج على آداب المجاملة لأنه يؤمن بكذبها ؟ وهل يستطيع ألا يخرج على تلك اللياقات الزائفة ؟ لكم كنا نود لو كانت ثورة ألسست موجهة ضد ما فى صميم الأخلاق من نفاق ، ولكنا نطلب بذلك إلى موليير أن يغير روايته من كوميديا إلى تراجيديا ، وهو بعد يتخذ من الاضحاك تقية ، وهو يحيا فى مجتمع سطت عليه آداب المجاملة ، حتى اختلطت بقواعد الأخلاق الانسانية ، وأصبح من العسير أن يقيم بين الميدانين حدا بينا • ليثر إذا ألسست ضد مواضعات اللياقة وليضحك منه الجمهور ، ولكن من منا لا يحس بما قصد إليه موليير ؟ ومن منا لا يفطن إلى ما تركه لنا هذا الروائى الذكى الفؤاد من وجوب التماس مقاصده البعيدة خلف هذا الاسراف المضحك ؟ !

وما تكاد سليمين تعود إلى منزلها حتى يواتيها جمع حافل من المراكيز المعجبين بها المتعلقين بجمالها ، فتزداد ثورة ألسست وتنتظم الجماعة حلقة تأخذ فى اغتياب الناس ، وألسست يرقبهم من بعد ونفسه تغلى غيظا • ولكن فيم يريدهم أن يتحدثوا ؟ أفى السياسة وفى ذلك ما فيه من خطر ؟ أم فى الثناء على الناس وليس أمل من الثناء ؟ أم فى الأفكار العامة وهم لا يملكون منها شيئا ؟ ليس لهم إذا إلا اغتياب « معارفهم » وهذا هو النوع الوحيد من الحديث الذى يمكن أن يأخذ فيه قوم على شاكلة هؤلاء فيجدون فيه شيئا من اللذة • وتضيق نفس ألسست بما يسمع ، فيحاول أن يلقى تبعته على المراكيز ، ولكنه لا يلبث أن يواجه سليمين نفسها برأيه : « لا يا سيدتى ، إن فى مسراتك ما لا يمكن أن أقبله « وإنه لمن الحمق أن نحب فيك نقائص نمقتها » • وهكذا يلزم ألسست الحضور الصمت • وينفذ صبر سليمين فترغب فى الخروج إلى الشرفة ، ويحس المراكيز منها هذا الضيق فيهمون بالانصراف ، ولكنها تمسكهم تأدبا •

ويغضب ألسست من ذلك فيعلن أنه لن يخرج إلا إذا خرجوا جميعا .

وتضيق بالحاضرين أنفاسهم ، وسليمين صابرة كاظمة غيظها ، ويتحرج الموقف . ويتساءل الجميع ، كيف السبيل إلى الخلاص ؟ ويأتى ألسست رسول من قبل رجال الادارة يطلبه لأمر ما ، ويحسب الحاضرون أنه سيخرج لما طلب له ، ولكنه يكذب ما يتوقع الجميع ، إذ يدعو الرسول إلى الدخول بحجرة الجلوس . وبعد حوار بينه وبين الرسول يخرج ألسست ، وبهذا تنتهى الرواية ، ويخلو الجو لسليمين والمعجبين بها يتبادلون عبارات المجاملة المعسولة.

يخرج الحاضرون وهم يتساءلون عما قصد إليه موليير — إن فى تصرفات ألسست ما يحرج وما يضحك ، ولكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك . وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا وهل الضحك إلا جزاء نقوم به ما يخرج فى حياتنا عما يجب أن تطرد عليه فى عرف المجتمع ؟

غادر ألسست تلك الجماعة التى لم يستطع أن يحيا بينها ، وما أشبهه فى هذا بذلك المبصر الذى انتهى به المسير يوما إلى مملكة العميان ، فأخذ يحاول عبثا أن يقنعهم أن هناك ضوءا ، وأن فى الضوء جمالا ، فأبوا واستنكروا وضعفت وحدته أمام جمعهم ، وقد تعاقب العمى فيهم جيلا بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يؤمنون بغيره فطلبوا من المبصر أن يفقأ عينيه ليصير مثلهم فيزوجوه من تلك الفتاة التى أحبها ، ولكن هل لبصير أن يغادر الضوء لأن جميع من حوله عميان ؟ أو ليس من الخير له أن يغادر جماعتهم من أن يغادر الضوء ؟ .

غادر ألسست المجتمع البشرى لما فيه من كذب ونفاق وجبن ، وما ندرى أين يستطيع أن يعيش . ولكن ، هبه لم يجد مأوى غير الصحراء ! أليست صحراء يملؤها المرء بما فى قلبه من حب صادق للشجاعة والاخلاص وقول الحق ، خير من قصور لا تهب فيها إلا رياح النفاق وبؤس النفوس ؟ !

بيتريس
Beatrice

سنة ١٢٦٥ — سنة ١١٩٠

(١)

فى عهـد الشباب Vita Nova

« عنـدما نسـمو من مظاهر الجمال الدنيـا إلى الجمال الـكامل نلمح ضياءه ، نحس أننا قـد دنونا من الحب ، وفى الحق ما الحب إلا شـوط نبـدؤه مما فـوق هـذه الأرض من جمـال ، والبصر منعقد بالجمال المطلق ما يزال يرتفـع إليـه درجـة فدرجـة على طول السلم : من جمال الأجسـام إلى جمـال المشاعر ، ومن جمال المشاعر إلى جمال الأفكار ، حتى نصـل إلى المعـرفة المطلقة التى هى إدراك الجمال المطلق • إدراك ذلك المثـال الخالد الذى تمنـح مشاهدته الحياة قيمتها » •

بذا يتحدث سقراط فى مائدة أفلاطون عن مراحل الحب الذى هو سعى وراء الكمال • وإليـه وصل « دانتى » Dante يقـوده جمال « بيتريس » ولكن ترى أحقيقة ما يقـول سقراط ، أم هو أفلاطون ذلك الحالم الأبدى يرنح بؤس الحياة فى أنسجة جميلة من الخيال ؟ ثم ما بال دانت ، وقـد رأى فى النفس البشرية « طفلة تجمع فيهـا النزوات بين البكاء والابتسام » يثبت على حب تلك الفتاة الرائعة ، فاذا هى تستحيل رمزا للايمان ، وإذا هى تلوح له فى الجنة ، وقـد انتشر من حولها ما تشع من ضياء هى منـه كالطائر من العش ؟

يا عجبا ! فتاة صغيرة ترسل ابتسامتها إلى هـذا القلب الكبير ، فترتد الابتسامة شعرا كم هز من نفـوس ، وقـد سكن دانتى إلى قلب بيتريس يغمره ضياؤه ، فاذا به قبس من شعاعها ، وإن يـكن

قـد دفع ثمن هـذا السكون الذى لم يركن إليـه إلا منهكا ، وقـد ألقته أمواج الحياة إلى شـاطئ النفى • ولـكم استشعر من ألم « فى أن يرقى سلما إلى الغـير ، ولكم وجـد من مرارة فيما قـدم إليـه من خبز » ، ولكم التمس عن محنته عزاء فى ابتسامة بيتريس تطالعه فى غفوة الأحلام فيصوغ ابتسامتها جمالا فيـه أعز نشوة ، نشوة الخلق •

ولـدت بيتريس مـع دانـتى سـنة ١٢٦٥ بمدينـة فلورانس معهـد الفن الجميل ، إذ أكبر الظن أن أحد أبنـاء الشـاعر قـد كشف القناع عن حقيقتهـا التاريخية ، عنـد ما أخبرنا أنهـا بنت فولكو بورتنارى Folco Portinari أحد أغنياء المدينـة إذ ذاك ، ورآها الشاعر لأول مرة فى حيـاته وهى فى التاسعة من عمرها ، ومنذ ذلك اليوم لم تفارق نفسه ، وعنها تحدث أجمـل الحديث فى مجموعة من الشـعر والنثر Vita Nova « عهـد الشباب » حيث التمس لمـا قال من شـعر مناسبات يقـدم لها نثرا ، فاذا نحن أمام قصة اختلط فيهـا الأدب بالحيـاة كما اختلطا بنفس دانتى ، التى اهتزت لـكل شـعور ، واتسعت لكل معـرفة • قال : « رأيتها فى ثوب أحمر جليلة متواضعة ، وقـد علق حزامها الثوب فيما ينم عن طفولة خالصـة ، فاهتزت فى قباب قلبى الخفية روح الحياة » وسرت تلك الهزة العنيفة بأوعية دمى ما دق منها وما جل ، وصاحت بى روح الحياة : ها هـو إله أقوى منك سلطانا ، ها هو قادم ، وإنه لمخضعك • ومنذ ذلك الحين مازج الحب نفسى التى أضحت أسيرة له ، وزاد من سلطانه ما منحه خيالى من قـوة ، حتى لم أستطع إلا أن أذعن له فى كل أمر ، ولكم عدوت فى الطرقات وأنا بعـد غض الأهاب خلف تلك الحسناء ، ولكم رأيتها قادمة وفيها من الجلال والنبـل ما يحق معـه أن نقول فيهـا ما قال هوميروس • فى الحق أنها لا تلوح بنت بشر ، بل بنت إله » •

ولقد وصفها بوكاشيو بقوله : « كانت جميلة حتى لتسبى النفوس — جميلة بطفولتهـا وبما امتزج فيهـا من جلال ودعـة ، تحس فى

حديثها وفى طبائعها من الوقار والتواضـــع مالا يتفق عادة للأطفال ، وفى ملامح وجهها رقـــة وانسجام ، لقد اجتمع لها من الجمال والسحر ما حمل الكثيرين على الاعتقاد بأنها ملك لا بشر » .

وبالرغـــم ممـــا كان بين أسرة بيتريس وأسرة دانتى اليجـــييرى Alighieri من صداقة قـــديمة يزعم الشاعر أنه لم ير فتاته إلا بعـــد تسع سنوات أخرى ، حتى لكأن هـــذا الرقم ميزان حياتها . ولقد كان لكل حياة فى ذلك العهـــد ميزان ، والرقم تسع أسه ثلاث رمز الثالوث المقدس ، ممـــا ينبىء بما ستصير إليه تلك الفتاة . رآها هـــذه المرة فى ثوب أبيض ، وهى مارة بإحـــدى الطرق ، وإلى مكانه اتجهت ببصرها وعلى شفتيها ابتســـامة ، وتلقى الشاعر ابتســـامتها بقلب خاشع ، وكأن الابتسامة فيض من رضا الله .

وعاد دانتى إلى منزله حيث خلا بنفسه كما يخلو عادة مثله ممن حرمتهم الأقـــدار عطف أمهاتهم منـــذ الصغر . وهل استطاع أحد يوماً أن يجـــد فى زوجة الأب عوضا عن أمه وطاردت دانتى ابتسامة الفتـــاة يراها فى أحلام يقظته ، كما تعشى بصره فى ظلام الليل ، حتى نحل جســـمه ، وشحب لونه وأخـــذ الناس يسألونه ما به . وللحب أمارات لا تكذب ، وسألوه : لمن يحمل هـــذا الحب الذى أضنـــاه ؟ فلم يحر جواباً ، إلا أن تكون نظرة حائرة يصعدها فيهم ، ثم يولى هاربا ، وعلى شفتيه ابتسامة تترقرق .

وجرت الألسنة بما كان من أمر حبـــه ، وود الشاعر لو خدع من حوله عن حقيقة ما يشعر ، فتراه طوراً « كالمعـــدم يتظاهر بالمرح ليوارى عن الناس ما به من ألم » وطوراً يصطنع ما اصطنع الشعراء من قبله فى مشارق الأرض ومغاربها من تقاليد الغزل . فيتغنى بغـــير من يحب دفعاً للريبة ، ولنذكر قول نعم لعمر بن أبى ربيعة :

إذا جئت فامنح طرف عينـــك غيرنا

لكى يحسبوا أن الهـــوى حيث تنظر

وكان على دانتى أن يسلك هـذا السبيل • والتاريخ يحـدثنا أن بيتريس فى سـنة ١٢٨٥ كانت متزوجة بالفعل من سيمون دى باردى Simon die Bardi ، وكان دانتى على الراجح قد خطب زوجته جمادوناتى Gema Donati ونحن عندئذ فى القرون الوسطى ، وبالرغم من ذلك لم يستطع دانتى أن يصرف قلبه عن تلك الفتاة •

ولكن ترى لم لم يتزوج دانتى من بيتريس ؟ ذلك ما لايعلمه إلاالله ولكنا نعلم أنه لم يقف عنـد حبه لبيتريس • ولقـد كان هذا الحب منذ نشأته به تقديس ، وكانت له مغامرات غلى بها دمه ، فأطلقت لسـانه بغير صيحة ، وبخاصة فى غرامه المبرح بامرأة يسميها Pietra أى « الصخرة » • ومن عجب أن نستمع إليه يوما يشكو من أن تلك المرأة قـد استقرت برأسه « كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها » ، واكم ألم لهـذا الحب العنيف : ولعله لم يصب التـوفيق فى حبـه لبيتريس ، فالتمس عنه بديلا ، وإلى هـذا تشير بعض أشعاره • ألم يقل يوما : « ما تزال صورة تلك الفتاة متربعـة بقمـة أفكارى حيث قادها الحب ، وما يحزنها ما أنا فيه من ألم ، وإنها لمغتبطة ضاحكة • ترفع إلى بصرها يدعو روحى إلى الرحيل قائلا : إليك عنى ! بذا ينطق موضع رغباتى فيحز الألم فى نفسى ، وإن تكن وطأته قد أخذت تخف ، إذ أن إحساسى قـد أنهك وأوشك أن يصل إلى نهـاية قـدرته على الألم • عندما لاحت لى تلك الفتـاة كنت غض الطفولة ـــ بذا تحدثنى ذاكرتى التى أخذت تمحى صـفحاتها : ومنـذ ذلك اليـوم لا أزال أقاسى آلام الشهداء ، حتى لكأن صوتها الذى انطلق إلى فـؤادى قـد أمسك قواى عن النمو » •

وعلى من يصدق هـذا القول إن لم يكن على بيتريس ؟ ترى إذاً أشقى دانتى بحبه لبيتريس حتى إذا ماتت سنة ١٢٩٠ طهر الموت حبه فاستحالت الفتاة ذلك الملاك الذى هدى الشاعر سبيل الكمال •

ذلك مالا نستطيع أن نجزم به ، وإن كان فى شـعره ما يرجحه ، ولكنا نعـلم عن يقين أنه قـد تخبط فى شهوات الحب ، كما تخبط فى

شـهوات السياسة حتى شقيت حيـاته ، وإلى هـذا يشير فى أول « جحيمه » عندما يقول : « كنت فى منتصف الحياة وإذا بى وسـط غابة مظلمة ، وقـد ضللت الطـريق • آه ما أشـقه على النفس أن تقول ماذا كانت تلك الغـابة التى تجدد ذكراها آلامى ، وما أستطيع أن أقول كيف دلفت إليها ، وقـد كنت عندئذ فى نوم عميق فحدث عن سواء السبيل » •

ولقد أنبته بيتريس لضلاله أعنف تأنيب عندما لاحت له على حافة الأعراف قبـل أن تقوده إلى الجنة •

وفى الحق إن نفس دانتى كانت نفسا عنيفة صاخبـة وفى الحق إنه قـد انغمس فى الحياة ، بل لقـد بلغ من عنفه يوما أن صاح فى شعره وهو يشكو قسـوة امرأة : « آه ! ليتنى أسـتطيع أن أمسـك بتلك الضفائر الشقر التى صاغها الحب حلقات ذهبية ألقى بهـا حتفى ، إذا لعرفت كيف أنتقم لنفسى ، ولأمسكت بتلك السياط التى طالمـا ألهبتنى ، ولبقيت بين يدى من انبثاق الفجـر إلى أن تـدق نواقيس المساء ، ولن أستشعر عندئذ رحمة ، بل سأكون كدب يلعب ، وما دام الحب لا يمسك عن أن يسوطنى بها فمالى لا أنتقـم منها مرة وألف مرة ؟ وأما أعينها التى ترسل إلى قلبى هـذه النـار التى تحرقه ، فسوف أحدق فيها عنـدئذ عن قرب وأطيل التحديق جزاء لهـا على الفرار منى ، ولن أزال بها حتى يجتمع فيهـا الحب والاستسلام » •

ولكنه رغم كل مغامراته التى مزقت نفسه لم ينس يوما «بيتريس» بل ظل وفيا لحبها ، وإن يكن أكبر الظن أن سنة ١٢٨٥ — سنة زواج بيتريس — كانت بدء لمغامراته • إذ أن ذلك ممـا يتمشى وطبـائع البشر ، ألست ترى أن ألمـا قويا أو حزنا ملازما خليقان بأن يحطما فى النفس كل قيادة ؟ ونحن نعـلم أن دانتى لم يتزوج إلا بعد وفاة بيتريس •

نعم ظل دانتى معلقا بابتسامة فتـاته يستلهمها الشـعر وكأنها ما تزال عـذراء ، ولم لا ؟ ألم يتغزل قيس بن الرقيات بأم البنين ،

رغم ما كان لتلك السيدة الجليلة من وقار ؟ ثم ألم يتغــزل المــاجن عمر بن أبى ربيعــة بسكينة بنت الحسين وعائشــة بنت طلحة ، بل وبأخت الخليفة عبــد الملك بن مروان وببنته ؟ وما دام الغزل عفيفاً فما الذى يمنع دانتى من أن يتسقط الشــعر من شفاه بيتريس ؟ وإن لم يكن الأمر على تلك البساطة ، فلقد يضطر شاعرنا — عملا بما يشبه وصية نعم إلى عمر — إلى أن يتغزل بغيرها تقية ، وتخشى الفتاة منه المروق عن حبهــا فتغضب • وتأبى أن تعــود إلى تحيتــه إن لقيته بسبيل ، « أو يقول فى شعر جميل ، إن تغزله بغيرها لم يكن إلا صرفاً لألسنة السوء ورداً لأعين الرقبــاء » •

وتلك ولا ريب تقاليــد أدبية كم أفسدت على الشعر غايته ، وما كان لنفس قــوية كنفس دانتى أن تقف عنــدها • وإنه ليذهب يوماً إلى حفــل يلقى به بيتريس على غــير توقع • فيلقى قنــاع الأدب المصطنع •

« لم أكد أدخل حتى أحسست بهزة عنيفة بجانب صدرى الأيسر ، وسرت الهزة إلى كل جسمى ، فاستندت إلى الجــدار ، وخشيت أن يفطن أحد إلى ما عرانى فرفعت بصرى إلى السيدات المجتمعات ، وإذا بالبصر يستقر ببيتريس ، فتخاذلت قــواى حتى لكأنى فقدت الحيــاة إلا من عينى » •

ولم يغب عن أحد ما أصابه ، وتغامز به الحضــور ، فولى هارباً إلى منزله يغلق بابه ، ثم يســلم عينيه للدموع ، وانجلت أزمة نفسه عن سلسلة من القصائد الصغيرة (Sonnets) كم تغنى بمقطوعاتها شاعر الليــلاه :

« ما أكاد أراك أيتها اللؤلؤة الجميلة حتى تخمد فى نفسى كل قدرة على الكفاح ، وما دنوت منك إلا صاح بى الحب : إلى الفــرار ، إن كنت تخشى الموت ، وينم وجهى عن لون نفسى ، وقد تخاذلت قواى ، فالتمست لها سنداً ••• على أن سخريتك قــد قتلت فى نفسى ذلك الضعف الذى ينشر فوق عينى تلك الســحابة الحزينة حزن الموت » •

ويلقى دانتى سيدات المدينة وقد عرفن سر نفسه ، فيقلن له وعلى شفاههن ابتسـامة ساخرة قـولا أشبه ما يكون بما قالته نسـاء العرب يوماً لجميل :

ويقلن إنك قـد رضيت ببـاطل
منها فهـل لك فى اجتناب الباطل

فيجيب دانتى إنه كان يريد أن يقف حيـاته على سعادتها فأبت ، وإذا فلينصرف إلى الاشادة بها ما ترددت أنفاسه :

« والآن وقـد اتجهت رغبة السماء إلى فتاتى ، بودى أن أحدثكن عن بعض مالها من فضل • على كل سيدة تريد أن يكسوها الجلال أن تذهب معها • وهى ما تكاد تخطو حتى يجمد الحب القلوب الفاسدة فتموت فيها كل رغبة سيئة ، وما يرتفع إليها بصر حتى يفنى أو يرتد نبيـلا ، وأما أولئك الذين هم من السمو بحيث يستطيعون أن يرفعوا إليها بصراً فأولئك هم الذين ينفـذون إلى ما فى نفسـها من جمال ، وما إن تبتسـم لهم حتى ينتشر الرضا فى نفوسهم ، ويعمر الخـير قلوبهم ، فينسوا ألم ما أصابهم من جراح ، وإن لتلك الفتـاة لنعمة خصها بها الله ، نعمة تمنع من يتجه إليه حديثها عن أن يضل سـواء السـبيل » •

وهكذا استحالت بيتريس فى نفس دانتى رمزاً للكمال وسـبيلا إليه ، حتى لكأنها فكرة أكثر منهـا إنساناً حيـاً • ومن لا يحس أننا نرقى الآن سـلم أفلاطون ، ولم يعـد فى الفتاة جسم يرغب ، بل جمال روح يستجلى ، وما تعلق بها بصر إلا ارتفعت به إلى عالم المثل حيث يختلط الجمال والخير والمعرفة ، وأى غرابة فى ذلك وقـد بصر برنتو لاتينى Brennetto Latini — الذى تحدث عنـه دانتى فى الكوميديا بقلب كله خشوع — تلميذه بفلسفة أفلاطون • ثم ألسنا الآن بإزاء تقاليد الفروسية كما عرفتها القرون الوسطى ، عندما كان الفارس الحق هـو من يتخذ له سيدة يحبها فى الخفاء حبـاً أشـبه ما يكون بالعبادة ، حبـاً يستلهمه البطولة كمـا يتلقى عنـه وحى

الشعر ؟ وسيان بعد ذلك أرغبت السيدة فى حبه أم لم ترغب ، بل سيان أكانت حقيقة أم من خلق الخيال • وأى سيدة تستطيع نظراتها أن تسقط شهوات النفوس لتحل محلها نور الإيمان ، إن لم تكن العذراء التى اختلطت عبادتها فى نفس دانتى يحب بيتريس • وهكذا اجتمعت فى فتاتنا كل تيارات الروح التى شاعت فى القرون الوسطى ، فتركزت فى نفس دانتى التى تمثل ذلك العهد فى أعمق مظاهره حتى لكأنها نقطة الانقلاب بين عالمين •

ومع ذلك ليمت أبو بيتريس ، وها هو ذا دانتى يحزن لحزنها ، ويود لو اتجه إليها بقلبه يشاطرها آلامها ، ولكن كيف السبيل ، ولم تدع ألسنة الناس إليها سبيلا ؟ ليس له إلا أن يستفسر عائداتها عما صارت إليه ، وقد أضنتها الأحزان • وحزن دانتى لحزنها حتى مرض ، وفيما هو يهذى رأى فيما يشبه أحلام اليقظة أن بيتريس قد لحقت بأبيها •

« ولم تكد تلك السيدة تنتقل عن عالمنا حتى لاحت لى المدينة وكأنها قد تيتمت بموتها ، وكأنى يومئذ أصيح بأمراء الأرض كما صاح جيريمى فى الكتاب المقدس : كيف للمدينة أن تحيا بدونها » •

وماتت بالفعل بيتريس ، وهى فى ريعان الشباب سنة ١٢٩٠ فى الخامسة والعشرين من عمرها ، « ماتت لأن الجنة كانت بحاجة إليها لتضمها إلى ما تحوى من حور » ماتت ولكنها بقيت حية بقلب دانتى ، بل لربما ازدادت بموتها حياة ، وقد حطم الموت ما كان يغل من حماسته لها أو يقص من أجنحة خياله ، وأخذ دانتى يتعهد ذكراها ، ولكم جنبته تلك الذكرى من عثرات • ألم يمر يوما بأحد المنازل ساهم الفكر حزين النفس ، فإذا بامرأة جميلة تشبه بيتريس تنظر إليه من نافذتها ، وفى نظرتها حنو ضعفت له نفسه حتى أوشك أن يتردى فى حبها لولا أن لاح له شبح بيتريس •

« كان الوقت أصيلا ••• ولاحت لى بيتريس الخالدة فى ثوبها الأحمر الذى رأيتها فيه قديما طفلة عندما وقع عليها بصرى لأول

مرة ، وما كدت أتجه إليهــا بفكرى حتى عادت إلى ذكرياتها ، فهب النـــدم بنفسى أليما ، وولت عنى تلك الرغبة الأثيمة التى أوشكت أن تضل بى عن سبيل الهدى ، ومنذ ذلك الحين لم تعــرف أفكارى إلا بيتريس لهــا مستقراً » •

على أن الأقدار لم تشأ أن تهدأ لدانتى نفس ، وكأنه قد حاول أن يملأ ما تركته بيتريس فى حياته من فراغ ، فأخذ يتردد على صالونات فلورنسا يغامر فيهــا ما استطاع حتى عاف هــذا العبث البــاطل ، فانصرف إلى السياسة ابتداء من سنة ١٢٩٥ ، وكانت إيطاليا فى ذلك الحين منقسمة إلى حزبين كبيرين حزب الجبلان Gibelins وهم جمــاعة الأشراف الحريصين على المحافظة على النظــام الاقطاعى ، يعتقدون أن أسسه لن تثبت ما لم يؤيدها الإمبراطور بسلطانه ، ثم حزب الجلف Guelfes وهم رجال الطبقة الوسطى الذين يغارون على حرية المدن وحرية الأفراد ، ويرون فى بسط نفوذ البابا ما يحقق آمالهم السياسية • وكان دانتى من أتبــاع هــذا الحزب الأخير ، ولكن الأمر لم يكد يستتب للحلف بعــد هزيمة أعدائهم حتى انقسم الحزب المنتصر شطرين : بيض ، وســود ، وأخذت شهوات النفوس تلعب دورها ودارت معها العقائد ، فانطوى السود تحت لواء البابا ، واتهموا البيض أعداءهم بممالأة الامبراطور ، وانتصر الســود فى المعركة ، فشتتوا شمل البيض ، ومن بينهم دانتى ، إذ حكموا عليــه بالنفى سنتين فى ٢٧ ينــاير سنة ١٣٠٢ ، وبغــرامة قدرها خمســة آلاف جنيــه ، بل عادوا فى ١٠ مارس من نفس الســنة فاستبدلوا بحكمهم هــذا حكما أقسى ، يقضى بنفى دانتى نفياً أبدياً ، بل بإعدامه حرقا إن وقع بين أيديهم وكان دانتى إذ ذاك لحسن الحظ بعيداً عن فلورنسا ، فأفلت من الموت ، ولكنه لم يفلت من النفى الذى شــقى به شــقاء يكاد يعــدل الموت •

وأخذ دانتى يجوب بقــاع إيطاليا يحسن وفادته قــوم ويتنكر له آخرون ، وقــد أمل يوما أن يكون مع من نفى معــه حزباً يتمكنون

بقوته من العودة إلى مدينتهم العزيزة : ولكنه نظر فإذا بشـــهوات النفوس تفسد ما يدبرون فانفصل عنهم ، وقـــد انعقد عزمه على أن يكون على حد قوله « حزبا من نفسه » ، وتقاذفته أحداث الحيـــاة ، وكلما ازدادت به عبثا ازداد استجماما ، حتى تركزت قـــواه متبلورة حول شـــبح بيتريس يتخذ منـــه أنيسا لوحـــدته . ولكنه أحس أنه أضعف من أن يستطيع التغنى بمـــا وصلت إليه من مراتب الكمال ، فأمسك لسانه وأخذ فى الدرس يوسع به من آفاق نفسه ويشحذ من مشـــاعر قلبه .

« ولقد رأيت فيما يشبه أحلام اليقظة من خوارق الأمور ما حملنى على الإمساك عن التحدث بذكرى ذلك الملك المقـــدس ، حتى أصبح به جـــديرا ؛ فأخذت نفسى بالدرس ما استطعت ، وهى فى السماء شهيدة بصدق ما أقول . ولو أن رحمة الله مدت من حيـــاتى لقلت فيها ما لم يقله فى مثلها أحد من العـــالمين ، وبعدئذ لتتحقق إرادة الله ؛ فأرتفع إلى جوار تلك الســـيدة . إلى جوار القديســة بيتريس التى تنعم اليوم بمشـــاهدة وجه ربها الخالد أبد السنين » .

وتحدث بالفعل دانتى عن بيتريس فى الكوميديا الإلهية التى رآها فى أحلامه فأنبأها بهـــا ، وقـــد أخذ يعد لكتابتها عدته . ولقد كانت بيتريس من الرفق به بحيث أرسلت إليه فرجيل تستله من وسط تلك الغـــابة المظلمة ، غابة الضلال التى تعثرت بها خطاه ليقوده إلى رحلة طويلة خلال جهنم ، ثم خلال المطهر الذى لاحت على حافته بيتريس نفسها تقود الشاعر فى الجنة التى لم يكن لنفس وثنية كنفس فرجيل أن تلج رحابها .

(٢)

فى الكوميديا الالهيـــة

كان دانتى يعز الإباء فى كل نفس حتى فى نفـــوس أعدائه ولا أدل على ذلك من لقائه لفاريناتا دلى أوبرتى Farinata dehli Uberti زعيم خصومه بجهنم ، حيث كان بينهما حوار عنيف لم يمنع دانتى من آن يظهر ما يحمل لكبرياء هـــذا الرجل من إعجاب « وقـــد نهض فاريناتا وسط قبره المضطرم ناراً حتى أشرف على اللهب بصـــدره وجبهته ، وكأنه لا يحمل لجهنم غـــير احتقار الأبى » .

ومع هـــذه الكبرياء امتدت بدانتى محن الحيـــاة ، وقـــد أودعه الله قلباً شـــاعرا كم دفعـــه إلى المغامرات يشـــقى بها فى منفاه ، وكأنه يلتمس فى ذلك الشـــقاء ملهاة . أو ما تراه يلقى بجهنم أيضـــا أستاذه برينيتو لاتينى Brennetto Latini فيود لو تمهل معه محبة له ؟ ثم ألم يلمح يوما بإحدى طبقاتها شبحين تتقاذفهما الزوابع وسط ظلام دامس جزاء لهمـــا على ما استسلما إليه من شـــهوات النفوس ، فيلتفت إلى قائده فرجيل يرجوه التمهل حتى يعرف ما كان من أمرهما ، وكأنهما « حمامتان حملتهما الرغبة المتبادلة ، فبسطا فى الهواء أجنحة حثيثة تقودهما إلى عش حبيب » ، وما يكاد يعلم أنهما فرنشسكا دى رمينى Francesca de Rimini وحبيبها بولو Paolo حتى يطأطىء الرأس ، وكأنما ذهل عن نفسه لولا أن أيقظه فرجيـــل بقوله : ما بك ؟ فيم تفكر ؟ وفرنشسكا فتـــاة مسكينة ، حسبت أنها قـــد خطبت لبولو ، وإذا بها تزف لأخيه الكسيح ، وإذا بالحب يصلح ما أفسدته الأقدار ، ولكن غيرة الأخ وضعت حداً لعلاقتهما ، إذ قتـــل الرجل زوجه وأخاه ، وشاءت نفس دانتى الرقيقة إلا أن ترى فيهما حمامتين تسعيان إلى عش ، رغم ما هما فيه من عذاب .

وكذلك كان أمر دانتى ، فلكم مزقت الشهوات نفسه ! ولكم أشقته تلك المرأة القاســـية التى يسميها « الصخرة » Pietra ، والتى ولت

دون أن تترك على صفحات التاريخ أثراً . ولكم ردد شعره ما أنزلت به من عذاب : « بودى لو واتانى القول فى صلابة تلك « الصخرة » التى لا تزيدها الأيام إلا قسوة . لكأنى بها وقد كست جسمها درعا من الصوان تتقى بها — إن لم تهرب — ما ترسله الجعبة من سهام رجوت لو أصابت منها مقتلا . وأما سهامها فهيهات أن ينجى منها عدو أو اختفاء ، وكأنها مجنحة تطير فتخترق كل الدروع . آه ! كيف السبيل إلى النجاة ، وقد استقرت بقمة أفكارى ، كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها ؟ وما يعنيها من آلامى إلا ما يعنى زورقا من بحر لا تحركه عاصفة ... آه ليتنى أرى قلبها ، وقد انشق قلبى . إذاً لتكشف عن ظلام دونه ظلام الموت الذى يدفعنى إليه جمالها ، وما تمسك عن الطعن فى وضح النهار ، أو فى غياهب الليل » .

من جوف كل تلك الآلام طالعت دانتى ابتسامة بيتريس كما عهدها عندما رآها لأول مرة ، وهما فى التاسعة من عمرهما وقد ارتفعت إلى الجنة سنة ١٢٩٠ فى ريعان الشباب ، وبقى هو وحيدا ، لا يملك غير ذكراها ، وقد تكالبت عليه محن النفى وشهوات النفس ، لا يجد عزاء فى غير الدرس يقيم به تمثالا على حافة القرون الوسطى ، تمثالا ينطق بمجد بيتريس . وفى الحق لو أنه اكتفى بالذكرى لما وجد غير الألم ، وهو القائل : « ما أشقها محنة أن نذكر وسط الشقاء أيام السعادة ! » وإنما أنجاه أن اتخذ من وحى ذلك الماضى ، من وحى بيتريس مادة لأروع ما أنتجت عقول البشر ، مادة للكوميديا الالهية . وبوده لو استطاع بفضلها أن يصبح جديرا بتلك القديسة التى تعلق بلحاظها فارتفعت به إلى أن اجتلى وجه ربه .

وفى الحق أن بيتريس لم تحبس عنه رحمتها ، فقد أرسلت إليه قائدا رفيقا ينجو به من غاية الضلال التى تعثرت بها خطاه . وكان القائد فرجيل « ذلك النبع العذب الذى تدفق بأجمل الشعر » يفنى دانتى لياليه فى درسه والاستماع إلى عذب نغماته . ولقد

أملت بيتريس أن يرى شاعرها بجهنم من ألوان العــذاب ما يوقظه من غفلتــه فيحطم أغلال شهواته • ولعلهــا ودت لو وجــد باسما فيما أنزل اللــه بخصومه الظالمين من عــذاب • ولقــد رأى دانتى فى جهنم ما تشيب له نواصى الأطفــال •

وموضع العبرة فيمــا رأى هو نوع ما ينزل بالآثمين من عذاب ، فذوو الشهوات تتقاذفهم العواصف وكأنهم أوراق ذابلة ، وسفاكو الدماء غرقى فى بحر من الدم يغلى فيكويهم بنــاره ، وهكذا افتنت عبقرية العــذاب فــلاقت كل إثم بمــا يلائمــه • أو لا ترى إلى أولئك العرافين الكاذبين الذين يدعون العلم بالمستقبل ، وقــد قلبت رؤوسهم فأصبحت وجوههم إلى ظهــورهم يســيل فوقهــا الدمع ، وذلك حتى لا يعودوا فيــدعوا بعــد النظر يرسلونه إلى ما خلف الحاضر الراهن • ثم برتران دى بور Brtrand de Born الذى أثار بشعره الابن ضــد أبيــه ، أولم تفصل رأسه عن جسمه ووضعت فى يــده ليحملهــا من الشعر ، كمصبــاح ينير لــه الطريق ؟ ! بل والمنتحرون أنفسهم نبتت أرواحهم بجهنم أشــجارا ، يمسك المــار بغصن منهــا يكسره ، فاذا بالدم يتدفق منــه مع صيحات الألم • لقــد فروا من الحيــاة فعادوا إليهــا سجينى أغلفــة الأشجار !

ولكم كانت دهشــة دانتى عندما نظر إلى هؤلاء الآثمين فلم ير منهم نادما • بل الكل ثائر على ربه يرسل اللعنــة والسخط مختلطين بمــا ترسله من صيحات العــذاب والألم •

وخرج دانتى من الجحيم ، وبخيــاله الخصب للآثمين أشــباح كأنهــا تماثيل عــذاب نحتت نحتــا • ولكن ترى أيكفيــه ما رأى لتصلح نفســه ؟ ثم كيف له أن يصعد إلى السماء وقــد أثقلتــه الآثام كما تثقل الأمتعة المسافر ؟ وهبــه ضمن السلامة فى مستقبله ، فأنى له بالمــاضى يمحو ما به إلا أن يكون رضوان من اللــه ؟ وشاءت بيتريس رسول رحمته أن يترفق فرجيل فيصحب شاعرها إلى المطهر حيث انتظرته هى بقمتــه ، ومن عجب أن يرقى جسمنا الكثيف إلى

حيث تصعد الأرواح يغمرها نور اللـــه ! أو لا ترى إلى سكان تلك الأعراف يشكون إلى فرجيل غير مرة ظلال جسم دانتى يمتـــد على أحدهم فيحجب عنـــه ضيـــاء ربـــه ؟ .

ورأى دانتى بالمطهر أرواحا راضية مستبشرة رغم ما هى فيـــه من عـــذاب ، وقـــد انقضى عهـــد الآثام ، وهاهم فى سبيل التفكير عمـــا اقترفوا تكفيرا يعدهم لصعود السماء .

وقـــد انتشر نور اللـــه فى كل مكان وانعقدت كل روح على الندم تستشف خلاله المغفرة . والمطهر جبـــل يقوم بجزيرة تنطم الأمواج صخورها من كل جانب ، وقـــد انتشر النادمون على سفحه فى تسع درجات ، كلمـــا سموت من درجة إلى درجة كان الاثم أخف والعذاب أهون . وسما دانتى حتى الدرجة الأخيرة فاذا بهـــا نار تسعر وقـــد « زاد ظل جسمه لهيبهـــا حمرة » فارتعدت فرائصه وأيقن أنه هالك ، وإذا بصوت يتغنى ، « ما أسعد أنقيـــاء القلوب ! » وانقلب المغنى آمرا يأمر دانتى وصحبـــه بالدخـــول إلى النـــار إن كانوا يبغون الارتفاع إلى أعلى ، فارتد شاعرنا مذعورا لولا أن هـــدأ فرجيل من روعه . « أى بنى ؟ ستلقى من هـــذه النـــار عذابا ولكنك لن تلقى الموت : ولقـــد قدتك خلال الجحيم رغم ما فيهـــا من أهوال ، والآن وقـــد دنونا من اللـــه — أترانا محجمين ؟ لا . لا : ثق أنك لو مكثت مدرجا بتلك النيران ألف عام ما ذهبت بشعرة واحـــدة من رأسك . صدقنى ، وها هو اللهب أمامك ، ادن منه ثم ادفع إليـــه بكم ردائك لتتحقق من صـــدق ما أقول . هيـــا ! هيـــا ! خل عنـــك مخاوفك ، أقـــدم » .

ولكن دانتى لم يحـــرك ساكنـــا « رغم ما يخزه من نـــدم » وإذا بفرجيل شاعر الهوى ، فرجيل قيثارة الشعر ، فرجيل الروح النافذة إلى خفايا القلوب يلتفت إليـــه قائلا بصوت يهدج رقـــة : أى بنى — أذكر أنه لم يعق بينـــك وبين بيتريس من حاجـــز غير هـــذا . ثم التفت وعلى شفتيه ابتسامة الأب يداعب طفـــله بقطعة من الحلوى .

وما أن سمع دانتى اسم بيتريس « الذى ما يزال مزدهرا بقلبـــه » حتى دلف إلى النـــار ، وفرجيـــل إلى جانبـــه يلهيـــــه عن الألم بحديثـــه عن بيتريس • ولو أنك رأيتـــه وقـــد رنحه أستاذه بقوله : « آه • يخيـــل إلى أنى أرى أعينهـــا على مقربة منـــا » ، لحسبته طائرا ينتفض وقـــد بلله الندى ، أو لحسبت النـــار قـــد استحالت بردا وســـلاما •

وما إن خرج دانتى من هـــذه المحنة حتى قاده فرجيل إلى ســـاق القمـــة التى سيسمو إليهـــا فيجـــد « جنـــة اللـــه فى أرضه » • استودعه رحمة اللـــه ؛ إذ ليس لروح وثنيـــة أن ترتفع إلى ما دون ذلك • وحزن دانتى لفراقه حتى لقـــد بكى بين « يدى هـــذا الأب الرحيم » ودخل دانتى وحيدا جنـــة الأرض حيث لم يسمع إلا طيرا يشدو وماء يخـــر ، ولم ير إلا نبـــاتا أخضر ووردا مزدهرا • وفيما هو وسط هـــذه الغـــابة المقدسة لاحت له على الضفة الأخرى للنهر حورية رائعـــة تجمع الزهر باقة ، وما الحورية إلا ماتلدا **Matelda** تلك الصورة الشعرية الجميلة التى لم يصور شـــاعر أحلى ولا أرق منهـــا — ماتلدا ملك الهداية يوجه خطى دانتى الأخيرة قبل أن يصل إلى هـــدف آماله — إلى بيتريس التى لن يستطيع أحـــد غيرها أن يرتفع به إلى الجنـــة ، جنـــة السماء •

أو حان الحين ليلقى دانتى ســـيدته وقـــد شق من أجلهـــا لهيب النـــار يطهر به ما ارتكب من آثام ؟ أو ما تزال بيتريس تنقم منـــه ما تمزقت به نفسه من شهوات ؟ أو ما تزال تألم لمـــا أثقل به ماضيه من عبث بأودية السراب ؟ ذلك ما نؤمن بـــه وإلا لمـــا قادته ماتلدا إلى نهر الليتيـــه **Lethé** نهر « النسيان » يشرب منـــه فيمحو من ذاكرته كل ما علق بهـــا ؟ وقرب موعـــد اللقـــاء فكان على الشاعر أن يشرب من نهر آخر « إينويه » **Eunoé** نهر « الذكريات الطيبة » ليعود إلى عهـــد الطفولة ، عهـــد بيتريس التى صاح رســـول من السماء يعلن قدومهـــا • وإذا بضيحات النسوة تمـــلأ الجو ، وإذا

بالملائكة تنثر الزهور فى كل مكان ، والهـواء يهتز ببيت الانيـادة الشهير « هيـا ! هيـا انثروا الزنبق حفنـات » .

« وعنـد بعث النهار — وقـد اكتسى شرق الأفق لونه الوردى ، وسجت بقيـة السماء بهـدوء جميل — رأيت الشمس يوما تبزغ خلال ظلال تحجب من ضيائها ، فيستطيع البصر أن يثبت لرؤيتها ، وهكذا خلال سحابة من الزهر تنثره أيدى الملائكة ، ثم يتساقط فوق العربة ومن حولهـا ، لاحت لى امرأة يجللهـا نقـاب طويل أبيض وبرأسـها تاج من الزيتون ومن تحت النقـاب معطف أخضر يكسو ثوبا فى لون اللهب الحى . وإذا بروحى ، التى لم تستشعر منـذ زمن بعيـد فى حضورها ما ألفت من ذهول وخوف ، تتعرف إليهـا ، لا برأى العين ، بل بمـا ينبعث عنهـا من سحر خفى ، وإذا بحبى القـديم يعود أقوى مما كان عليـه . ولم يكد يلمس عينى هـذا السحر ، الذى مسنى بجراحـه قبـل أن أدرج عن طفولتى ، حتى التفت إلى يسارى فى خشوع كمـا يلتفت الطفـل إلى أمه عنـدما ينـاله خوف أو يصيبـه ألم ، أقول لفرجيل : لم تعـد بى قطرة دم لا تهتز ! لقـد بعث الحب القـديم أمارات لهيبـه » .

ولكن أنى له بفرجيل يفهم عنـه وفرجيـل قـد ولى ؟ ! ونظر إلى حبيبـة طفولته فاذا بهـا على غير ما عهـد ، وقـد استحالت قاضيا صارما يحـدث الملائكة عمـا كان من ضلاله :

« لقـد خلق هـذا الرجل كما يشهد (عهد شبابه) بحيث تستطيع كل فضيلة أن تخصب فى نفسه أروع الخصب ، ولكن حقلا تتساقط بـه بذور سيئة ، حقـلا لا يتعهـده أحـد ، خليق أن يزداد ثمره مرارة كلمـا ازداد خصوبة — لقد قومت من هـذا الرجل بنظراتى ، وقـد تعلق بهـا فهديتـه سواء السبيل ، ولكنى لم أكد أدلف إلى حيـاتى الأخـرى حتى انصرف عنى إلى غيرى . تركنى ليتخبط فى مسارب الخطيئـة ، وقـد خدعتـه تلك الصـور البـاطلة التى لا تستطيع أن تحقق ما تعـد . وعبثـا حاولت فى ساعات إلهـامه ،

فى حلم كانت أو فى صحو أن أرتد بـه إلى ! نعـم ! لقـد ضاعت جهودى كلهـا سدى حتى لم أعـد أرى سبيلا لنجاته غير أن أطلعه على ما أعـد للآثمين من عـذاب . وهـذا ما حملنى على السير إلى مدخل جهنم لألقى بـه من أوكلت إليـه قيـادته ، أوصيه به خيرا وأدمعى مستهلات . والآن لقـد قضت إرادة اللـه التى لا مرد لهـا ألا يعبر الليتيـه وألا يشرب من مائـه إلا من يسكب فيـه دموع النـدم » .

ثم التفتت إلى دانتى قائلة وقـد صوبت إليـه سنان اللسان يحـز فى نفسـه حزا : « قل ! قل ! أليس كل ذلك صحيحا ؟ يجب أن تلحق بآثامك الاعتراف بهـا » .

واضطربت فى نفس دانتى كل قواه ، حتى لقـد هم صوته بالاجابة فمات دون شـفتيه ، فصمتت بيتريس هنيهـة ثم قالت : « فيـم يفكر ؟ ! أجب ! أجب ! ما دامت ميـاه هـذا النهر لم تستطع أن تحطم فى نفسك ما علق بهـا من ذكريات محزنة » .

وأخـذ الخزى والخوف بنفس دانتى فانطلق لسـانه « بنعم » خافتـة لم تسمع لولا أن نمت عنهـا حركات الشفاه . وكما تتحطم القوس عنـدما تقسو فى شـدها فلا تستطيع أن ترسل السهم إلى هدفهـا ، تحطمت نفس الشاعر ، فانفجر دموعا وزفرات غص بهـا صوته . وعادت بيتريس إلى أسئلتها القاسية : « قل لى : أى أغلال لقيت بسبيلك فعاقتـك عن المضى فيهـا وقـد تعلقت بى رغبـاتك فقدتك فى سـبيل الخير ، حب الخير الذى ليس لنفس أن تتطلع إلى سـواه ؟ قل لى : أى المغريات وأى الوعود لمحت على الجبـاه فدرت من حولهـا ؟ » .

وأطلق دانتى زفرة كأنهـا ذهبت بما يملك من صوت فلم يستطع الكلام حتى أجاب باكيـا « لقـد حادت بخطـاى خيرات العـالم الخادعة منـذ أن غاب وجهك عن بصرى » .

واستأنفت بيتريس : « لو أنك أردت أن تكتم أو أن تنكر ما تعترف بــه الآن لمــا خفى شىء من خطاياك ، وعنــد قاضيك عنهــا علم اليقين • ولكنه عندما ينبعث الاعتراف من فم الخاطىء ، ترى سيف القضاء وقــد انفل • ومع هــذا لا بــد أن تشعر بثقل ما حملتــك خطــاياك من خزى ، حتى لا تعود فتستمع إلى أصوات الغواية • هيــا ! ألق عن نفسك قليــلا مما يبكيك ، ثم استمع إلى لتعرف كيف أن جسمى الذى واراه التراب كان خليقا بأن يدفعك فى غير ما سلكت من طرقات ، وهل أرتك الطبيعــة أو أراك الفن جسما أنفــذ سحرا من ذاك الذى أودعتــه ســجينة وها هو اليوم قــد عــاد فاختلط بالتراب ؟ » •

وأحس دانتى بالندم ينشب فيه أظفاره ، فسقط مغشيا عليه ، حتى إذا أفاق أخذته فضائل الدين ، حيث غسلت نفسه ممــا بها غسلا ، وفتح عينيه فاستطاعتا أن تثبتا لجمال بيتريس ، وقــد تجردت نبراتها عن تلك القســوة التى أحسها فى حسابها له عمــا فــرط من واجب الإخلاص لهــا حيــة ، والوفاء لذكراها ميتة • وما بيتريس الآن إلا روح خالصة تبصره بأسرار العالم الآخر ، عله يحملها إلى من تضم هــذه الأرض من أرواح بائسة بحيرتها •

منــذ تلك اللحظة لم يعــد بين دانتى وبيتريس حجاب ، وها هى تسمو إلى الجنــة ودانتى معلق بنظراتها خلال السموات التسع وقد أعشى بصره نور اللــه فعجز عن أن ينظر إليه إلا فى أعين بيتريس ، التى ما زالت تحنو عليه حتى استطاع أن يتلقى مباشرة نور ربه • ولم تغــادره فتــاة فلورنسا حتى وصلا إلى أقدام العذراء ، حيث تولى قيادته إلى خالقه — مصدر كل حيــاة — القديس برنار الذى تغنى بجمال مارية أعــذب الغنــاء • وافترق الحبيبان ، وكان وداع الشاعر : « أبق لى رحمتك تتلقين بها روحى التى شفيتهــا — عندما تفلت من جسمها متصاعدة إلى كنف الله » •

جــوليان سوريل
Julien Sorel

جوليان سوريل بطل رواية « الأحمر والأسود » للكاتب الفرنسى ستاندال Stendhal سنة ١٧٨٣ — ١٨٤٢ نموذج لذوى المواهب الذين تشــاء الأقــدار أن يشبوا بين طبقات الشعب المتواضعة ، ثم ينظروا فإذا بوقاحة المــال وعزة المركز وصلف المحتــد تتنكر لمــا وهبوا وتود لو درجتهم أكفاناً من الاحتقــار ، وإذا بكبرياء المواهب تحرق الأكفان •

نادت الثورة الفرنسية بالمساواة بين الرجال ، كما حطمت الامتيازات لتجعل الحقوق وفق المواهب ، وسرى هــذا المبدأ الجميل حتى لكأن الأطفال يرضعونه مع لبــان أمهاتهم ، فيكبر صغيرهم وقــد استقر فى نفسه أن ملكاته سبيل مجده ، وأن الوجاهة الاجتماعية لابد آتية فى آثار التفوق العقلى • ولكن ما يكاد الرجل منهم يدلف إلى الحيــاة فى العشرين من عمره حتى تنهض أمام طموحه وإيمانه بملكاته أشــد العقبات ، فكم من نفوس صغيرة ومواهب واهيــة قــد دفعتهــا فى سبيله القرابة رحماية ذوى السلطان وقــوة المــال ودس النفوس الملتوية فسدت المنــافذ ، وسبقته إلى غايات المجد ! وهكذا تتضــور النفوس الممتازة ، وقــد قضى عليهــا أن تتبــع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، وما تزال تحفى أصلابها وتتصبب عرقا حتى تستطيع — وقــد لا تستطيع — بعــد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصــل إلى ما تستحق • وأما ملكاتها فماذا تجدى فى هيئة اجتماعية لا تقيم لها وزنا ؟ وهكذا تعلن الجماعة إفلاســها ، إذ لا تمكن خيرة أبنائهــا من حقوقهم ، فيحتمى رجال الفن والعقل بعــالم الأحلام ، بينما الطبائع المسالمة يتناولهــا اليأس فترضى بحيــاة متئدة الخطى ، راضية بما يتخلى لها الغير عنه وقد أضناها الجهد وهدها الظلم • وأما الإرادات القوية — ومن بينها سوريل Sorel — ممن لا تعتمــد على حام ولا قريب يمهد لهــا السبيل فماذا تفعل ؟

أما القناعة بالقليل والرضا بالظلم فلا ، بل تأهب للنزال ، وقد تجهمت لهم أوجه الجماعة التى يحيون بينها ، فليطرحوا ما كبلوا به منذ الطفولة ؛ وليسكتوا ما تستشعر نفوسهم من رحمة أو يختلج فى ضمائرهم من ندم ، وليشقوا سبيلهم فى جسارة عندما تسنح الفرص ، وليصطنعوا — كل قسوة ونفاق ، وليكن بعد ذلك ما يكون •
وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من « سوريل » ؛ طيوراً جارحة ، وإن تكن يد الأداة الحكومية لهم بالمرصاد ، تقودهم إلى المشانق كما قادت سوريل الذى لولا عبوس القضاء لجثت تحت قدميه تلك الجماعة التى أنزلت بنفسه الخراب •

لم يكد سوريل يبلغ العشرين من عمره (سنة ١٨٢٨) حتى كان مجد نابليون قد زال ، وقد عادت الملكية ، وعاد رجال الدين إلى نفوذهم القديم ، ولكنه لا يزال يذكر ما رآه غير مرة أيام طفولته من فرسان نابليون فوق جيادهم الأصيلة ، وقد انتفخت من حولهم معاطفهم الصافية البيضاء • وغطت رءوسهم قلانس تحليها شعور الخيل السوداء ، مارة بقريته إلى جوار جرينوبل ، وهى عائدة من غزواتها بإيطاليا • ولكم من مرة نظر من نافذة غرفته فإذا بالخيل واقفة فى الساحة أمام المنزل أو مشدودة أعنتها إلى قضبان نافذته ! ولكم استمع إلى أنباء البطولة التى ترددها كل الألسنة عن معارك « لودى » و « أركول » و « ريفولى » ؛ فتتوق نفسه إلى مهنة الحرب ، ولكنه نظر فوجد أن زمن البطولة قد ولى ، وأن نابليون قد أصبح فى نظر ذوى السلطان غاصبا ، يورد النطق باسمه موارد التهلكة ، بينما انقلب الأمر كله لرجال الدين يرفعون من تشاء رغباتهم، ويخفضون من يستهدف لسخطهم ، فانعقد عزمه على أن يتخلى عن آماله فى الجيش وأن يصبح من رجال الكنيسة ، وإذا فليستبدل بالرداء « الأحمر » الرداء « الأسود » •

ولد جوليان لأب نجار فى قرية صغيرة ، وكان أبوه أميا فظا غليظ القلب • ولقد اتفق يوما أن أتى الأب إلى « ورشته » ، وقد ناط

بجوليان أن يقوم على ملاحظة العمل ، وإذا به يجده ممتطيا كتلة من الخشب ممدودة قرب السقف وبيده كتاب يقرؤه . فناداه الأب فلم يسمع لشدة ضوضاء المناشير ، فصعد إليه ، وبضربة قوية على رأسه أوشك أن يسقطه على الأرض . ولو أنه سقط لتقطعت أوصاله فوق الآلات المنتثرة هنالك ، ولكنه أمسكه بيديه الغليظتين صائحاً : « أيها الكسول ! أو ما تستطيع أن تقرأ كتبك اللعينة فى الليل عندما تذهب إلى القسيس لتضيع وقتك ، بدلا من أن تلهو بها الآن عن ملاحظة المناشير ؟ » ولزم جوليان الصمت والدموع تترقرق فى عينيه ، لا لما أصابه من ألم ، بل حزناً على كتابه الذى طاحت به ضربة أبيه إلى نهر مجاور .

— إنزل يا حيوان لأكلمك !

ولكن جوليان لم يسمع أيضاً لشدة الضوضاء من حوله ، فأتى الأب سوريل بقطعة طويلة من الخشب وضربه بها على كتفه ، ذلك لأنه لم يشأ أن يعود فيصعد إليه . ونزل جوليان ، وطرده أبوه بعنف أمامه إلى المنزل ، وكم كانت حسرة الغلام عندما نظر إلى النهر وهو يبتلع « ذكريات » سنت هيلانة أعز ما يملك .

ولو أنك رأيته يومئذ لرأيت خدوداً محمرة وأعينا ساجية ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، غلام ضعيف فى مظهره غير منتظم مقاطع الوجه ، وإن يكن دقيقها ، ذا أنف منحن قليلا إلى جانب ، وأما عيناه فكانتا كبيرتين سوداوين شديدتى البريق — ما هدأت نفسه — بريقاً ينم عن حرارة وعمق فى التفكير ، وإن لم تكن ترى فيها ذلك اليوم إلا بغضاً مخيفاً . ولقد كان شعره الكستنائى القاتم يكسو أعلى جبهته ، فتبدو صغيرة ، مما يبالغ فى مسحة الشر التى تلوح عليه عندما يأخذه الغضب . وفى الحق أن جوليان كان أصيلا فى خلقه ، وفى ضمور خصره ما ينبىء بالخفة أكثر مما يدل على القوة . ولقد رأى أبوه منذ الطفولة فى ميله إلى التفكير وفى شحوب لونه ما حمله على الاعتقاد بأنه لن يعيش ، وإن عاش فسيكون عبئا على أسرته .

وقـــد كان جوليان موضع احتقار أهل المنزل جميعا ، فكره إخوته كما كره أباه ، ولكم ضرب بالساحة فى أيام الأعيـــاد .

لم يكد جوليان يدخـــل المنزل حتى أحس بيد أبيـــه القوية تمسك بكتفه ، فارتعدت فرائصه وتوقع الضرب ، ولكن لحسن حظه لم يكن شيء من ذلك ، وإنما كان حوار بين الأب وابنه ، إذ أن عمدة القرية قد طلب إلى القسيس أن يأتيه بمرب لأولاده ، فلم يجد القسيس خيراً من تلميذه جوليان ، وقـــد توسم فيه كل نجابة ، فكرس لتثقيفه الكثير من وقته ، وأروع ما كان فى ذلك الحوار الفقرات الآتية :

الابن : وأى أجر سأنال على ذلك ؟

الأب : الغذاء والملبس وثلثمائة فرنك .

الابن : ولكنى لا أريد أن أكون خادما .

الأب : ومن قال لك إنك ستكون خادما أيها الحيـــوان ؟ أتظن أنى أقبـــل أن يكون ولدى خادما ؟

الابن : ولكن مع من سآكل ؟

وكان فى السؤال الأخير ما أحرج الأب سوريل ، وخشى أن يكون فى جوابه ما لا يقتضيه الموقف ، فثـــار ضد جوليان وأشبعه سبابا ، متهما إياه بالنهم ، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين .

وذهب جوليان إلى منزل المسيو دى رينال de Rena عمـــدة القرية ، فوجده رجلا غنيا من رجال الصناعة . نظر إليه فإذا به قد وخط الشيب عارضيه ، فلاح رأسه فى لون بدلته الرمادية ، وأحس فيه برضا عن نفسه واعتزاز بذاته لا تجده إلا عنـــد ذوى العقول الضيقة والخيال المحدود . رجل تلخصت مواهبـــه فى أن يعرف كيف يحصل على حقه فى أسرع وقت ، وكيف يرجىء ما عليه إلى أبعـــد حين ، ومع ذلك فقد كان المعروف عن المسيو دى رينـــال أنه ابن نكتـــة حاضر البديهة ، والفضل فى ذلك راجع كله إلى دستة نكات ورثها عن خال له . وأما مدام دى رينال فكانت امرأة طيبـــة النفس ، فى الثلاثين من عمرها ، وكان جمالها ما يزال ينهج الأبصار . وهال جوليان ما رأى

من بذخ هؤلاء الناس ، وخشى احتقارهم له أو إدراجه فى عداد الخدم ، فعقـد عزمه على أن يرغمهم على احترامه ، بأن يقنعهم كما يقنـع نفسه بأن النزاع إنما يقوم بين غناهم وفقره ، وأما قلبـه فأسمى من أن تناله وقاحتهم ، وقـد وضعه حيث لا تستطيع أن تصل إليه مظاهر رضاهم أو إعراضهم ، وتلك هنات هينات .

ذلك موقف جوليان من العمدة وزوجه . وأما الأطفال فقد كان يعلم أنه لا ذنب لهم فى جراح نفسه ، فأخلص فى القيـام على تربيتهم ، يأخذهم بالعدل دون إسراف فى العطف . وكيف له بمثل هذا الإسراف وأقوى سلاح اعتزم أن يلتجىء إليـه ضبط النفس والسـيطرة على المشـاعر ، بل والتظاهر بغـير ما يضمر ؟ ولقـد كانت له فى ذلك الأعاجيب ، فلقد تسوقه الحماسة يوما فى معرض الحديث عن نابليون إلى إعلان فرط إعجابه بهذا القـائد العظيم ، ثم يفطن إلى ما فى ذلك من حمق قـد يودى بمستقبله ، فيعاقب نفسه بأن يشد ذراعه إلى عنقه شهرين كاملين ، مدعيا أنه قـد كسر وهو يحرك قطعة من الخشب ولقـد يخلص لقسيس قريته الود ، ويعترف له بالفضل ، ولا يغيظه منه إلا نفاذه لمكنون نفسه ، فمـا كان جوليان عميق الإيمان ، ولا كان ميله إلا الاشتغال بالدين صادقاً ، وإلى هـذا فطن القسيس ، فاتخذ الشاب هدفا له أن يخدع الرجل عما فطن إليه من أمره . ولقد تحس مدام رينال فى جوليان أصالة فى الرأى ، وقـوة فى الإرادة ، واعتزازاً بالنفس ، تدهش له فتعجب به ، ثم ينشرح لذلك صدرها ، وتساورها الشكوك عن حقيقة شعورها نحوه ، وإذا بالشك ينجلى عن يقين ، وإذا بمدام رينـال تحب جوليان ، وجوليان عنها لاه ، وما إلى هذا تتطلع نفسه الجريحة ، وقـد اتجهت بكل عنف إلى الثـأر من تلك الجماعة التى تحتقره لغـير ذنب جنـاه ، ويكون فى موقفـه من تلك السيدة العطوف ما يدهش .

كان من عادة مدام دى رينال أن تصطحب جوليان وصديقة لها إلى حديقة المنزل وقت العشية ، وفيما هم جالسون ذات ليلة مست يـد

المربى يــد السيدة عفوا ، فسارعت الســيدة إلى سحبها ، وحسب جوليان فى ذلك احتقارا له ، وتنغصت بذلك حياته طوال الليل والنهار التالى ، حتى أتى الليل من جــديد ، وعاد الثلاثة إلى مجلســهم من الحديقة ووطد الشاب عزمه على أن يمسك باليــد التى تراجعت عنه بالأمس ، وكان صراع بينه وبين نفسه لم يجد منه مخرجا إلا بتحديد موعد لتنفيذ عزمه ، وكان ذلك الموعد دق الساعة العــاشرة • ودقت الساعة فأمسك بيــد مدام دى رينال ، وتراجعت اليــد فعاد للامساك بها ، واستسلمت السيدة لجرأته ، فتركت يدها فى يده ، بل عادت هى إلى أخذ يده عندما رجعت من قضاء أمر نهضت إليه • وكان ذلك المساء فاتحة سقوط تلك المرأة المسكينة ، ووجد جوليان فى استسلام السيدة نشوة لا حد لها ، لا نشوة الحب ، ولا نشوة اللذة البهيمية ، بل نشوة الانتصار المتعطشة إليه نفسه •

وذاع الأمر حتى لم يعــد هناك معدل عن أن يغادر جوليان هذا المنزل الذى دنسه ، ليذهب إلى مدرسة القسس بإحدى المدن المجاورة يتم بها دراسته ، وقبــل بالمدرسة لتفوقــه الظاهر ، وهنالك زادت خبرته بالرجال وزاد ظنه بهم سوءا • نعم إنه قــد وجد فى « الأب » المشرف على المدرسة عقلا راجحا ، وقلبا كبيرا ، قــدر مواهبه حق قدرها ، بل وأحس نحوه رغما عنه بحب لا ينبغى لرجل دين أن يخص به فردا دون آخر ، وحبــه كله لله وحده ، ومع ذلك ألم يقل له هذا الأب يوما : « نعم يا بنى إنى أستشعر نحوك العطف ، والله يعــلم أن ذلك على الرغم منى ، وأنا لا أجهل أنه ما ينبغى لى ان أخص أحدا من البشر بحب او بغض ، وأن أكون بينهم عادلا فحسب • أى بنى إن مستقبلك شاق ، وفيك ما ينفر النفوس المبتذلة • سيطاردك الحسد والنميمة ، وحيثما اتجهت أو ساقتك الأقــدار ستشقى دائمــا بحقد زملائك الذين لن يتظاهروا بحبك إلا ليمعنوا فى الكيد لك • وما أرى لهذا علاجا غير الركون إلى رحمة الله الذى شاء أن يجعــل فى كره الناس لك عقابا عادلا لغرورك • ليكن سلوكك نقيا ، وسوف ترى أن

أعدائك سيبوءون بالهزيمة ، ما تعلقت بالحقيقة الخالدة تعلق الغريق بأسباب النجاة » .

وشاءت شهوات الحقد ودس النفوس الوضيعة أن يتخلى الأب المشرف على المدرسة عن مركزه ، وخشى الأب على جوليان غيرة إخوانه وحقدهم ، فأخذه معه إلى باريس حيث وجد له عملا كسكرتير للمسيو دى لامول De la mole أحد الأشراف الوزراء ، بل أقوى الوزراء نفوذا فى ذلك العهد ، ومع ذلك قد نتساءل : أكانت مخاوف الأب من أجل جوليان على أساس ؟ ألم يتفق لهذا الشاب الموهوب أن لاقى يوما المطران فأعجب به ، وأهداه كتابا قيما عاد به إلى المدرسة ، فسكنت الأحقاد من حوله وأخذ إخوانه يسلمون له بالتفوق؟ ثم ألم يحدث يوما أن رفعه الأب المشرف نفسه إلى رتبة قارىء الكتب المقدسة أيام القداس ، فأخذ إخوانه فى تملقه بدلا من كرهه والحقد على واهبه ؟ ولكن كل ما أصاب من توفيق لم يستطع فى الحق أن يسكت غل القلوب جميعها ، وقد استمر الكثير منها على عدائه الظاهر أو الخفى .

وكانت إقامة جوليان عند المركيز دى لامول بباريس شق من إقامته عند المسيو دي رينال عمدة قريته ، ولكم قاسى من احتقار المركيزة بنوع خاص ، هى وزائراتها . ولكم ضاقت نفسه بأحاديث المركيز وإخوانه بالصالون كل مساء ، وحديثهم لا يعدو أتفه الأشياء ، حتى أصبحت حياته جحيما . وكان إحساسه من الإرهاف بحيث أصبح يشعر بجرح من كل نظرة ، وتولدت فى نفسه من العقد ما جعله يخشى اعتداء فى كل لفظة ، ولكنه رغم ذلك صمد لما حوله من ضغط بعزم قوى ، وبادل الكل احتقاراً باحتقار ، وتعاليا بتعال ، حتى دانت له النفوس ، وبلغ الأمر ببنت المركيز نفسها أن أعرضت عن كل من يسعى إليها من أشراف لتتعلق به ، وكان يوم همت الفتاة بالسقوط فيه بين يديه ، فعاودته طبيعته الخيرة ، وأخذ يناقش نفسه الحساب ،

ولكنــه عاد فذكر ما كان من اضطهاد تلك الفتــاة له فى أول الأمر ، ورأى فيها رمزاً لتلك الجماعة التى أذاقته مر الآلام •

« يالى من أحمق — أنا ابن الشعب تأخذنى رحمة بعائلة كهذه — أنا الذى دعانى دوق شون خادماً • ثم كيف يجمـع المركيز ثروته ؟ أليس ببيعه أوراقا مالية عندما يعــلم من القصر أنه سيحدث فى اليوم التالى ما يشبه انقلابا فى الحكم ؟ ! وآتى أنا الذى ألقاه القضاء الظالم خلف الصفوف ، أنا الذى أملك قلبا نبيــلا ، ولا أملك ألف فــرنك دخلا ، أنا الذى حرمت الخبز — نعم الخبز الضرورى ، فأترفع عن لذة تسقط بين يدى ! لا — لنترك هــذا الحمق — ليعمل كل لنفســه وسط هذه الأثرة القاسية التى يسميها الناس الحيــاة » •

وتذكر جوليان نظرات المركيزة وصديقاتها فاشتعلت نفسه وجرت شهوة الإجرام فى دمه ، وكأنه عندئذ رجل يحارب الإنسانية جميعا • وسقطت الفتاة وحملت من جوليان وعلم بذلك الأب ، فهم بأن يعمل ليمنح جوليان لقبا يدخله فى عــداد الأشراف فيزوجه من ابنته ، وقد خيــل إليه غروره أن جوليان لا يمكن أن يكون ابن نجار ، وأنه لابد ولد طبيعى لأحد الأشراف تخلى عنه أبوه بين يدى ذلك النجار الذى ينسب إليه ، وإلا فمن أين لجوليان بتلك الشخصية القوية ؟ وود أن يستوثق من الأمر بالكتابة إلى أحد أهل قرية جوليان ، فاهتدى إلى مدام دى رينال ، وأملى القسيس الذى يتلقى اعترافات تلك السيدة الرد قاسيا ، فثــار غضب المركيز وعدل عن مشروع الزواج •

فثــار جوليان وركب رأسه إلى قريته حيث شرع فى قتل مــدام دى رينال وهى تصلى بالكنيسة • وكان يوم المحاكمة حيث تضافرت جهود بنت المركيز ومدام دى رينــال لإنقاذه بعــد أن عجز الكل عن حمله على الفرار • ونهض جوليان موجها الخطاب إلى المحكمين بهــذه الألفــاظ •

« أيها الســادة المحكمون ! إن شناعة الاحتقــار الذى أريــد أن أتحداه عند الموت هو الذى يدفعنى إلى الكلام • أيها السادة ! ليس

لى شرف الانتماء إلى طبقتكم ، وما أنا إلا فــلاح بسيط ثار على ما أنزلته الأقــدار من منزلة وضيعــة • ثم إنى لا أطلب منكم رحمة ، وما أخادع نفسى فى أن الموت ينتظرنى ، وإنى لمستحقه • لقد اعتديت على سيدة جديرة بكل احترام وكل تقدير • لقد كانت مدام دى رينال لى أما ، ولقد ارتكبت جريمة شنيعة أصررت عليها من قبل ، وبــذا وجب إعدامى أيها السادة • ولو أننى كنت أقل إجراما لمــا منع ذلك نفرا من الناس من القسوة على دون رعاية لمــا يستحقه شبابى من رحمة ، ولا هم لهم إلا أن يعاقبوا فى شخصى أولئك الشــبان الذين ينشأون من أصل متواضع تقعــد به الفاقة ، ثم تشاء الأقــدار أن يصيبوا من التربيــة الحسنة وأن يستشعروا من الجسارة ما يدفعهم إلى الاختلاط بما تسميه كبرياء الأغنيــاء « الطبقات الراقيــة » • هذه أيها السادة جريمتى • وإنى لعلى ثقــة من أنها ستعاقب أشــد العقاب ، وبخاصــة لأن قضاتى ليسوا من أندادى • وما أرى على مقاعد المحلفين فلاحا اغتنى ، بل كلهم أعيــان مترمتون » •

وواصل جوليان حديثه هــذا عشرين دقيقة • والنائب العام يتقزز فوق مقعده ، وهو أحرص ما يكون على رضا ذوى السلطان • وبالرغم ممــا كان فى حديثه هــذا من عمق فقد تســاقطت الدموع من أعين كل السيدات الحاضرات ، وما كان أكثرهن فى ذلك اليوم !

هذا هو جوليان سوريل كما خلقه ســتاندال ، فحقق فى شــخصه ما عجز عن تحقيقه فى حيــاته ، فهو رمز لأحلامه • ولقد كان ستاندال من أشد المعجبين بنابليون ، فقد قص حيــاته فى كتاب رائع • وكان ستاندال ممن يدينون بمبــدأ القوة الذى تنم عنه كل رواياته • وهو أب روحى لنيتشه وأحد منابع ذلك التيار الجارف الذى اجتاح القرن التاسع عشر ، تيــار العنف واستنكار قواعد الأخلاق ، ذلك التيــار الذى لو لم يصمد له تولوستوى لدمر الإنسانية •

جوليان سوريل هو ستاندال نفسه إلى حــد بعيد ، ستاندال الذى حرم من عطف والدته صغيرا وشقى بقسوة أبيه ، وحاول مجد الحرب

مع نابليون بإيطاليا وروسيا ، ثم عاد بغـير مجد ، فاندرج فى السلك السياسى ، وعاش بإيطاليا زمنا طويلا ، حيث رأى فى ذلك الشعب من حدة الطبع وتوثب الحركة ما كان يعجب به .

والآن ترى بم نحكم على جوليان ؟ الذى لاشـك فيه أنه يتمتع بعطف ستاندال ، وأن البون بينه وبين جريزلو Greslou « تلميذ » بول بورجيه لبعيد . جوليـان لم يولد خسيسا ولا شرير الطبع ولا محمولا على الإجرام بالفطرة ، وفى تاريخ حيـاته ما يؤيـد ذلك ، أخلص الود لصديقه الريفى فوكيه ، وأعزه حتى أسلم آخر أنفاس الحيـاة ، ولقد صفت نفسه وسلس طبعه بين يدى قسيس قريته وبين يدى الأب الذى كان يشرف على مدرسة القسس التى تعلم بها ، ورد لهما الخـير من كل قلبه . ولقد كان جوليـان بطبعـه حييا خجولا متواضعا ، ولو أن الجماعة التى عاش بينها لم تشعره باحتقارها له ، ولو أنه كان بليد الطبع صفيق الإحساس لمـا انقلبت حياته مأساة . ولهذا ربما كان جديرا بالعطف وإن كانت وسائل انتقامه مما لا تطمئن إليها النفس ، وقـد أصاب بها أحيانا من كان موضع رعايتهم . وما ينبغى مهما تكن الظروف أن نفقـد الحس الأخـلاقى فنضرب على غير هدى .

ابراهيم الكاتب

يقول المــازنى — وما نريد أن نظن به الكذب ، وبعض الظن إثم — « ولست أحتاج أن أقول إنى إنى لست بابراهيم الذى تصفه الرواية ، وأن هــذا المخلوق ما كان قط ولا فتــح عينيه على الحيــاة إلا فى روايتى ... ثم إنى لست أرضى أن أكونه ، فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ، ولا التفاتات ذهنــه ، وقد ندمت على خلقه بعــد أن سويته ، فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها ، ولو كان صديقا لجفوته ونبوت به . ذلك أنه يتناول الحيــاة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغــير احتفال . وهو يعبس للدنيا ، وأنا أفتر لهــا عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بهــا يقطر من أطراف أصابعى — كالعرق . وهو مغرى بالتفلسف وأنا أعد الواحد من هــذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر ، وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد ، وأنا ريض سلس ، وهو نفور ، وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة ، وأنا مغتبط بالحيــاة ، راض عنها ، قانع بها ، وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ، ضيق الصــدر ، وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع ممــا كان ، ولست مثله أو من بالتثليث فى الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالنيمونيا . الخ الخ . ، فليس بيننا كما ترى من تشابه ، سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعــافى » .

(المقــدمة)

وأنا بعــد أعرف « إبراهيم الكاتب » ، وأما « إبراهيم المــازنى » فلا ، إلا أن يكون حــدس لا يغنى عن اليقــين . وإن يكن ثمة أمر يبلبل الأفــكار ، فهــو ذلك التعارض القــوى بين مزاج الرجلين ، ونظرتهما إلى الحياة . إبراهيم الكاتب رجل يحتفل بالحياة ويعبس للدنيا وهو مغــرى بالفلسفة ، نفــور وعر متكبر عنيد ، فى نفســه مرارة ، وهــو قليل التسامح ضيق الصدر ، لأنه كأنما يريد أن يخلق

الدنيا على هواه وهو أخيرا قد استطاع أن يحب ثلاث نساء يتردد بينهن كالورقة الذابلة تتقاذفها الرياح .. وأما إبراهيم المازني فرجل يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته ، ويحس السرور يقطر من أطراف أصابعه كالعرق ، وهو يعد المتفلسفين مرزئين يستحقون المرثية ، وهو سمح متواضع ، ريض سلس عطوف مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها . لا يرى في الامكان أبدع مما كان . ثم هو فيما يظهر لا يؤمن إلا بإله واحد وحب واحد كما يقولون . لقد ذهب المازني بكل الصفات الطيبة ، وأما سميه فالويل له . ومن عجب أن تنظر فترى في قسمات إبراهيم الكاتب ما يذكرك بقسمات إبراهيم المازني عندما أصاب الأخير شيء من هرم النفس ، فتتساءل أو لم يتبادل الرجلان يوما شيئا من خصائصهما ؟ أو لم يحفل المازني بالحياة ، ويعبس للدنيا ويفلسف في نفور وكبر وعناد ومرارة ، حتى مل وكاد يستريح إلى اليأس ، فاذا به يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته وقد أخذ يرثى للمتفلسفين ؟ ذلك ما نكاد نجزم به ولنا أدلة كثيرة نكتفي بأقواها ، وهو ذلك السرور الذي يقطر من أطراف أصابعه كالعرق السرور ملح ، ابتسامة مرة ، عالم يراه أبدع العوالم ، لأنه لا رجاء في إعادة خلقه ، نفس ألمت حتى اليأس ، واستغرقت في الحياة حتى مجتها . ومن كان هذا شأنه لا نحسبه يصير رمادا كله . فتش تجد تحت الرماد نارا .

وفي الحق إن إبراهيم المازني رجل أثر ، فهو يريد أن يسلب إبراهيم الكاتب الكثير من صفاته ليدعيها . إبراهيم الكاتب نفس واسعة ، اتسعت حتى احتوت الأضداد . ولو أنك سألتني أن أصف لك ذلك الرجل العجيب لما استطعت خيرا من أن أجمع مميزات الابراهيمين قائلا : هذا هو إبراهيم الكاتب . ولا غرابة ، فكما أن الرجل استمرار للطفل وإن تغيرت القسمات ؛ كذلك استمرت مرارة أحد الرجلين في ابتسامة الآخر حتى أصبح سروره عرقا .

ولقد كان فى المرارة شعر ، كما ترى فى الابتسامة سخرية ، وما مات الشعر وإن نازعته السخرية سحره . إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج من الشعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد إليهما بحق جورج ديهامل سر نبوغ الكتاب ، مؤكدا أنه إذا خلا الرجل منهما فقد خلا من كل شىء وإلا فقد اجتمعت له مميزات الأديب الحق .

اجتماع السخرية إلى الشعر سر من أسرار الحياة ، يكاد إبراهيم الكاتب يفض لنا غلافه ، ونحن بعد لا نستطيع أن نتتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا ، لأننا لا نعرف قصته ، وإنما نعرف منها مرحلة قصيرة تذكرنا بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمات الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقا لطبائعها ، ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا سر نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كانت لابراهيم الكاتب دراما صيغت قصة .

ونحن بعد نعلم أن إبراهيم الكاتب كانت له زوجة ماتت مخلفة له ولدا ، وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بمارى ممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف عند أقاربه ، حيث يجد بنت خالته شوشو الفتاة الجميلة الحية ، وأختها سميحة العاثرة الحظ ، التى ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأحد أقاربها . وأخيرا نجية الأخت الكبيرة زوجة الشيخ على صاحب العزبة التى نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيرا مع بنات خالته ، ولكم داعب شوشو وهى طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شبا كأخوين وانقطع عنها سنين طويلة ؛ وها هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه وحاول ان يقاوم ذلك الحب فلم يستطع ، فود أن يتزوجها

ولكن نجية لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل سميحة الأكبر منها سنا ، وأصرت على أن تكون سميحة لابراهيم ، وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ « على » الرجل الحكيم المتزن أن يثنى من حماقة زوجته فلم يصل إلى شيء . وجرحت كبرياء إبراهم إذ رفضت نجية أن « تعطيه » شوشو ، ولو « دفع لها وزنها ذهبا » . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات . وإن كانت فى الحق إمرأة لا تخلو من نبل وأصالة . ومرض إبراهيم بالأقصر ، وعاده الشيخ « على » والدكتور محمود . وشفى وغادرته ليلى ، وعاد هو إلى القاهرة . وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بابراهيم الذى لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئا .

هـذا كل ما نعلمه من حياة إبراهيم الكاتب ، ومع ذلك فباستطاعتنا أن نلتقط قسماته التى تجعل منه أنموذجا بشريا لا شك فى صدقه ، وذلك لأن تلك الأزمة النفسية كانت كالمحك الذى يكشف فى الزخام عن تجازيعه .

لقد استجاب طبع إبراهيم الكاتب لعدة أحداث ، ولهذا الطبع خصائصه التى كيفت تلك الاستجابات : نلمحه فى أول أزمته مريضا ، ونراه فى آخرها مريضا ، ولعله غذى ألمه أو رفه عنه أثناء مرضه بذلك الشعر الجميل المتشائم ، شعر الكتاب المقدس ، ألا تراه يستهل قصته باحدى آياته « كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن ... » بل ويستهل كل فصل من فصولها : « وكان مساء وكان صباح يوما واحدا » « إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان » ، ارجعى ! ارجعى يا شولميت ! ارجعى ! ارجعى فننظر إليك » ، « أيتها الجالسة فى الجنات ! الأصحاب يسمعون صوتك فاسمعينى .. الخ الخ ، مما يفوح حزنا رقيقا كم شعت به عبقريات منذ دانتى إلى ملتن وفنى .

لقد أشربت نفس إبراهيم الكاتب حكمة الكتاب المقدس التى تجنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما تتعلق به باطلا ، و « قبض الريح » . ألا تراه يسخر من جهد حياته ذاته فيحسبه « حصاد الهشيم » ؟ ولا يغرنك منه تلك الفلسفة ، فالحياة كالمرأة الجميلة كلما أعرضنا عنها اشتدت وراءنا طلبا ، وإن فى إعراضنا للهفة ، وإن فى استهانتنا الظاهرة لحرصا لصيقا بالقلب . انظر إلى نفس إبراهيم الكاتب تناجيه : « ولكنك عبد الحياة ، عبدها الباكى الشاكى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار الطلقاء وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تتلهى فى سجنك . لا بأس ! أرسل صوتك ليؤدى الصدى مقطعا . نعم ، غن وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود ، وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب .. لا أدرى ماذا أيضا ! ولكن ألا تسمح لى أن أسألك : ما وحى الأزاهير الذى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيجاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى » (ص ١٨٨) أو لا ترى فى تلك النجوى صراع روح تود لو استقلت بذاتها فتحاول أن ترفض الحياة ومغريات الحياة فلا تستطيع ؟ روح تهفو إلى أن يكون شعرها أغنية داخلية لا تستمد وحيها من أحد ولا من شىء ، كالزهر يرسل عطره ، والشجر يؤتى ثماره ، والينبوع يصدح خريره . وإنى لها بذلك وهى لم تر الحياة إلا سجينة ؟ .

ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها العضل حتى أصبح يحذرها فى يقظة مستمرة فلا يستجيب لندائها أو يحاط به . ماتت زوجته فلاحقته ذكراها سنين طويلة حتى أضنته ، وفى معاودة الذكرى وإلحاحها ما يضنى ، وثمة خواطر جرى بها لسان الشيخ على فأدهشتنى لأنها بابراهيم أليق ، وفى لفتات ذهنه أدخل ! قال : « متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب

له فى عمره ، وأن ما بقى من رحلته فى هـذه الدنيا أشبه بأن يكون وجودا منـه بأن يكون حياة — استمرارا ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيـه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه ... عرف المرء أن أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعـد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يظفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمـل أو طماح يخفـق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها ، تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ، وتتعرى زهراتها من أوراقها ، وتجف وتصفر وتتساقط على اليـد ، ويطيرها النسيم هنـا وها هنـا » (ص ١٦٤) . هـذه هواجس ما أظنها تخطر لرجل كالشيخ على ببال ، وذلك لأنه — فيماأعلم — يحيا الحياة ولا يفكر فيها ، وإنما هى فلسفة إبراهيم التى لا أدرى سر نسبتها إلى الشيخ على ، وفيها لوعة تحدثنا بأن سخرية إبراهيم وجفافه الارادى تعمية تنشرها الروح بحركة آليـة لتخفى ما فيها من حزن ومرارة . ولـكم من مرة نتسقط نجـوى إبراهيم القلبية فاذا هى : « إن السعادة لا تجتنى فى الحيـاة بأن يرد المـرء يده ، بل بأن يمدها إلى الثمـار ليجنيها » (ص ٢٨٦) . ولكن ألم نقبـل إن تحت الرماد نارا ، وإن فى تضاعيف السخرية شعرا ؟ !

إبراهيم الـكاتب نفس لا تزال تعـرف الحماسـة وتستشعر الشهوات . نفس حارة وإن بلبلتهـا المـرارة فسـخرت ! وكأنى بهـا تحن إلى أن تتعلق بشىء يملأ ما بهـا من فراغ يزيد هـويته ما انساقت إليـه من إعراض عن الحياة . نفس تود لو استغرقهـا شعور قوى . وهـذا ما نلمحه فى تعلقه بمارى وشـوشو وليلى ، على تفاوت فى النـوع والنسب . تعلق بمارى وقـد أضعف المرض من صلابة نفسه ، فسكن إلى رقتها وآخى الحزن بينهما ، وكلاهما لا يزال يذكر شريك حياته الراحل . ثم انعقد قلبه بحب شوشو ، وقد سحره منها تفتح قلبها البكر كما تفتح الزهرة لندى الصباح . وكان فى جرأة ليلى وقـوة نفسها ونضوج أنوثتها ما جذبه وأوشك

أن يعزيه عن شوشو بعض العزاء أو على الأقل أن يلهيه عن بعض ألمه . وإبراهيم نفس غنية كثيرة الحنايا .

إبراهيم الكاتب أنموذج بشرى لذلك النـــوع من النـــاس الذين يطول تفكيرهم فى أنفسهم وفى الحياة ثـم لا يهتـــدون إلى فهـــم يرتضونه ، فينتهى بهم الأمر إلى التـــجرد من أنفسهم ومن الحياة يضعونهما أمامهـــم ليحدقوا فيهما بنظـــرة ســـاخرة مؤثرة وإن لم يعدموا أن تثور بهـــم من حين إلى حين موجة تأتى من القـــاع ، فاذا بهـــم يزيدون ، وإذا بالابتســـامة تقطـــر مرارة وإذا بالسرور يتساقط من أطراف أصابعهم كالعرق البارد .

إبراهيم الكاتب شاعر . ولكم من مرة تتحرر نفسه من قيودها ، فيرى ما حوله من جمال الطبيعة يفطن لدقائقها « وكان ممـــا يرقه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء ، فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عمـــا دونها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين فى أجوازها المرعبة فلا تقطع منهـــا ســـوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا » .

والآن ترى أصحيح ما زعمه المـــازنى عنـــدما قال عن إبراهيم الكاتب : « ليس بيننا من تشابه ســـوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليـــه أنى أصبت بالعـــرج ، فليته كان هـــو المصـــاب وأنا الناجى المعافى ! » . وأنا بعـــد لا أدعى أن أزمة إبراهيم الـــكاتب قـــد اتفقت لابراهيم المـــازنى ، فهـــذا لا يعنينى ، ولـــكننى أحس بوشـــائج روحية بـــين الرجلين . أو لا ترى أن لنفسيهما لونا وأن لحياتهما فلسفة ؟ وكم تهزنى روحيهما اللطيفة النافذة ! !

فيليسيتيه
Félicité

فيليسيتيه بطلة لقصة صغيرة للروائى الفرنسى الكبير فلوبير عنوانها « قلب ساذج » كتبها المؤلف سنة ١٨٧٧ ، ونشرها مع قصتين أخريين بعنوان « ثلاث أقاصيص » .

فى عنوان القصة وفى اسم البطلة ما يشخص هذا الأنموذج المؤثر . ولو أنك طلبت إلى أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حقى لما وجدت خيرا من « أم السعد » فإننا نحس فى هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

فيليسيتيه خادمة من خدم الريف : عقل محدود ، وقلب رحب . وعن هذه المفارقة يشع نبل حياتها المتواضعة الحزينة . فلقد تراها تأتى من أعمال البطولة ما يتحدث به الناس كافة إلا هى ، وذلك لأنها لا تدرى ما البطولة ، بل ولا تفكر فيما تأتى . مثلها مثل كلب أمين ، لأن الأمانة من طبعه ، يقاتل دون سيده ولقد يمسه الأذى ويعود من المعركة لا يذكر إلا ما به من جراح يحييها أمله . ولقد تنزل بها المحن فتألم حتى لتطرح نفسها على الأرض صارخة معولة ، ولكنه ألم غفل لا أثر فيه لذكيات العقل الذى ما يزال يلوك بلوانا حتى يجعل من التوافه جلائل الأمور . فيليسيتيه مثل حى لملايين البشر الذين لم تفسد الحياة العقلية طبائعهم فتركتها كما هى بما تحمل من عظمة وبؤس . وإنك لتستعرض حياتها فلا تقع على فكرة ولا تقف عند رأى ، وإنما هى سلسلة من الوقائع لا تخلف بنفس خادمتنا المسكينة غير الاحساس ، وأما التفكير فى معنى تلك الوقائع فذلك ما لا تعرفه . فيليسيتيه تحيا الحياة دون أن تفكر فيها ، ولكم تذكرنى حياتها بقول المسيحية : « انس نفسك كى لا تعوق موسيقاها » .

كان وجهها نحيلا وصوتها حادا . فى الخامسة والعشرين كانت تلوح فى الأربعين ، وعند ما وصلت إلى الخمسين لم تعد تنم عن

أي سن . كنت تراها صامتة دائما ، منصوبة القـد متزنة الحركات فتحسبها امرأة من خشب تعمل بحركة آليـة . فى كل الفصول كانت تلبس منديلا هنديا تشجبه بدبوس إلى ظهرها ، و « بيريه » تخبىء شعـرها ، وجوارب رمادية ، ثم « جسونلة » قميصهـا « مريلة » كممرضات المستشفى .

ولقـد كانت لها حكاية غرام كغيرها من النساء . كان أبوها بنـاء قتـل فى سقطة من « السقالة » ثم ماتت أمهـا وتشتت إخوتها ، فآواها رجل فى عزبته واستخدمها صغيرة فى حراسة البقر بالحقل ، حيث كانت ترتعد من البرد تحت أسمالها ، وتشرب المـاء من البرك مطروحة على بطنها ، ثم تضرب لأوهى الأسباب ، وأخـيرا طردت لسرقة فرنك ونصف لم تكن هى سارقته . والتحقت بعزبة أخـرى عملت فيهـا كحارس « لحوشة الدجاج » ، ولكن زملاءها أخـذوا يحسدونها لأنها أعجبت أسيادها .

وفى مساء أحـد أيام أغسطس (وهى عندئذ فى الثامنة عشرة) قادها زملاؤها إلى عيـد كولفيل ، وإذا بلبها يطير لضوضاء لاعبى القيثارة وللأضـواء المثبتة فى الأشجار . ولألوان الملابس الزاهية ، للدنتلا والصلبان الذهبية وتلك الـكتلة البشرية التى تقفز راقصـة دفعـة واحدة . هنـالك انتحت فى تواضع ركنا ، وإذا بشاب ثرى المظهر يدخن البيبة وهو متكىء بمرفقيه على مجر عربة صغيرة — يأتى يدعوها إلى الرقص ثم يقـدم لهـا كوبا من عصير التفاح المخمر ، وفنجانا من القهوة وقطعة من الفطير ، ويشترى لهـا « كوفية » ، وكأنه أحس برغبة نفسها فعرض عليهـا أن يصطحبها إلى منزلها . ولكنه أثناء الطريق طرحها بوحشية على حافة حقـل من الشوفان ، فتملكها الرعب وأخذت تصيح وإذا بالفتى يغادرها مسرعا .

وفى مساء آخر وهى فى طريق « بومون » أرادت أن تسـبق عربة محملة بالشـوفان كانت تسـير أمامهـا فى بطء ، وبينما هى تمـر ملامسة عجلات العـربة لمحت « تيـودور » الذى تقـدم نحـوها

فى مظهر هادىء طالبا إليها أن تغتفر ما كان لأن الخطأ لم يكن منه وإنما كان من الشراب ، فلم تعرف بم تجيب وإن أحست برغبة قوية فى الهرب ، ولفوره أخذ يتحدث عن المحصول وعن أعيان الناحية ، لأن أباه كان قد ترك كولفيل وذهب إلى عزبة « الأيكو » ، وبذلك أصبحا جيرانا ، أجابت : « آه ! » وأضاف أنهم يريدون منه أن يستقر وإن لم يكن هو فى عجلة وكان يفضل أن ينتظر حتى يعثر بامرأة على هواه ، فطأطأت رأسها • وسألها • هل تفكر فى الزواج فابتسمت قائلة : « إنه ليس من الخير السخرية من الناس » « كلا ! أقسم لك » • وبذراعه الأيسر طرق خصرها فسارت مستندة إلى ضمنه وتباطأت خطاهما • لقد كانت الريح رخوة والنجوم تلمع ، وحمل الشوفان الضخم يترنح أمامها على العربة ، والخيل الاربعة تجر أرجلها مثيرة التراب ، وعرجت الخيل إلى اليمين دون أن تؤمر ، وقبلها مرة أخرى ثم اختفت فى الظلال •

فى الأسبوع التالى حصل منها تيودور على موعد والتقيا بأقصى « الحوش » خلف حائط تحت شجرة منعزلة • إنها لم تكن فى سذاجة الآنسات ، إذ كانت الحيوانات قد علمتها ، ولكن العقل وغريزة الشرف منعاها من أن تسقط • وكان فى مقاومتها ما هيج حب تيودور حتى اضطر لكي يرضى ذلك الحب أو ••• لسذاجته أن يعرض عليها الزواج ، فترددت أن تصدقه ، ولكنه أقسم أغلظ الايمان • وبعد أيام اعترف لها بشىء معرقل ، ذلك أن أهله كانوا فى العام الماضى قد اشتروا له رجلا يذهب بدلا منه إلى الجندية ولكنه لا يأمن أن يطلب من يوم إلى الآخر ، وكان فى هذه الفكرة ما يخيفه ، ورأت فيليستيه فى هذا الجبن مظهرا من مظاهر الرقة نحوها ، فزادت رقتها نحوه • وأفلتت فى الليل لتأتى للموعد وإذا بتيودور يعذبها بقلقه وإلحاحه ، وأخيرا أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى مقر العمدة ليسأل عن الاجراءات ويأتيها بالأخبار يوم الأحد المقبل بين الساعة الحادية عشرة والظهر •

وعنـدما حانت تلك الساعة أسرعت فيليستيه إلى الموعـد . ولكنها وجدت مكانه أحـد أصدقائه ، وأخبرها ذلك الصديق أنهـا لن ترى تيودور بعـد اليـوم ، لأنه كى يأمن التجنيـد قـد تزوج بامرأة عجوز عظيمة الثراء هى مدام « ليهوسيه » من قرية « توك » .

لقـد كان ألمهـا ألمـا مضطربا لا نظام فيـه . ألقت بنفسهـا على الأرض وأطلقت صيحاتهـا ، ونادت اللـه الرحيم ، وأنت وحيـدة فى الحقـل طـول الليـل ، حتى إذا طلعت الشمس عادت إلى العـزبة وأعلنت رغبتهـا فى الرحيـل . وبعـد شهر أخـذت حسابها ، ثم لفت كل متاعها فى منديل وذهبت إلى « بون لفك » .

هنـا لك أمام الفندق عثرت باحـدى نسـاء الأعيـان : امرأة فى ثوب الحداد اتفـق أن كانت تبحث عن طباخة ، ولم يـكن يلوح على الفتاة أنهـا تعرف شيئا ، ولـكن مظهـر الاسـتعداد الطيب والتسامح فى أجرها كان باديا عليهـا ، حتى إن مدام أوبان انتهت بأن قالت لها سآخذك عنـدى ، وبعـد ربع ساعة كانت فيليسيتيه عنـد مدام أوبان .

ومكثت فيليستيه نصف قـرن عنـد مدام أوبان ، وكانت نسـاء أعيـان بون لفك يحسدنها من أجـل تلك الخادمة التى كانت تطبخ وتنظف المنزل وتخيط وتغسل وتـكوى ، كما كانت تعرف كيف تلجم الحصـان وتضرب الزبد و « وتظغط » الطيور ، كل هـذا مقـابل مائة فرنك فى العام ، وفوق ذلك كله وفيـة لسيدتها مـع أنهـا لم تكن سيدة طيبة .

كانت تستيقظ منـذ الفجر حتى لا تفوتهـا الصلاة فى الكنيسة ، وكانت تعمـل حتى المساء دون انقطاع ، حتى إذا انتهى العشـاء وأعادت الأطباق المغسولة إلى مواضعها ، دفنت الخشب تحت الرماد داخل المدفأة ونامت أمامها ومسبحتها بيدها ، ثم إنهـا فى مساومة الباعة لم يكن أحـد أشـد منهـا عنـادا ، أما عن النظافة فقـد كان بريق أوانيها مصـدر يأس للخادمات الأخـريات . ولحرصها على الاقتصـاد كانت تأكل فى بطء ، وتلم بأصابعهـا فتـات الخبز

الذي يتساقط على المـائدة ، ذلك الخبز السميك الذى كان يصـنع لهـا خاصة ، كـل رغيف اثنـا عشر رطلا تأكل منـه عشرين يوما كاملا .

أما مـدام أوبان فكانت أيما ، إذ أنهـا تزوجت صـغيرة بشاب جميل رزقت منـه بولد هو بول وببنت هى فرجينيا . ثم مات زوجها فعاشت الأيم بعـده عشرات السنين وذكرى ذلك الزوج تحلق موق كـل شيء ، فالصالون مسجى بالحداد وقـد أغلقته إلى الأبـد ، والبيان متروك بالصالة ومن فـوقه أعمـدة من صـناديق الورق ، وصـورة « المرحوم » بالحائط تشرف على الجميع . وكان مجلسها باستمرار فوق كرسى من القش وضعته أمام المدفاة التى كانت ترى على جانبها مقعدين آخرين من القماش لا يغادران موضعهما . وفى المنزل كله رائحة تشبه العفونة تقطر حزنا .

وتتابعت السنون والأيام متشابهة إلا أن تـكون أيام الأعياد . وكانت مدام أوبان لا تؤرخ تلك السنين إلا بحوادث حياتها الداخلية التافهة ، ففى عام كـذا أحضرت عاملا أعاد طلاء الصالة ، وفى عام كـذا سقط جـزء من سقف الحوش فـكاد يقتل رجلا ، وبعـد ذلك بسنين ماتت إحـدى صديقاتها أو انتقـل أحـد معارفها إلى بلدة أخـرى .

ومـع ذلك فقـد جـدت حـوادث أعظم من كـل ذلك خطرا . ففى ذات يوم قصدت مدام أوبان وابنها وبنتهـا ومعهـم فيليسيتيه إلى إحـدى عزبتيها ، وكان اليـوم كثير الضباب ، وإذا بثور هائج يغير عليهم ، ولولا خادمتهم الشجاعة لافترسهم ، وذلك أنها أخذت تتناول قطـع الطمى والأعشـاب تلقيها فى وجه الثـور متراجعة بظهـرها حتى شغلته إلى أن تمكن أسيادها من النجـاة . وأخـيرا وصلت إلى سياج والثـور يطاردها ، وبحسن توفيـق تسللت بين قضبان السياج فلم تصبها قرون الثور الذى أوشك أن يقـد بطنها . وبهـذا اليوم تحادث جميع النـاس ، وأما هى فلم يخطر ببالهـا أنها قـد أتت عملا نبيلا . وكان من أثر الخـوف الذى نزل بهـم جميعا أن مرضت فرجينيا بأعصابها ، ولم يزل الداء يلح عليهـا حتى

ماتت فكان حزن فيليسيتيه لموتهـا لا يقل عن حزن أمهـا ، وذلك لأنهـا كانت لا تزال تذكر تلك الأيام التى كانت تحمل فيها فرجينيا وبول على ظهرها كأنهـا حصان . ولئن كانت الخادمة المسكينة قد وجدت شيئا من العزاء ، فان ذلك لم يكن إلا فى الخصلة التى أخذتها من شعر الميتة واحتفظت بها فى صدرها .

وتكالبت المحن على فيليسيتيه ، إذ أنهـا لم تـكد تهتـدى إلى مكان إحـدى أخوتهـا وتتعرف إلى ابن أختهـا فـكتور الذى كان يافعا جميلا حتى سافر المسكين فى رحلة بحـرية مـع السفينة التى كان يعمل بهـا بحارا . وكان سفرا مشئوما ، إذ لم يعـد منـه . ولكم سألت فيليسيتيه عن تلك الجزر النائية التى قصـد إليهـا ، ولقـد أروها فعلا جزيرة هافانا على الخريطة ، ولـكنها لم تقتنـع بذلك بل ودت أن لو أروها — على الخريطة أيضـا — المنزل الذى سيسكنه فـكتور عنـد وصـوله ! ولـكم كان حزنها مرا عنـدما علمت بوفاته .

وكانت فيليسيتيه صادقة الايمـان بالدين إيمانا ساذجا . كم من مرة ذهبت لتعترف بخطاياها ، واللـه يعلم أنهـا كانت خطايا هينة لا يحمر لهـا وجه عذراء . وأخذ خيالها الفطرى يرى مظاهر اللـه فى كـل شيء . كانت تستمع إلى القسيس يتحدث عن اللـه فتـود لو تصورت شخصه ، ولـكنها لا تصـل إلى ما تريد ، فهـو أحيانا طائر وأحيـانا قبس من النـور ، وأحيـانا نسمة من الريح . ومن يدريها لعله الضوء الذى يهفو فى الليـل على حافة الغدران أو الريح التى تسوق السحب ، ولعل صـوته هو الذى يتردد فى النواقيس نغمات منسجمة . بل لقـد أحبت كل حمل بسبب الحمل المقـدس ، وكل حمامة بسبب روح القدس .

وكان لروح القدس فى نفسها أثر عجيب ، ولذلك حـكاية تستحق أن تروى .

فقـد حـدث أن إحـدى صديقات مدام أوبان أهـدت إليهـا ببغاء ، ولم تـدر السيدة ماذا تفعـل به ، فتركته لفيليسيتيه التى

تعلقت به تعلقا شـديدا ، وبعلاقة سـاذجة جمعت بين محبتها للـه ومحبتها لذلك الطائر . أو ما يشبه الحمامة : رمز الروح المقـدسة ؟ وازداد إحساسها هـذا تجسما عندما مات الببغاء وحنطته محتفظة به فى حجرتهـا ، وانتهى بهـا الأمر إلى أن أصبحت تعبـد اللـه جاثية أمامه !

وماتت مـدام أوبان « فتساءلت فيليسيتيه ، كيف يجوز أن تموت سيدتها قبلهـا ! وكان بول قـد تزوج ، فأتت زوجتـه لتأخـذ من الأثاث ما يصلح البيع ، ولـكم كان حزن فيليسيتيه عميقا عنـدما رأت زوجة الابن تنثر ملابس فرجينيا التى احتفظت بها مدام أوبان فى (الدولاب) كآثار مقدسة . وكانت الخادمة المسكينة قـد ترفق بهـا القضاء فأصابها الصمم وفقدت بصرها فلم تسمع ولم تر شيئا مما قيـل أو فعـل ، إلا القليل الذى أدركتـه بالحدس . وكانت سيدتها قـد وقفت عليها معاشا صغيرا استطاعت أن تقتات به أياما قليلة ، إلى أن وافاها أجلها ، وكان ذلك فى يـوم عيـد دينى ، فلم تحزن فيليستيه لمغادرة الحياة قدر حزنها لعدم استطاعتها المشاركة فى ذلك العيد الذى طالمـا فرحت بقدومه .

هـذه حياة فيليستيه : حياة حزينة مؤثرة ، حيـاة محبة وإيثار . لقـد أحبت بول وفرجينيا طفلين ، ولم يكن يحز فى قلبها شىء مثل حظر مدام أوبان عليهـا أن تقبلهما فى كل حـين . ومن قبـل أحبت تيودور وحسبت أنهـا ستتزوج كغيرها من الفتيات فخانها تيـودور وخانتها الأيام . ومن بعـد فـرحت بفـكتور وبنفسهـا حسرة ، إذ لم تستطع أن ترى منزله على الخريطة بتلك الجزر النائيـة التى أبحر إليهـا ة ولـكنها قـد وجـدت فى محبتها للـه عزاء عن كـل المحن وما عليها أن تـرى اللـه فى طائر أو فى مظاهر الوجـود ، واللـه روح بـكل مكان وكل نفس . ولربمـا كان هـذا التجسيم الساذج سببا فى قوة إيمانها ، ولعـل اللـه قـد تقبلهـا قبـولا حسنا فقـد كانت حياتها بطولة صامتـة ، بطولة عظيمة لأنها تجهل نفسهـا .

الأستاذ بتـلان

Maître Pathelin

الأستاذ بتلان بطل مهزلة «Farce» ظهـرت بفرنسا فى أواخر القـرون الوسطى سنة ١٤٦٠ م • ونشرت سنة ١٤٨٠ • وأما مؤلفها فقـد تضاربت بشأنه الآراء : فمن قائل إنه « فرانسوا فيـون » F. Villon ، ومن قائل إنه جيـوم دى لوريس Guillaume de Lorris ومن قائل إنه أنتوان دى لاســال Antoine de La Salle ، ومن قائل إنه بيير بلانشيه Pierre Blanchet ، ولـكنها كلها فروض لا تفيد يقينـا بحيث يصـبح من الخير أن نعترف بأننـا لا نعـرف ذلك المؤلف •

ولقـد لاقت تلك المهزلة نجاحا عظيما عنـد ظهـورها ، فمثلت مرات كثـيرة ، وإلى اليوم لا تزال تمثل فى الجامعات الفرنســية ، ولا تزال تقـرأ رغم صعوبة لغتها القـديمة ، التى تختلف اختلافا محسوسا عن اللغـة الفرنسية الجديثة • ولمـا كانت تدرس بكافة المعاهد الفرنسية ، فإن بطلها قـد أصبح فى شهرة أكبر الشخصيات الروائية فما من فرنسى يجهـل الأستــاذ « بتلان » بل قل أن يجهله أوربى مثقف •

ولا أدل على نجاح الأستاذ بتلان من أن يصبح اسمه من مفـردات اللغة الفرنسية ، فيوصف الرجل بأنه « بتلان » C'est un Pathelin أى « ماكر » • ومن الاسم اشتق فعل كما اشتق مصـدر ، فيقال Patheliner (يبتلن) • كمـا يقال Pathelinage « بتلنـة » بمعنى : « يمكر » و « مكر » •

« الأستاذ بتلان » المحامى أنموذج خالد للمكر الذى يعـرف من أين تؤكل الكتف ، والمكر ليس ملكة مستقلة وإنما هو وليـد لمركب عجيب من قـوى النفس • المكر ذكاء ينفـذ إلى النفوس فيعـرف مواطن الضعف فيها ، وإلى تلك المواضـع يتسلل فيختلس الثقـة ، والمكر إحساس باطنى بالنسب ، إحساس يقف بصاحبه عنـد طاقة

الغير يعالجها برفق حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يعي ما يفعل ، والمكر أخيرا قدرة على تصريف القول ، وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ • وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يغني عنه سلاح آخر للنجاح في الحياة • صفة لازمة لا لرجال العمل فحسب ، بل لرجال الفكر أيضا ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، وتذليل تلك النفوس • وإذن فالمكر ليس شرا في ذاته ، وإنما يصبح شرا إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود •

ومع هذا فالأستاذ بتلان مثل للمكر السيء الذي يحيق بصاحبه ، فهو لا يستخدم دهاءه للوصول إلى حق يرد عنه حمق البشر أو شرهم ، بل يستخدمه في اختلاس مال غيره أو تضييع حقوقهم •

نراه في أول المسرحية وكأن الملل قد أخذ بملكاته فغفت فأتته امرأته « جيمت Guillemette » تستنهضه بصوتها الحاد كالصرير : « يا صلاة النبي ! لا قشة بالدار ! سيفنينا القحط ! لقد تآكلت ملابسنا حتى لم تعد إلا أسمالا ، وما تدري كيف السبيل إلى تعويضها • إيه ! قل لي ماذا أفدنا من علمائك ؟ ! » وما أن حركت « جيمت » كبرياء الأستاذ — إذ تحدثت من علمه — حتى استيقظ من سنته صائحا بها « اخرسي ! وذمتي لو أنني أردت أن أستخدم ذكائي لعرفت أين نجد ما نريد من ثياب وقبعات • وبعون الله سنفلت من الضيق ونرتفع لساعتنا • نعم من دقيقة إلى أخرى يأتي الله بالفرج • وعندما آخذ في استغلال مهارتي لن ترى لي مثيلا» • وانطلق بتلان إلى السوق يتحسس فرائسه ، وإذا به أمام حانوت السيد جيوم جيوكوم Maitre Guillaume Jocaume بائع الأقمشة المشهور بالحذر والبخل • والأستاذ بتلان رجل معتز بملكاته ولهذا يروقه أن يستغفل السيد جيوم ، فيرضي في نفسه كبرياء الفنان الذي يهزه التغلب على الصعوبات الحقيقية •

وسبيل بتلان إلى ما يريد هو ما ذكرت من فن المسكر • عليه أن يختلس ثقة السيد جيوم • وهو لا يخترع شيئا ، وإنما يستخدم الطريقة التى يحذقها حتى اليوم ملايين البشر : « آه ! إننى مسرور برؤيتك يا سيد جيوم ! كيف حالك ؟ هيا ! إعطنى يدك ، لعلك فى صحة طيبة ، والتجارة كيف حالها ؟ ••• الخ » وأحس الأستاذ بتلان أنه قد أخذ يصل إلى نفس السيد ، فأوغل فى غزوه ، وتحدث إليه عن والده : « آه ! لقد كان والدك يا سيد جيوم رجلا طيبا • كان تاجرا ماهرا • كم من مرة حدثنى متنبئا بما نرى اليوم » • وسكن السيد جيوم الى الأستاذ بتلان ، إذ تحركت نفسه وقد رأى رجلا من رفاق أبيه القدماء ، فطلب أن يجلس ، وكان هذا أول نصر أحرزه الأستاذ •

جلس بتلان ووجهه يتهلل سخرية ، وحدق فى وجه السيد جيوم ثم قال : « يا لله ! إننى ما رأيت قط ابنا يشبه أباه إلى هذا الحد ! العينان والأنف والفم كلها من المرحوم • وعرض الذقن ، حقا إنك هو بقضه وقضيضه : يا للعجب ! كيف تخلق الطبيعة وجهين متشابهين هذا التشابه التام ؟ ! ، ومر بتلان من الحديث عن أبى جيوم إلى الحديث عن عمته لورانس ، ملاحظا أنه يشبهها أيضا بجسمه • وعاد من العمة إلى الأب ، الأب ، الهمام ، الخبير بأسرار التجارة • لقد كان — رحمة الله — لا يتردد فى أن يقرض ماله من يريد وأحس بتلان أن أقواله قد أحدثت أثرها ، وذلك لما لاحظه من أن السيد جيوم قد نام حذره فأخذ يبتسم ويتلطف ، وهنا رأى الأستاذ أن الوقت قد حان ليخطو خطوة جديدة • وبحركة شبه آلية طرح يده على ثوب من القماش ونظر إلى التوب ، فقطع عليه الإعجاب سلسلة الحديث : « آه ما أجمله قماشا ! لينا ، رقيقا ، مخملا » • وفى سرعة خاطفة وجه الحديث وجهة أخرى ، ولكن السيد جيوم تاجر ، ولقد أيقظت كلمات بتلان العابرة غريزة الكسب فى نفسه ، فعاد هو بالحديث إلى القماش ، وتظاهر الأستاذ بتلان بالسذاجة حتى أوهم الرجل بأنه سينجح فى إغرائه بالشراء •

« آه ! حقا . لقد أغريتني » . والواقع أنه لم يكن في عزمي أن أشتري قماشا في هذا العيد ، ولذلك وضعت قبل مغادرة المنزل ثمانين جنيها في الخزانة لأدفعها تسوية لمعاشي مدى الحياة . ولكن يظهر أنك ستأخذ منها عشرين أو ثلاثين . ذلك ما يبدو لي ، فاللون قد أعجبني إعجابا خالصا حتى ليؤلمني أن نحرم من قماش كهذا » .

بذلك تهيأت الصفقة ، ولم يبق إلا الاتفاق على الثمن ودفعه ، وهنا تظهر مهارة بتلان فهو يأبى إلا أن يدعو السيد جيوم ، بعد أن اتضح ما بينهما من معرفة قديمة ، إلى تناول الغداء معه ، وبخاصة لأن مدام بتلان في ذلك اليوم كانت تشوي إوزة سمينة وقد أعدت إلى جوارها النبيذ الجيد المعتق ، وتكون هذه فرصة مواتية يوثق فيها الود مع بتلان ، ثم يأخذ جنيهاته ويعود إلى حانوته مشكورا . وأغرت الأوزة ، وأغرى النبيذ السيد جيوم ، فوافق على أن يحمل القماش وقت الغداء ويأتي إلى منزل بتلان . ولكن الأستاذ لا يريد هذا الحل ، ولا بد له من أن يعود إلى زوجته بالقماش ، وإذن فلا بد من حيلة جديدة يتم بها ما أبداه . والأمر سهل ، فهو لا يقبل ان يحمل السيد جيوم ثوب القماش تحت إبطه ، بل سيحمله هو ، وبذلك يوفر على السيد جيوم — ابن ذلك الذي تشرف بمعرفته منذ سنين — مشقة حمله . ولكن جيوم يأبى هذا الحل ، ويلح في أن يحمله هو ، فينتفض بتلان رافضا رفضا باتا أن يتحمل جيوم كل هذه المشقة من أجله ، ثم يزج باسم المرحوم في الحديث من جديد ، ذاكرا ما كان بينهما من ود وتزاور . ويتورط جيوم ، فلا يرى بدا من التسليم للأستاذ بما يريد . ويأخذ بتلان القماش ويعود إلى منزله بعد أن تواعدا على المائدة .

إلى هنا نجح الأستاذ بتلان في النصب ، فأخذ القماش دون أن يدفع قرشا واحدا ، وكان سر نجاحه في علاجه لنفسية جيوم :

فقد عرف كيف يحادثه فيما يهمه وكيف يتدرج فى ذلك الحديث كلما ازداد الخصم إقبالا واستنامة ، وقد حرص على أن يكون حديثه دائما أبعد ما يكون عما يريد ، وكأنه حديث برىء ، فهو لم يذكر القماش إلا عرضا وكأنها المصادفة البحتة ، ثم وجه الحديث وجهة أخرى ، وعندما عاد إليه تظاهر بأن الخصم هو الذى يقوده ويغريه وهو يكبت رغبته الخفية ، حتى لكأن الصفقة فى مصلحة الخصم وما صاحبنا إلا فريسة . وفى النهاية « يكلفت » السيد جيوم ، كما يقول العوام ، فى فيض من الأقوال المعسولة التى تورط الرجل . وتلك لا ريب مهارة دقيقة ، فيها مزيج من التملق النبق ، ومن التظاهر بالسذاجة ، كما أن فيها فطنة إلى أهواء الخصم واتجاهات نفسه ، ومواضع ضعفه ، واستغلال لكل ذلك على نحو لا يكاد يلحظ .

ولكن جيوم سيلاحق أستاذنا بمنزله ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟

هنا تنكشف نفس بتلان عن قوى جديدة ، أخصها الجرأة الصفيقة . فهو يتفق مع زوجته على أن يتصنع المرض ، وأن يدعى أنه مريض منذ أسبوع ، لم يغادر خلاله الفراش قط ، وأن يلعبا الدور معا بحيث يوهمان المسكين جيوم أن قصة القماش ، والجنيهات والأوزة والنبيذ ، وما إليها ليست إلا هذيان محموم . وفعلا يرقد بتلان فى السرير وما يكاد جيوم يدق على الباب حتى تخف إليه « جيمت » على اطراف اصابعها واضعة سبابتها على فمها ليصمت جيوم ، ولا يرفع صوته فيزعج المريض . ويجرى حوار مضحك بين جيوم وجيمت يطالب فيه الرجل بالقماش أو النقود ، فتدعى جيمت الغفلة وكأنها لا تفهم شيئا مما تسمع ، وهمها الشاغل مرض زوجها ، وقلقها الشديد على حياته ، وقد يئس الطبيب من شفائه . ويطول الجدال فيصيح بتلان من فراشه : « جيمت ! جيمت ! قليلا من ماء الورد ، ارفعينى ! دثرينى ! حككى مسطح قدمى » ، وتدخل جيمت إلى المريض فيتبعها جيوم ،

ويطالب الرجل بدينه ، بينما بتلان يخاطبه كأنه الطبيب المداوى ، فيحدثه عن أثر الدواء الأخير وعن أرقه وأحلامه المزعجة • ويثور جيوم فيزداد صوته ارتفاعا وهنا تقرر جيمت إخراجه ، وتعنفه أشد تعنيف لاقلاقه المريض ، وتطلب إليه الانسحاب حتى لا يأتى الأطباء فيجدونه ، فيظنون أنه قد أتى من أجلها • وعندئذ لا يرى السيد جيوم بدا من التراجع ، وقد أخذت الشكوك تساوره حتى أوشك أن يظن أنه مخبول وأنه فى حلم يقظة فقرر أن يعود إلى حانوته ليقيس ثوب القماش كاملا ، ويتأكد من أنه قطع منه ستة أذرع •

انسحب إذن جيوم ليعود إلى حانوته يختبر بضاعته ، ثم لم يلبث أن عاد • ولكن بتلان لم يكن بالرجل الذى تنفذ حيله • عاد جيوم يهدد باحضار البوليس إن لم يرد إليه القماش أو يعطى جنيهاته ، فاضطربت جيمت ، وأما الأستاذ فقد كان أثبت من ذلك قلبا ، فأخذ يهذى بكل اللهجات الفرنسية ، حتى إذا استنفذها هذى باللاتينية ، وسخر من جيوم فى تلك اللغة التى يجهلها بائع القماش • وينجح الأستاذ فى تمثيل الدور نجاحا ينسى معه جيوم قماشه ولا يعود يذكر إلا أنه فى حجرة رجل يحتضر • وهنا يأخذه الخوف حتى ليبدو له أن ما حدث ليس إلا ألعوبة من ألاعيب الشيطان الذى تنكر فى هيئة بتلان ليسلبه قماشه ، وإذ وصل إلى هذا الاحساس لم ير خيرا من أن ينسحب فى سلام •

بهذه الخاتمة كان من الممكن أن تنتهى القصة : فالسيد جيوم قد استجار الله وآمن بأن الشيطان هو الذى أخذ قماشه ، ولقد رسم الصليب على جبهته وجانبى صدره ، ثم هم بالعودة إلى منزله مستعيذا من الشيطان الرجيم • ولكن القصة فيما يظهر كانت شعبية الأصل ، والشعب يعلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، وبذلك جرت حكمته المأثورة منذ آلاف السنين • وإذن فلا بد للقصة من خاتمة أخرى ينال فيها بتلان جزاءه • ومن ثم

تصــور المؤلف حادثة أخرى من الممكن أن تــكون قصة بذاتهــا ، واتخذ منها خاتمة لقصة بتلان وجزاء لمكره السيء •

وذلك أن جيــوم لم يكد يغــادر البــاب حتى وجــد نفسه أمام راعى غنمه توما الحميل « مصغر حمــل » ، وكان توما هو الآخــر راعيــا ماكرا ، كم من مرة ذبح خراف جيــوم ثم ادعى أنهــا قــد ماتت بالحمى ، ولكن السيد جيــوم قــد أخــذه فى المرة الأخــيرة متلبسا بجريمته ، وها هو الحميل يأتى إلى الأستــاذ بتلان ليــوكله فى الدفاع عنــه أمام القضاء • ونظــر الأستاذ فأحس أن القضية صعبة ، ولكن انتصاره على جيــوم أغراه بانتصار جــديد ، فقبــل الوكالة • وكانت خطة دفاعه بالغــة البساطة ، فقــد اتفــق مــع الحميل على أن يلعب راعينــا دور الأبله ، فيجيب على كافة الأسئلة التى توجه إليــه بجواب واحــد هــو : « بآ » كحميــل حقيقى ، وهــذا ما كان • فقد تقــدم الخصمان إلى المحكمة ، وكان القاضى لا يخلو من بله ، وتقــدم الأستاذ بتلان كمدافع عن الحميل ، ولكن جيــوم لم يكد يرى الأستاذ حتى جن جنــونه • فقــد تركه لتــوه مريضا بمنزله ، وها هو الآن فى ســاحة القضاء ! واحتــدم الغيظ فى نفس الرجل فنسى دعــوى الغنم ، وأخــذ يهاجم بتلان مطالبا إياه بالقماش أو الجنيهات ، والقاضى لا يفهــم شيئا مما يسمع ، فالقضية قضية غنم ، والغنم لا ذكر لهــا ، والحميل لا يجيب بغــير « بآ » واستمر السيد جيوم يقفز من الغنم إلى القماش ، ثم يعود إلى الغنم ، حتى ضــجر القاضى ، وتهيأت لبتلان الفرصــة ليطلب من قاضينا المبجل إلزام جيــوم الصمت ، وإطلاق سراح الراعى ، والحــكم على المــدعى بالمصاريف ، وهــذا ما كان • بل لقــد بلغ الأمر ببتلان أن نال ثقــة القاضى نفسه ، فدعاه حضرته إلى تنــاول الغداء معــه • وهنــا يطير عقــل جيــوم ، فيسرع إلى بيت بتلان ليتأكد من أن الشيطان لم يخدعه ثانيا ، وليستوثق من أن بتلان قــد غادر منزله ، وذهب حقيقة إلى المحكمة •

على هــذا النحو يكون المــكر قــد انتصر مرة أخــرى ، وبذلك تظل غريزة العــدل غير راضــية • والشعب حريص على العــدل

حتى فى مهازل المسرح . ومع ذلك فها هو ذا الحميل يهم بمغادرة المحكمة ، وهو يتوثب سرورا بعد أن فاه بآخر « بآ » وها هو ذا بتلان قد كسب القاضى والقضية ، فأين إذن عقاب المكر الخبيث ؟ !

لقد تلقى بتلان عقابه من الحميل ، وذلك لأنه لم يكد يوقفه بباب المحكمة طالبا إليه أجر الدفاع حتى أجابه حميلنا بـ « بآ » . وعبثا حاول الأستاذ أن يقنع الحميل بأنه لم يعد فى حاجة إلى « بآ » وأن القضية قد انتهت ، وأنه يود الانصراف إلى منزله . ويعود يطلب أجره ، فلا يجيب الحميل بغير « بآ » حتى انتهى الأمر بأن يئس بتلان نفسه ، بتلان الذى عبث بجيوم وبالقاضى ، ثم ها هو الحميل يعبث به بدوره . وافترق الرجلان ، وقد تعلم بتلان درسا صفق له الشعب أشد التصفيق ، إذ وجد الماكر من يمكر به ، وقد تلخص مكر الحميل فى كلمة واحدة ألقت بأسلحة بتلان كلها إلى الأرض .

هذه هى قصة الأستاذ بتلان الذى أصبح مضرب الأمثال فى الدهاء ، وأجزاؤها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة ، فبتلان الذى نلقاه فى الحياة فنشقى به ، هو بتلان الذى عرف كيف يحتال فيكسب ثقة السيد جيوم ويأخذ منه القماش . هذا الجزء من القصة لا نبالغ إذا قلنا إنه يتجدد عشرات المرات فى اليوم الواحد فى بقاع الأرض كافة . وأما الأحداث التالية ، كتمارض الأستاذ ورطانته بمختلف اللهجات ، وانتهاء الأمر بجيوم إلى الايمان برجس الشيطان ، وحادثة الحميل « بآ » فمواقف مسرحية تثير الضحك ولكنها لا تكشف من أسرار الحياة شيئا وهى أشبه ما تكون بمهازل مسارحنا . ونحن بعد لا نذيع سرا إذا قلنا إننا محاطون من كل جانب بأنواع من بتلان ، وأما جيوم فأكبر الظن أنه موجود هو الآخر ، وكل ما نخشاه هو ألا نجد « الحميل » . ورحم الله من قال :

« إنى لست بخب ولكن الخب لا يخدعنى » .

راستنياك

Rastignac

إيوجين دى راستنياك ، شخصية روائيــة ضخمة من شخصيات أونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) الــكاتب الفرنسى الشهير . وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الــكثير من القــراء ، وذلك لأن بلزاك قــد تحدث عنـــه فى عــدد كبــير من رواياته ، حتى لنحسبه قــد بلغ من نباهة الذكر ما بلغــه كبار رجال التاريخ . لقــد ملأ راستنياك « الكوميديا البشرية (١) » بوجــوده الصاخب ، بل لقــد أفلت منهــا ليجوب الحياة ، وهو لا شك حى بيننا ، يجده كــل من يمعن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حيــاة راستيناك منــذ البــدء إلى النهاية . وبلزاك نفسه لم يجمــع تلك الحياة ، ولا تتبعها تتبعــا تاريخيا ، وهو القــائل فى مقدمة روايتــه « إحدى بنــات حواء » فى صــدد الحديث عن راستنياك : إنه كثيرا ما يحدث « أن نعرف وسط حيــاة شخص قبــل أن نعرف بدأها ، وبدأها بعد خاتمتهــا وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقــد أدرك المؤلف نفسه ما سيجده النقاد من مشقة عنــدما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التى يسايرها من رواية إلى أخرى ، فتصور — مازحا — أن يتولى أحــد الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيــه حيــاة كل

---

(١) من المعلوم أن أونوريه دى بلزاك قد جمع رواياته فى آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » ثم قسمها الى مجموعات هى :
١ — مناظر من الحياة الخاصة ٢ — منــاظر من حيــاة الأقاليم .
٣ — مناظر من الحياة الباريسية ٤ — مناظر من الحياة السياسية
٥ — مناظر من الحياة الحربية ٦ — مناظر من حيــاة الريف . ثم أضاف الى هذه المجموعات :
١ — دراسات فلسفية ٢ — دراسات تحليلية .

شخصية ، مشيرا إلى مظان تلك الحيـاة من « الكوميديا البشرية » وهـذا ما كان فعلا ، فقـد كتب الأستاذان أناتول سرفبير وجيـل كرستوف فهرسا تحليليـا « للكوميـديا البشرية » (١) ، وباستطاعة القـارىء البـاحث أن يعود إلى هـذا الفهرس ليجـد كل ما يريد معرفتـه عن راستنياك منـذ ميلاده إلى أن أصبح وزيرا خطيرا ، وثريا من كبـار الأثرياء .

أما نحن فيكفينـا أن نعود إلى مقـدمة « إحـدى بنات حواء » التى أشرنا إليهـا فيما سبق ، لنرى بلزاك نفسه يلخص لنـا جانبـا كبيرا من حيـاة بطلنـا . فهو يحدثنـا أنه قـد ولد سـنة ١٧٩٩ فى راسـتنياك بمقاطعـة شارانت ، وأنه ابن للبـارون والبـارونة دى راسـتنياك ، وأنه قـد أتى إلى باريس سـنة ١٨١٩ ليدرس القـانون بالجامعة ، وسكن فى بنسيون مدام فوكير (Vauquer) حيث تعرف بجاك كولان (jacques Collin) المشهور باسم فوتران (Vautrin) ، كما تعرف بهوارس بيانشو (H. Bianchon) الطالب الذى سيصبح فيما بعـد طبيبـا عظيما وأنه قـد أحب مدام نوسنجان (Mme de Nucingen) بعـد أن تخلى عنهـا عشيقها الأول دى مارسيه (De Marsay) . وكانت مدام دى نوسنجان هـذه بنتا لرجل يسمى « جوريو » يسكن مع راستنياك فى نفس البنسيون ، وكان السـيد جوريو المذكور فيمـا مضى تاجر مكرونة وقـد جمع ثروة طائلة من تجاربه ، ولـكنه أعطى كـل ثروته لبنتيه « دوطة » حتى تتزوجا : الأولى بأحـد أبنـاء أراستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب بنـك من أرستقراطيـة المـال وهى مدام دى نوسنجان . ولمـا رأت البنتـان أن أباهما لم يعـد يملك شيئا ، وأنه لا يصيبهما منـه غـير العار — أهملتاه ، بل وتجنبنا لقـاءة ، حتى مات الرجل ميتـة مخزية بالبنسيون ، وتولى راستنياك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقـات ذلك الدفن .

(١) Répertoire de la comédie humaine de H. de Balzac. par H. Cerfbeer et j. Cristophe.

هـذه المعلومات يستطيع القـارىء أن يجدها فى رواية « الأب جوريو » ، وهى التى سنتخذها مرجعنـا الأساسى فى تحليل المرحلة التى نريد أن نقف عنـدها اليوم من حيـاة راستنياك ، أعنى مرحلة انزلاقه من الحيـاة الريفيـة المتينـة الخلق السليمة المبادىء ، إلى حيـاة المـدن التى يسكت فيهـا صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفعة إلى أهدافهـا دون أن يردها شىء • ومنـذ أن اجتاز راستنياك تلك المرحلة الشاقـة ، لم تعـد حيـاته غير حيـاة رجل مغـامر ، حيـاة مبتذلة الأحداث • ومن السهل على القـارىء أن يعود إلى رواية « بيت نوسنجان » ليعرف كيف أصبح راسـتنياك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقـد تزوج فى سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دى نوسنجان عشيقته القديمة التى تركهـا منـذ خمس سنوات • وفى سـنة ١٨٣٩ أصبح وزيراً للأشغال العمومية • وأما بقيـة مغامراته فمنثورة فى عـدة روايات وكلها فى ابتذال ما ذكرناه من ثراء ونفوذ ووجاهة اجتماعية ، دفع ثمنهـا راستنياك غاليـا من مبـادىء الخلق وكرامة الانسان •

راستنياك الذى يستوقف الباحث ، هو راستنياك الطالب ، كمـا نجـده فى رواية « الأب جوريو » ، فهنـا تقع المـأساة البشرية ، مأساة الصراع فى نفس البطل بين نشـأته الأولى الشريفـة ، وبين مغامرات الحيـاة الباريسية ورسائل تلك الحيـاة المعيبة • ولنترك لبلزاك مهمـة تقديمـه للقـارىء بعد السـنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقـد أخذت أعين الشاب تتفتح ، وأخـذ الطموح يدب فى نفسه • « وكمـا يتفق للنفوس الكبيرة لم يرد راستنياك أن يدين بشىء لغير مواهبـه ولكن نفسه كانت من نفوس أهل الجنوب ، تلك التى ما تكاد تصل إلى مرحلة التنفيـذ حتى يضرب فى عزمهـا ذلك التردد الذى ينتـاب الشبان عنـدما يجدون أنفسهم فى وسط اللجة دون أن يعرفوا إلى أى جهـة يوجهون قواهم ، ونحـو أى صوب يرفعون قلاعهم ، وإذا كان قـد أراد فى أول الأمر أن يلقى بنفسـه

الى العمل ، فانه لم يلبث أن أغـرته ضرورة التعرف بذوى المـكانة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير فى الحيـاة الاجتماعيـة ، وسرعان ما عن له أن ينطلق إلى الوسط الراقى ليجـد فيـه حمـاته منهن ، وهو واثق من أنه لن يعـدم العثور على ما يريد . وكيف لا يعثر بهن شاب مثله حار الدماء حاضر النكتـة ، وقـد اجتمع فيـه إلى الحرارة والذكاء ما زادهما قيمـة من رشاقة سمت ، وجمال عصبى ، كم يحلو للنسـاء أن يقعن فى شراكه . ولقـد هاجمت تلك الأفكار فتـانا وسط الحقول ، وهو يتريض فى مرح مع أخواته اللاتى وجدنه قـد تغير تغيرا واضـحا . وكانت خالتـه « مدام دى مارسياك » De Marcillac قـد عرفت فيمـا مضى كبار الاستقراطيـة ، إذ كانت يوما من بين من يترددن على البـلاط . وفجـأة لمح فتـانا الطموح عـدة معارف يستطيع أن يصل إليهـا ، وهى لا تقل أهمية عن معارفه فى كليـة الحقوق ، ولقـد كان فى الذكريات التى رنحته بهـا خالتـه ما يلهب خياله ، فسألها عن روابط القرابة التى يستطيع أن يعود فيصلهـا . وبعد أن استعرضا شجرة النسب كاملة استقر رأى السيدة العجوز على أن الفيكونتس «دى بوسيان» De Beauseant ستكون من بين أقاربهم الأغنيـاء الأثرين أقلهم تلكأ فى خـدمة ابن أختهـا . وفعلا كتبت خطابا إلى هـذه الفيكونتس الشابة ، كتبتـه بالأسلوب القديم ، وأعطته لايوجين قائلة إنه لو نجح مع الفيكونتس فإنها ستصله ببقيـة أقاربه . وبعد أيام قليـلة من دعوة راستنياك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مادام دى بوسيان ، وفى اليوم التالى أجابت الفيكونتس بدعوته إلى حفلة راقصة . وكان راستنياك شابا حاد الذكاء عالمـا بذكائه . وقـد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس فى نفسه بتلك القوة . ونظر فبـدا له أنه لن يستطيع الرضـا بالخمول المبتـذل ، وهيهـات له أن يقنع بمـا يعـده له أهـله من دراسـة القـانون دراسـة جيـدة والنجاح فى الامتحانات بتفوق ، ثم الحصول على مركز وكيل نيـابة أو قاض بالأرياف . لقـد كان راستنياك يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف

فتشرق شـــخصيته وتتحقق ملكاته . كان يريـــد أن يعيش فى باريس وسط الأرستقراطية ، كان يريد الوصول •

وأول ما اتجه إليـــه عزمه هو المـــال ، فقـــد كان يعلم أنه لا بـــد منـــه لكى يستطيع الظهور بين النبلاء : فيلبس كمـــا يلبسون وتقوده العربات كما تقودهم • وبالجملة كان حريصا على أن يظهر فى مظهر الأغنيـــاء الذين لا يعـــدون ما ينفقون • وكان بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدون فى سبيله من تضحيات يقدمنهـــا راضيات لإيوجين الذى تركزت فيـــه آمال الأسرة لعله ينتهى من دراسته بنجاح • ولكنه رغم علمه بضيقهن المـــادى ، كان لا يتردد فى أن يطلب إليهن المـــال ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الفيكونتس » وقـــد أرسلن إليـــه ألفـــا وخمســـمائة فرنك مع توصيـــاتهن الخـــارة ؛ فانتزعت التوصيات من عينيـــه بعض الدموع ولكن الألف والخمسمائة فرنك نفخت أوداجـــه وملأته إحساسا بالانتصـــار ، وسرعان ما استدعى الترزى واتفق معـــه على ما يريد من ملابس يدفع ثمنهـــا أقســـاطا مبتـــدئا بقسط كبير « عنـــدئذ لم يعـــد فتـــانا الهمام يحس بشىء مما حوله ، وقـــد نزل من حجرته إلى مائدة البنسيون فى تلك الهيئة الفريدة التى تخلعهـــا النقود على الشبان • ومن المعلوم أنه ما تكاد النقود تستقر بجيب أحـــد الطلبـــة حتى يستشعر جرأة عجيبـــة ، فهو يسير بأقـــدام أثبت من أقـــدامه وكأنه قـــد وضع يـــده على رافعة الأثقـــال ، وتصبح نظراته مليئـــة مباشرة ، وحركاته خفيفة • لقـــد كان بالأمس حييـــا متواضعا قـــد يضرب فـــلا يحرك ساكنا ، أما اليوم فقـــد يضرب هو رئيس الوزراء ! تمر بنفســـه ظواهـــر عجيبـــة ، فهو يريد كل شىء ، وهو يستطيع كل شىء ، يريد هـــذا وذاك دون بينـــة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس • وفى كلمة واحـــدة لقـــد استرد الطـــائر الهيض جناحيـــه القـــويين • الطالب الذى لا نقود معـــه يخطف (نتفة) من اللذة كالكلب الذى يسرق (عظمة) تحفهـــا المخاطر من كـــل جانب ثم يكسرها ويمص نخاعها ويستمر فى العـــدو • وأما الشاب الذى توسوس فى جيبـــه

النقــود ، فإنه يتذوق لذاته ويجزئها ويتمهل فيهــا ، إنه يتأرجح في السماء ولا يعــود يذكر لكلمة البؤس معنى ، باريس كلها ملك له ، ذلك هو السن الذى يلمع فيــه كل شيء ويتقد ، سن القــوة المرحة الذى لا يعرف أحــد كيف يستفيد منــه ، لا الرجال ولا النساء . من الديون والمخاوف الـكاذبة التى تزيد من طعم اللذات . إن من لم يعش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان جاك وشارع سان بيير لا يعرف شيئا عن الحياة البشرية » .

في هــذه الصفحة التى تنبض حياة ينفث المؤلف أنفاسه الخاصة في شخصية راستيناك . فلكم حلم بلزاك الذى ولد مــع راستيناك في نفس العــام بأن يبهــر ببــذخ ملابســه وأحصنتــه ، ولقــد أعوزه المــال دائمــا ، ولذلك كان للمسه إياه قشعريرة نفسية ، هى تلك التى ترتعد في الصفحة المــاضية .

وذهب راستنياك إلى الحملة ، وقــد اتخــذ له أستاذا في فهــم الحياة مدام دى بوسيان . وما نظننا في حاجة إلى تفصيل مبادىء الوصــول ، فتلك الخسائس تقــع تحت أبصارنا كل يوم ، وهل هى إلا تظاهر بالسمو عن الغــير ، سموا سبيله احتكار كل من عــدانا ، وتبجح بملل متسام مثير ، ثــم قتــل لصــوت الضمير في النفس ، وإسكات للمثــل التى تصرفنا عن اغتنام الفــرص ، وإعــراض عن الرحمة التى ترددنا عن القسوة ، وهى أخيرا ألا نرى إلا أنفسنا ، وألا نرد شيئا إلا إلى أنفسنا ، وأن نضحى بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نملى أنفسنا على سوانا ، مهما كان في ذلك الاملاء من جروح . وهــذه هى المبــادىء التى تلقاها راستيناك عن الفيكونتس ونحن نجتزىء ببعض ما سمع عنــدها من دور مزيعة مثــل : « إن القلب البشرى كالــكنز . استنفده في غرفة واحــدة تجد نفسك مفلسا . إن النــاس لا يغتفرون لمن يظهر شعوره كله دفعــة واحــدة أكثر مما يغتفرون لمن لا يملك فلســا واحــدا » وقولها : « كلما ازددت برودا في تقديراتك ازددت تقــدما إلى الأمام ، اضرب بغير شفقة

يخشبك النـــاس • لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرك إلى خيــل البريد التى تتركها تنفــق عنــد نهــاية الشـــوط ، وبذلك تصل إلى أسمى ما ترتفع إليـــه رغباتك » •

وعاد راستنياك من الحفلة إلى انبنسيون ، بعــد أن أمعن النظر فى أرستقراطية باريس • وفى البنســيون وجــد أســتاذه الفحــل جاك كولان المعــروف بفوتران : مجرم قــديم ، أعيى رجال الأمن أمره ، وقــد افلت من السجن حيث كان مقضيا عليــه بالأشغــال الشاقة ، ولجأ إلى بنسيــون مــدام فوكير متنكرا • وقــد أحس راستنياك فى خلق الرجل جرأة ، وفى حديثه سلطة أثارته حتى أوشك أن يقــاتله فى مبارزة ، ولكن فوتران أوقفــه بحركة آمرة ، وأرغمه على أن يجالسه تحت إحــدى شجيرات الحديقة المحيطة بالبنسيون ، وهنـــاك وجــه إليـــه تلك الخطبة التى ترتعــد لهـــا الفــرائص • قال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا فعلت ، وماذا أفعــل ؟ حقــا إنك يا بنى لمسرف فى حب الاستطلاع • آه هــدوءا هــدوءا أيهــا الطفل ! ستسمع أكثر من ذلك • لقــد ابتلتنى الحيــاة • اســتمع إلى قبــل أن ترد • ها هى حياتى السابقة فى ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران • ماذا أفعــل ؟ ما يحلو لى !

« سأوضح لك أنا الوضع الذى أنت فيــه ، ولكننى سأفعل ذلك فى تفــوق الرجل الذى اختبر أمــور الحياة ، فرأى انه ليس أمامه إلا أحــد أمرين : إما الخضوع الأبله ، وإما الثورة • وأنا لا أخضع لشىء • أواضح ما أقول ؟ هل تعلم ما أنت فى حاجة إليـــه لتســير فى الحياة كما تريد الآن ؟ إنك فى حاجة إلى مليــون فــرنك تجــدها سريعــا ، وإلا قادك رأســك الصــغير إلى شــباك « ســان كلو » (السجن) ، لتبحث هنــاك عن الــكائن الأسمى • هــذا المليــون سأعطيه أنا لك » ، وأمسك فوتران عن الحديث هنيهــة ناظــرا إلى راستنياك ، ثــم اســتأنف : « ها ها ! إنك تنظــر الآن إلى عمــك فوتران نظــرة أرفق من ذى قبــل — ها هو موقفك أيها الشاب :

لدينـا هنــالك أب وأم ، وخـالة وأختـان « فى الثامنـة عشرة والسـابعـة عشرة » ، وأخـوان صـغيران « فى الخامسـة عشرة والعاشرة » ، هـذا عدد الجوقة ، الخالة تربى البنات ، والقسيس يعلم اللاتينية للأخـين ، والعـائلة تأكل من عصـيدة أبى فـروة أكثر ممـا تأكـل من الخبز الأبيض • الأب يحـافظ على سرواله والأم تقنـع بثـوب للشتاء وآخـر للصيف ، والأختـان تدبران أمرهما كمـا تستطيعان ، وأما نحن فلدينا الطموح • نحن أقـرباء بوسيان ، ثـم نذهب إليهـم على الأقـدام ؟ نريد الثروة وليس لدينـا سحتوت ، نأكل من « عـك » الأم فوكـير ، ولـكننا نحب الغـذاء الفخم من فوبور سـان جرمان ، ننام فى سرير كالمشرحة ، ونريد أن نسـكن فى فللا إننى لا ألوم نزعاتك فليس باستطاعة كـل إنسان — أيهـا الطفل العزيز — أن يكون طموحا • لقـد أحصيت رغباتك لكى أسألك السؤال الآتى : نحن جيـاع كالذئاب الضـارية وقوارضنا ماضـية ، فـكيف السبيل إلى ملء القدر ؟ ليس لدينـا ما نأكله غـير مجموعات القـوانين وهـذه لا فائدة من ورائهـا ، ولكنه الواجب ، فليكن ، ثم نشتغل بالمحاماة لنصبح رؤساء لمحكمة الجنايات ، فنرسل إلى السجن شياطين المجرمين مـع أنهـم خـير منـا ، وذلك لكى نثبت للأغنياء أنهـم يستطيعون أن يناموا هادئين ! هـذا عمل لا بهجة له ! ثم إن الشوط طويل ، فلا بد من التصعلك سنتين بباريس ننظر إلى النقود دون أن نستطيع مسها مـع شـدة رغبتنا فيهـا ، وإنه لأمر مضمن أن نستشعر دائمـا الرغبـة دون أن نستطيع إشباعها • ولو أننا كنا شاحبين وكنا من طبيعة الزواحف لمـا خشينا شيئـا ، ولـكن دماؤنا من دماء الأسـود وفى شهيتنـا قابلية لارتكاب عشرين حماقة فى اليـوم •

« هـذا أيهـا الشـاب هـو مفترق الحياة ، ولقـد اخترت ، فذهبت عنـد بوسيان من بنى عمومتك ، ولقـد أحسست هنـاك بالبـذخ ، كمـا ذهبت إلى مـدام دى رسـتو De Restaud بنت الأب جوريو ، فشممت فيهـا رائحة المرأة الباريسية ، ولقـد عدت

ذلك اليوم وعلى جبينك كلمة قرأتها فى وضرح ، هى : الوصول ! الوصول بأى ثمن ! فصحت : برافو ! هذا عملاق يلائمنى • ولقد شعرت بالحاجة إلى المال ، فأين تجده ؟ لقد نزفت دماء أخواتك فاستلبت منهن ألفا وخمسمائة فرنك بطريقة يعلمها الله ، وهن فى بلاد قد تجود بأبى فروة أكثر مما تجود بقطع النقود ، ولكنك تسللت كالهارب فى الظلام • والآن ماذا تفعل بعد ذلك ؟ أتجد فى العمل ، والعمل لا يغنى فقيرا ، والثروة العاجلة هى المشكة التى تعرض لخمسين ألف شاب مثلك ممن يجدون أنفسهم فى موقفك الحالى ، وأنت واحد من هذا العدد ؟ فكر فى المجهود الذى يجب أن تبذله ، وفى عنف المعركة التى ستخوضها ، لا بد أنكم ستأكلون بعضكم بعضا كالعنكبوت الذى يجتمع فى زهرية واحدة ، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنا لك خمسون ألف مركز كبير • أتدرى كيف يشق الناس سبيلهم فى هذه الدنيا ؟ يشقونه ببريق العبقرية ، أو بالمهارة فى الخسة • يجب أن تسقط فى صفوف البشر كقنبلة ، أو أن تتسلل بينهما كوباء ، أما الشرف فلا فائدة فيه • إن الناس ينحنون أمام قوة العبقرية ، وهم يكرهونها ، ويحولون النيل منها بأقوال السوء ، وذلك لأنها تأخذ دون أن تقتسم ، ولكنهم ينحنون إذا ثابرت • وفى كلمة واحدة ، الناس يعبدونها جاثين عندما يعجزون عن جرها فى الأوحال • وكذلك الخسة ، فهى قوة ، الخسة سلاح الضعفاء الذين يملأون الأرض ، وسوف تحس بوخزاتها فى كل مكان • إذا كنت تريد أن تثرى سريعا ، فمن الواجب أن تملك شيئا ، أو تتظاهر بأنك تملك شيئا • لكى تثرى يجب أن تغامر بضربات قوية ، وإلا أضعت وقتك فى الجو ثم هيهات ••• وفى المائة مهنة التى تستطيع أن تزاولها سترى الجمهور يسمى العشرة أشخاص الذين ينجحون بسرعة لصوصا • استخلص الرأى • هذه هى الحياة ، فهى ليست أجمل من « الطبيخ » ، ورائحتها رائحته • يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى ، ولكن يجب أن تعرفه

كيف « تنشطفها » بعد ذلك ، ففى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا .
وإذا كنت أحدثك عن الحياة على هذا النحو فذلك من حقى ، بحكم أننى أعرفها . وهل تظن أننى أنحى عليها باللوم ؟ أبدا ، فقد كانت دائما كذلك ، ولن يستطيع الوعاظ تغييرها . الانسان كائن غير كامل ، وهو — إلى حد ما — منافق ، ولهذا يرى الحمقى أنه عديم الأخلاق . وأنا لا أتهم الأغنياء لمصلحة الفقراء ، فالانسان هو هو فى أعلى وفى أسفل وفى الوسط . وفى كل مليون من هذه الحيوانات الرفيعة قد تجد عشرة لصوص يضعون أنفسهم فوق كل شيء ، فوق القوانين ذاتها ، وأنا واحد من هؤلاء ، أما أنت فاذا كنت رجلا ساميا فلتسر فى خط مستقيم مرفوع الرأس ، ولكنك ستضطر إلى مقاتلة الحسد والتنمية والحقارة ، ستقاتل جميع الناس . لقد لاقى نابليون وزيرا للحرب اسمه أوبري Aubry ، ولقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات . تحسس موضع قوتك ، وانظر هل تستطيع أن تستيقظ كل صباح بارادة أقوى إن إرادتك بالأمس ؟ وإذا كانت لى نصيحة أهديها إليك — أيها الملك — فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك ، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له . والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائما فى طريق مستقيم ، هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ . وليست هناك مبادىء وإنما هناك أحداث ، ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكى يسيرها » .

سمع راستنياك هذه الآراء المخيفة ، فنفرت نفسه نفورا شديدا ، وهو الشاب الذى لا يزال يحتفظ بأثر نشأته الأولى فى الريف . ولذا صاح عندما رأى فوتران يغادره فى هدوء واضعا عصاه تحت إبطه : « أى رأس صلدة يحمل هذا الرجل ! لقد قال لى فى فجاجة ما قالته مدام دى بوسيان بلباقة . لقد

مزق قلبى بمخالبه الفولاذية . لماذا أريد أن أذهب عند مدام دى نوسنجان ؟ لقد حدس الرجل دوافعى كما تحركت فى نفسى . لقد حدثنى ذلك المجرم عن الفضيلة أكثر مما حدثنى الرجال والكتب كافة . وإذا كانت الفضيلة لا تقبل مهادنة فلا شك أننى قد سرقت أخواتى » قال هذه الجملة الأخيرة ، وهو يطرح كيس النقود على المائدة . وبعد برهة عاد يناجي نفسه « الوفاء للفضيلة ! آه يا لله من استشهاد نبيل ! الناس كافة يؤمنون بالفضيلة ، ولكن من منهم الرجل الفاضل ؟ والشعوب كافة تعبد الحرية ، ولكن أين الشعب الحر ؟ إن شبابى لا يزال صافى الزرقة كالسماء التى لا سحب فيها . وإذا كنت أريد أن أصبح رجلا عظيما أو رجلا ثريا ، هل لى بد من أن أكذب وأنحنى وأزحف ثم أنهض وأتمق وأنافق ؟ هل لى بد من أن أضع نفسى خادما لمن كذب وانحنى وزحف . لا مفر من أن أخدمهم قبل أن أصبح شريكا لهم . آه ! لا . إننى أريد أن أعمل فى نبل وطهارة . أريد أن أعمل ليل نهار ، وألا أدين بشىء لغير اجتهادى » .

وهنا نلمس الصراع النفسى ، الذى لا نستطيع معه إلا أن نهتز عطفا لتلك النفس التى لا تزال تجالد الشر بفضل ما اختزنت فى صباها من مثل الخير . ونحن لا يعنينا ما سيؤول إليه راستنياك فى الروايات اللاحقة ، وإنما نقف عنده كما نراه فى « الأب جوريو » لنشاهده يرفض التورط فى الاجرام مع فوتران ، ونحن ندع جانبا ما كان له من مغامرات فى الأوساط الباريسية ، مكتفين بالاشارة إلى أهم تلك المغامرات وهى : عشقه لمدام دى نوسنجان . وموضع الخطر على فتانا لم يكن فى ذلك العشق ، وإنما كان فيما رآه من عقوق عشيقته وأختها لأبيهم « الأب جوريو » ، فلقد كان موقفهم منه شديد الشبه بموقف بنات الملك « لير » من أبيهم . بل إننا نعتقد أن بلزاك قد أسرف وأحال فى تصوير ذلك العقوق ، إذ جعل الأب من الحماقة الشاذة بحيث يتكالب فى حبه لابنتيه كلما زادتا نكالا ، ولهذا نرى قيمة

تلك الرواية الشهيرة فى شخصية راستنياك ، لا فى شخصية « الأب جريو » بطل القصة وعنوانها .

عجيب أن نتتبع راستنياك فى محاولاته المختلفة ، وأن نرى إرادته تصلب كلما تناوبه النجاح والفشل ، ومن المعلوم أن العزم لا يقوى بغير الصدمات . وهو رغم استحصاد إرادته لا يستطيع أن يسكت فى نفسه صوت صباه ، فهو يحب أسرته وإن كان يبتز مالها . ولقد يكون فى موقفه هذا ما يدل على أنه يحب ذاته أكثر من حبه لأهله ، ولكنه على أى حال لم يكن ميت القلب ، نراه يبكى عندما يقرأ خطابات أمه وأخواته . وإنه لا ريب أمر سهل أن نبكى قليلا ثم نعود إلى رأس أمرنا ، ولكن أليس عدم البكاء إطلاقا أسهل من البكاء ؟ وهو أخيرا قد تعلق بالأب « جوريو » ورعاه أيام مرضه ، وتكفل بدفنه ونفقات ذلك الدفن مع زميله طالب الطب . ولقد يقال إنه أحب ذلك الشيخ المسكين لأنه كان والد عشيقته ، ولربما كان هذا صحيحا ، ولكنه مما لا شك فيه أن راستنياك الشاب المحب لأهله قد قدر فى الأب « جوريو » طيبته ومحبته لبنته ، راستنياك ليرافق عشيقته إلى الرقص ، ولكن كم كان صمته لاذعا دون أن يرى ما فى تلك المحبة الشاذة من حماقة . لقد أرسلت إليه مدام دى نوسنجان ليلة اشتداد المرض بأبيها خطابا صغيرا تقول فيه : « إننى أنتظرك للذهاب إلى حفلة الرقص . فإذا لم أرك بجوارى بعد ساعتين ، لست أدرى هل سأستطيع بعد ذلك أن أغتفر لك تلك الخيانة » ولكنه لم يكد يقرأ هذا الخطاب الوقح حتى أخذ قلمه ليرد لفوره : « إنى أنتظر الطبيب لأعرف هل سيعيش أبوك أم لا . إنه يحتضر . سآتيك حاملا الخبر ، وإننى لأخشى أن يكون خبر الموت ، سوف تنظرين عندئذ : هل تستطيعين الذهاب إلى حفلة الرقص ؟ ! » . نعم إن إرادة مدام دى نوسنجان قد تغلبت فى آخر الأمر ، فذهب

راستنياك ليرافق عشيقته إلى الرقص ، ولـكن كم كان صمته لاذعاً وهو إلى جوارها بالعـربة ؟ لقـد لزم صمت القبور حتى ضاقت به مدام دى نوسنجان فسألته : « ما بك إذن ؟ » وإذا به يجيب « إننى أسمع حشرجة أبيك ! » •

هـذا هو راستنياك : شخصية مركبة معقدة ، شخصية نميل إلى اعتبارها خـيرة • وأما إذا أردتنى أن أدل على سبب انزلاقهـا إلى الشر فى مسـتقبل أيامهـا فلست أراه إلا فى أمـرين : أولهمـا أن رغبات هـذا الشاب كانت تنبعث فى نفسه قـوية لا تدفع • ثم تملأ وجـدانه فلا يعود يرى غيرها ، وإذا به منـدفع لا يلوى على شىء ، وهو إذا كانت رغباته تثور من داخل نفسه ، فان شجاعته كانت تأتيه من الخـارج • إنه لم يكن له بـد من النجـاح لكى تتحقق ملكاته وتنشط ، بل نستطيع أن نقول إن النجاح كان أول وسائله للوصول • والذى لا شك فيـه أنه قـد وجـد فى مغامراته المختلفـة ما يرضى تلك الحاجة إلى النجاح • وثانى الأمرين فساد ما رأى من حيـاة معظم النـاس ، ولقـد كان فى موقف بنتى جوريو وصهريه من ذلك الأب البائس ما حمله على مجابهة الهيئـة الاجتماعيـة ومنازلتهـا بأسلحتها مهما بلغت تلك الأسلحة من الحقارة • وفى الصفحة الأخيرة من الرواية يصف بلزاك دفن الأب جوريو بقوله : « ومع ذلك فعندما وضع النعش على النـاقلة ، قدمت عربتـان تحمل أحدهما شـارة الكونت دى رستو ، والأخرى شارة البارون دى نوسنجان ، ولكنهما خاليتـان ، ثم تبعتـا النعش إلى المقبرة • وفى السـاعة السادسة أنزل جسم الأب جوريو إلى الحفرة ، ومن حوله خدم بنتيـه الذين اختفوا من القسيس بمجرد الفراغ من الصـلاة التى دفع ثمنهـا الطالب راستنياك ، وبمجرد أن انتهى الحفاران من رد بعض حفنات من التراب لتغطية الجسم ، لم يلبث الرجلان أن نهضا وقـد اتجـه أحدهما إلى الطالب يسأله « البقشيش » ، وفتش أيوجين فى جيبـه فلم يجـد شـيئا ، فاضطر أن يقترض فرنكا من كرستوف خـادم البنسيون • ولقـد نشرت هـذه الحادثة الصغيرة فى نفس راستنياك

حزنا مظلما • وكان النهار قد آذن بالأفول ، وأخذ الشفق الرطب يثير الأعصاب ، فنظر الشاب إلى القبر ودفن فيه آخر دمعة من دموع صباه ، وكانت دمعة فاضت بها عاطفة مقدسة من قلب طاهر ، دمعة من تلك الدموع التى ما تكاد تسقط إلى الأرض حتى ترتد إلى السماء ، ثم ربع ذراعيه إلى صدره ، وأخذ يتأمل السحاب ، ورآه كريستوف فى هذا الموقف فتركه عائدا •
ووجد راستيناك نفسه وحيدا فخطا بضع خطوات نحو أعلى المقبرة حيث رأى باريس راقدة فى التواء على ضفتى السين ، وقد أخذت الأنوار تسطع ، فاستقرت عيناه فيما يشبه النهم بين عمود فندوم وقبة الأنفاليد ، وبين هذين الموضعين يقع حى تلك الطبقة الراقية التى أراد أن يختلط بأفرادها • وأرسل إلى تلك الخلية الطنانة نظرة تكاد تمتص ما بها من رحيق ، ثم قال هذه الكلمات الرائعة : والآن فلأخل لك ! وكان أول عمل من أعمال التحدى الذى أعلنه راستنياك للهيئة الاجتماعية أن ذهب ليتناول العشاء عند مدام دى نوسنجان » •

لقد كان فى ذهابه إلى العشاء مع تلك العشيقة العاقة آخر عهده بالحياة الشريفة ، بعد أن رأى من فساد الهيئة الاجتماعية ما لا يمكن أن تصمد له مثل الخير التى ألفها فى صباه ولكن هل تراه محقا ؟!

أوليس

(١)

فى الاليـــاذة

أوليس أحـــد أبطال هوميروس • رأينـــاه للمرة الأولى فى الالياذة على رأس جنـــده الذين جمعهم من مملكتـــه بجـــزيرة كورفو ، التى لا تزال الأمواج تلطم صخـــورها إلى اليوم ، وذلك لكى يساهم مع بلاد اليونان الأخرى فى حملتهـــا الشهيرة على طروادة إحدى مدن آســـيا الصغرى •

وكلنـــا لا ريب يذكر سبب تلك الحرب الضروس ، وأصـــداؤها التى سجلها شـــاعر اليونان العظيم لا تزال تتردد بجميع الآذان • ومن يستطيع أن ينسى هيلانة ، مضرب الأمثـــال فى الجمـــال ، وإن كانت السبب فى تلك المحنـــــة التى أثـــارت الغرب ضـــــد الشرق عشر سنين متواليـــات ؟ قالوا : إن باريس أحـــد أمراء طروادة أتى يوما فى تجارة إلى شواطىء البليبونيزيا وإذا بهيلانة زوجة منيلاس ملك إحدى تلك الجهات تلهو على الشاطىء مع رفقـــة لهـــا ، فهـــاله جمالهـــا ، وكان الأمير مشرق الطلعـــة ، فوقع هو أيضـــا بقلبهـــا ، وكان ما شاءت الأقـــدار ، فتواعدا على الهرب سويا ونشرا القلاع ، إلى طروادة •

وعلم زوجهـــا بالخبر ، فأخـــذته شـــهامة الرجال ، ونفرت مدن اليونان كافـــة إلى جوار الزوج الذى ثلم شرفه ، وتصدى لقيادتهم أجا ممنون أخو منيلاس ، وأعـــدوا الجملة ، وأبحرت السفن وأرست حيث ضرب الجنـــد حول طروادة الحصـــار ، وكانت معارك تبيض لهولهـــا النواصى ، إذا صح أنهـــا كانت كلهـــــا فى قســـوة ملاحم السنة العـــاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنـــا جزءا منها • وكم من أبطال تميزوا فى تلك الميـــادين الساحقة ! أخيل أشجع من

ولدت الأمهــات وأصلب الرجال عزما • وإياس ذو الحول والطول ، وهكتور أنبل أهل طروادة وأخلدهم ذكرا ، ثم أوابس •

وفى الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الخارقين ، ولكنــه أعمق دلالة وأمس بالاغريقى العادى رحمــا من الجميع • اوليس أنموذج للشعب اليونانى ذاته بمــا فيــه من قوة وضعف • هو صورة واقعيــة للأخلاق اليونانية وللملكات اليونانية وإلى هــذا فطن الاغريق كافــة ، فرأى كل منهم فيــه نفسه أو جانبــا منهــا بما نعرفه عنهم من الشجاعة وروح المغامرة وتفتح النفس للمعرفة ، والاقــدام على المخاطرات مع القــدرة على ملابسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة فى معالجة النــاس والأشــياء ، مما يدفعهم أحيــانا إلى إسكات صوت الضمير والتعلق بالهــدف دون نظر إلى الوسائل ومدى ما فيهــا من قسوة • وتلك كلهــا صفــات سنراها عنــد أوليس فى تاريخــه الطويل على تفــاوت فى النسب ، وتطور فى الاتجــاه وفقــا لسير الزمن وتقدم الحضارة •

صــادف أوليس إذن هوى الشعب اليونانى الذى اطمأن إليــه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رمزه الحى ، وإذا بــه يتطور بتطوره ، فلم تكد عصــور البطولة تنقضى ويأخــذ الشعب بأســباب الحيــاة العمليــة ، وينصرف إلى السيطرة على المــادة ، وارتيــاد بقاع الأرض ، وركوب متن الميــاه التماسا للعيش ووجاهة المــال ، حتى رأينــا بطلنــا يحتل المكان الأول فى الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانيــــة ، وما هى إلا قصص لمغــــامرات أوليس أو أوديسس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار • ونظر الشعب الاغريقى فرأى أنموذجــه يســايره فى تطور خلقــه واتجاهات نفســه فزاد به تعلقــا ، حتى كان القرن الخامس قبــل الميــلاد ، أى بعــد ظهور أوليس إلى الوجود بخمسة قرون ، وإذا بسوفكليس المؤلف المسرحى الذائع الصيت يتخــذ منه بطلا لروايته الخالدة « فيلوكوتيت » Philoctète وقــد عمل الزمن فيــه عمله

فأصبح الماكر الذى لا يتورع عن شيء فى سبيل الوصول إلى ما يريد • ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الالياذة إلى دهاء الأوديسيا ثم ينتهى بخبث « فيلوكتيت » وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة ، ففساد المدنية •

فلنتتبع إذن بطلنا نلتمس فيه صورة الشعب اليونانى بأكمله خلال مراحله التاريخية ، ولنبدأ حديثنا بأوليس الالياذة ، ففيه حقيقة نفسه فى ذلك الحين ، وأشباح ما سيصير إليه فيما بعد •

وكان يوما مشهودا يوم رأينا أوليس لأول مرة فلمسنا ما تحلى به من شجاعة وحزم ومعرفة بحقائق النفوس •

ذلك أن أخيل العاتى النفس — غضب من أجا ممنون رئيس الحملة ، إذ سلبه قسرا أسيرة جميلة كانت من أسلابه فتخلى عن القتال ، وكل من يذكر شجاعة أخيل التى لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الاغريق إذ ذاك من أخطار ، وخصومهم رجال ذوو بأس • وهذا ما كان • فقد انهزم الاغريق وانسحبوا إلى الشاطيء يعدون سفنهم للاقلاع وكادوا يعودون أدراجهم خائبين ، لولا أن تداركت الأمر « بالاس » ربة الذكاء وحامية الاغريق •

« فانطلقت من أعلى الأولمب بأجنحة حثيثة إلى حيث ترسو السفن ، وهنالك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيس ، وجدته جامدا فى مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه • إلى جانب البطل وقفت الالهة وخاطبته قائلة • يابن لا يرث ! أيها الالهى ! أى أوليس الحكيم ! أتنطوون بصدر وطنكم وتتركون لبريام وأهل طروادة ثمنا لنصرهم هيلانة

الاغريقيــة ؟ وببــلاد الاغريق ولدت . ومن أجلهـــا هلك كل من استشهد من إغريق حــول طروادة بعيــدين عن وطنهم ؟ ! هيــا ! بلا مهــل ! إلى صفوف الجنــد ! بقولك المقنع أمسكهم عن الهرب ، لا تسمح لسفنهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فاذا بهــا بالاس التى تتجه إليــه بالحديث ، وهو الاغريقى الصميم الذى يعرف كيف يجل إلهــة الذكاء وبين أحضانها نمــا ، وبإشــعاع منهــا مت إلى المجــد بسبب . وهــاله الموقف وقــد هلعت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجــاة ، وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير العقول حرصا عليهــا . فكيف لــه أن يقف بمفرده أمام جيش بأكمــله وقــد ذهب الخــوف بلب الهــاربين ! وهبــه فعــل ، أو لا ترى أنه هالك لا محــالة ؟ ! قــد تستطيع شجاعة حمقــاء أن تجازف بحيــاة صاحبها فى يوم كهــذا دون أن تصل إلى شىء . وأما أوليس فقــد كان أحكم من الحمق ، وأشجع من الاحجــام ، كان ذا قلب يفكر . ولذا أقــدم فى حزم المستنير ، فألقى بمعطفه وأخــذ من أجا ممنون صولجان الملك ليكون له الحق فى مخاطبــة الجنــد ، ثم التأثير فيهم بمــا يحمل فى يــده من رمز الولاية . ولعــــله كان يدرك بفطرته السليمــة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيــه لحديثــه ، على نحــو ما كانت الألفــاظ تستطيعه بدون تلك العصا السحرية أو غيرها من المظــاهر التى تفعــل فى جمــاهير النــاس ، بل وخاصتهم فعلهــا العجيب . ثم ســار « وكلمــا لقى أحــد الملوك أو القــادة أوقفـــه بقوله المعسول : أيهــا البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفا ؟ ! أثبت وثبت جندك . وأما إذا لقى جنــديا مغمورا يحث رفاقه على الهرب ، فإنه يضربه بصولجانه ويعنفــه بأمر القول : أيهــا الشقى ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيهــا الجنــدى الخائر القوى ، المنحــل العزم . يا من لا اعتبــار له فى صفوف قتــال ولا مجلس مشورة ! » .

وهكذا تهيىء الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز . ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف ، وقد عرف كيف يمتلكها جميعا ، بتحريك معانى القوة والكبرياء فى القلوب التى تستشعرها ، والخوف والخضوع عند من ألفوهما . وهذه أدلة الذكاء الذى ينفذ إلى حقائق النفوس ويلابس الواقع ، وهو بعد ذكاء لا يعوق الاقدام بل ينير خطواته .

وانتهى به المسير إلى موضع الجمعية التى انعقدت للتشاور فى الأمر . وإذا بترسيت يخطب الجند ليحملهم بقوله الغادر الخداع على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم . وكان ترسيت هذا ثرثارا مسرفا ، خصب النفس فى الوقاحة والجرأة ومجابهة كل خزى ، كان يحذق تجريح الملوك يثير به ضحك الجماهير وسخريتها ، وهو أخس المحاربين . رجل أعمش أعرج ضيقت كتفاه المقوستان من صدره ، وعلى رأسه المدبب كانت تتأرجح بضع شعرات شنتية . وفطن أوليس لساعته أنه لا بد له من تغيير الجو المسيطر لتهدأ النفوس من توترها ، وتعود عن الاتجاه الذى انصرفت إليه فأسرع إلى ترسيت وضربه بالصولجان ضربة تركت بظهره سناما كسنام النوق ، فخر باكيا معولا بعد أن كان يصول ويجول منذ هنيهة كأسد الغابة . وكان الجند يعرفون فيه الجبن والفهاهة ، فعلت أصواتهم بالضحك . وهذا ما قصد إليه أوليس الذى كسب المعركة . إذ تبدل الجو وسكنت القلوب . وهنا علا المنصة وما زال بالهاربين يقنعهم بضرورة البقاء ليستولوا على طروادة ، حتى استمعوا له وانقادوا إلى رأيه ، وذلك لأنه عرف كيف يخاطبهم ، وهم الرجال الفطريون الذين تحركهم الكبرياء ، كما يقودهم الجشع المادى والطمع فى الأسلاب ، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة ، وقد قضت تلك الارادة أن يحاربوا وأن ينتصروا . ففيم التراجع ؟ ! والخطيب من التفاؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هتفت له مؤيدة متحمسة .

وكان هـذا من أجمـل ما نعرف فى حيـاة أوليس من مواقف ، وفيـه تجلت صفـاته النفسية : إقـدام فى حكمة ، وخبرة بدخائل النفوس ، وذكاء نافـذ ، وثقـة بالنفس .

وعاد الاغريق إلى أسوار طروادة يشـددون عليهـا الحصار ، وبرز لهم أبطال المدينـة يدفعونهم عنهـا . وأما الشيوخ فكنت تراهم يثرثرون بأعلى الأسيجة حيث أخذوا أماكنهم ليشهدوا القتال « كتـلك العصـافير التى تزقزق فوق الأغصان ، بينمـا الحصـاد يعملون منـاجلهم فى حقول الغـلال » ، وتمر بهم هيلانة فيروقهم جمالهـا ، ويذكرون أن امرأة كهـذه تستحق أن يقتتل من أجلهـا الرجال . وثارت ببريام رغبـة الاستطلاع ، فأوقف الفتاة يسألها : « حـدثينى يا بنيتى عن هـذا البطـل ، هـذا الذى يقصر عن أجا ممنون بمدى رأسه ، وإن يكن صدره وكتفـاه أعرض منـه ، وسلاحه راقـد إلى الأرض الخصبة ! وأما هـو فيسير بين جنـده كما يسير الكبش غنى الجزة بين نعاجه البضة » . وأجابته هيلانة : « هـذا ابن لا يرت ، أوليس الحكيم . غـذته أرض إيثـاكا التى تمزقهـا الصخور الجدباء . بطل واسع الحيل ، حكيم المشورة » . هـذا هو الرجل : أبى كالكبش ، حكيم كزيس .

وكم كانت فى الإليـاذة من بطولة . ومن العـدل أن نذكر سيره فى ظلام الليل مع ديوميـد ليتعرف على مواقع العـدو ، وما كانت لهما من مخاطرات جنونيـة . وفى اختيار ديوميد له أكبر دليـل على أنه كان معروفا بالشجاعة المتدفقـة إلى جانب الرأى . ولقـد جرح ديوميـد فى تلك الليـلة القاتمة وأحاط بـه العـدو ، ولكن أوليس لم يتركه وحيـدا بل ضمد جروحه وعاد به .

ولم تكن شـجاعة أوليس جسـارة قلب فحسب ، بل شـجاعة حقيقيـة ، فهو قوى الجسم قصير صلب متين . ألا ترى كيف أنه لم يخش إياس نفسـه ، بل نازله فى السباق ، وانتصر عليـه يوم أن أقام أخيل المسابقات الرياضية الرائعـة احتفالا بدفن صديقـه العزيز بتروكل ؟ !

ولكنهـا بعد شجاعة تتميز عمـا سواها ، فهو يخضع فى الأغلب وثباتها لحكمته ، وحكمته إحساس صادق بالممكن ، وقسط واعتدال ، ثم غريزة تدفعـه إلى المماراة والدهاء . ولهـذا اختير على رأس وفـد ذهب إلى أخيل ليثنيـه عن عنـاده وهنالك وجه إلى البطل خطبـة تكاد تطير بأجنحة خفيفـة ، خطبـة مؤثرة نافـذة قوية ، ولكنـه أمام عنـاد أخيل لا يلح ، بل يتركه بابتسامة حزينـة .

ومن ثم نراه رغم شجاعتـه لا يحجـم عن الهـرب إذا قضت الضرورة . أو لم يرفض أن يعـود إلى القتال مـع أخيل بعد موت بتروكل ؟ « أخيل ! يا ابن الآلهـة ! إنى أعرف شـجاعتك ، ولكن الجنـد جياع ، فلا تترهم الآن إلى القتـال ليطاردوا العـدو إلى مدينتـه . مر الجنـد يتغـذون بالقمح ويطفئون ظمأهم بالنبيـذ فتتجـدد قواهم . وما يستطيع المقـاتل إذا حرم الطعام أن يصمد من الفجر إلى غروب الشمس ، فلا بـد — مهما كانت حرارة قلبه — أن يثقـل التعب قليـلا قليـلا جسمه المنهـك . يهاجمـه الجوع والعطش فتتقصف أرجله وسط القتـال » .

وأما أخيل فمـا يريد أن يستمع لقول ، وكيف يتحدث عن ولائم وراحة وقـد مات صديقه بتروكل وما يزال دمه يطلب الانتقـام ، وقـد جلل الأسى قلوب الرجال ولكن أوليس يرد عليـه فى شىء من التهكم بل المرارة : « يا ابن بيليـه ؟ أيهـا البطل الذى لا يقهر ! لست أشك أنك تفوقنى قوة إذا أخذت بسـلاحك ، ولكنى أعتقـد أننى أفوقك حكمـة ، فسنى فوق سنك . لقـد توفرت لى الأعوام فأخذت عنهـا خبرة تنير لى الطريق . لتـدع إذن مشورتى تطامن من حـدة نفسك . لقـد مل الجنـد المذابح بعد أن غطت السيوف منبسط الريف بالقش وضعف المحصول ، وقـد مال زيس — فيصل الحـرب بالميزان وما بالجـوع يبجـل الجنـد موتاهم ، وفى كـل يوم تتساقط الأبطال وفيرة العـدد . فمتى نضع حـدا لآلامنـا ؟ ! لنؤد واجب التحيـة لموتانا ، ولنستجمع عزمنـا . لنسكب الدمع يوما على قبور من فقـدنا ، ولنشبع جوعنـا ، ولنرو عطشنا نحن

الذين أفلتنا من الموت ، حتى نستطيع إذا ارتدينا دروعنا الأبية أن نقاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أوليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالا للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدثه خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شدائد الحرب بوجوب التريث وتجديد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يدفع عنها تعالى أخيه نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يعترف للغير بفضله ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثبت فيها .

وثمة مواقف أخرى تدل على أنه وإن يكن مادى النزعة — إلا أنه قد عرف دائما كيف يضع صالح الوطن فوق نفعه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعد ورع تقى يخشى الآلهة ويحترمها ، ولكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « بالاس » آلهة الذكاء ، فهو يخضع لها خضوعا تاما ، وذكاؤها صاف وحكمتها عملية . يعتمد على الحظ ، ولكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يعد لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلا لصفات اليونان من أى بطل آخر من أبطال الالياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه المسرف الكبرياء ، الغشوم الشجاعة . ولكن الزمن سار سيرته ، فأخذت الحكمة تطغى شيئا فشيئا على نفس أوليس ، وتتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » .

(٢)

فى الأودســـا

يحتـــل أوليس فى الأودسا المكان الذى يحتله أخيل فى الالياذة ، فهى قصته ، وذلك لأن لفظة « أودسا » مشتقة من « أودسيوس » كنيـــة « أوليس » ، وأودسيوس باليونانيـــة هو « جواب الآفاق » الذى يقص هوميروس أنبـــاء عودته من آسيا الصغرى إلى وطنـــه إيتـــاكا بجزيرة كورفو ، الشهيرة حتى اليوم بروعة موقعهـــا على مقربة من شاطىء دلمـــاسيا المصيف الأوروبى الجميل .

والحق إن فى اختيـــار هوميروس لأوليس كبطل لملحمته الثانيـــة ما يدعو إلى التفكير ، وبخاصة إذا ذكرنا أنه قـــد كان هناك أبطال آخـــرون من بينهم من انتهى إلى مصير جـــدير بأن يوحى أجمـــل الشعر كإياس مثلا . إياس الذى جن إذ آثر اليـــونان أوليس دونه بأسلحة أخيل عنـــد موته ، مـــع أنه كان أعظم من أوليس إقـــداما وأشـــد بطشا . كان باعتراف الجميع « ســـياج اليونان » .

ولـــكن الواقع هو أن اليونانيين قـــد رأوا أوليس أنموذجا قوميا تتركز فيـــه صفاتهم ، وفى هـــذا ما يفسر اختيـــار هوميروس له دون كل الأبطال . لقـــد كان الشعب اليـــونانى حريصا على أن يستمع إلى مغامرات البحر ، وهو شعب قـــد بنى مجده على خوض عبـــاب اليم ، والتماس أسباب الحيـــاة فى الأراضى النائيـــة حيث الغنى الذى لم يتوفر لبلادهم الفقيرة . ثم إن الصفـــة التى غلبت على أوليس فى الاليـــاذة هى الشجاعة المستنيرة يوم دعا داعيها . ولكن الزمن قـــد سار سيرته ، وأصبح الرجـــل اليونانى يجنح إلى تقـــدير صفات نفسية أخرى لا تقل عن الشجاعة قيمة فى نظره ،

لأنها صفاته التي يصدر عنهـا فى كل أموره • ومن بينهـا الحنكة ، وحسن التقـدير ، وفهم النفوس ، واللبـاقة فى معالجـة المشاكل والتغلب على الصعوبات •

ولهـذا عندما نمر من الاليـاذة إلى الأودسا نلمح فى شخصية أوليس تطورا لا ريب أنه قـد ماشى تطور العقلية اليونانية كلها ، بحيث نجـد فى تصوير هوميروس له حقيقـة الروح الاغريقيـة •

والذى لا شـك فيـه أن الأدب وبخاصـة أدب شـاعر واقعى كهوميروس — أدل على عقلية الشعوب من أى تراث روحى آخر • فالفلاسفة كأفلاطون أو الرواقيين قـد يحدثوننـا عن المثـل الأعلى فى الأخلاق ، فيراه أفلاطون فى أن نعيش وفقـا لطبيعتنا البشرية ، فلا نقـاوم غرائزنا ولا نحـاول قتلهـا ، بل نتركهـا تنمو نمـوا طبيعيـا حتى لا نفسد حياتنـا بكبتهـا ، مكتفين بأن نتخـذ العقل رقيبـا يحـد من إسرافهـا ويلائم بين تنـافرها • ولقـد يدعونا الرواقيون إلى ألا نتـأثر بالأحداث ، فلا تتخلع قلوبنـا للحزن ، ولا تخف أحلامنـا للطرب • ولكن هـذه كلهـا مثل عليـا ، والمثل الأعلى موضع رغبـة ، ونحن لا نرغب إلا فيما يعوزنا •

والأدب ليس كذلك ، ففيـه نجـد حقيقـة العقليـة اليونانيـة كمـا كانت • وعند هوميروس ما يعيننـا على فهمها ، فمن بين أبطاله العنيف الانفعال القاسى القلب فى نبل وإباء كأخيل ، ومنهم الشجاع فى روية ، الداهيـة عن ذكاء نافـذ كأوليس •

والذى لا ريب فيـه أن أوليس لم يفقـد شيئا من صفاته التى عرفناها عنـه فى الاليـاذة ، ولكن الأمر أمر نسب وتطور • والذى يبـدو لنـا فى الأودسا هو أن زمن البطولة الأولى كان قـد ولى ، وكأن اليونان قـد أنكروا ما فى خلق أبطالهم من إسراف ، فأصبح البطـل كأوليس أقرب إلى البشر منـه إلى الآلهـة ، أقرب إلى الحيـاة منـه إلى المثل الأعلى •

لم يعد أوليس البطل المقـــدام الذى يغامر فى حرب مثالية يبغى منها أن يستنقذ هيلانة رمز الجمال الكامل ، بل ذلك الداهية الخصب الذكاء ، ذلك السائح الطلعة الذى يجوب آفاق البحر الأبيض ليرى بعينى رأسه ويعلم عن تجربة ، فلا يعود إلى وطنـــه إلا وقـــد ملأ ناظريه بجمال ما شاهد ، وأغنى ذاكرته بما سمع من قصص • وليس من شـــك فى أن ألزم الصفات لرجل يسعى إلى ما كان يسعى إليـــه أوليس هى القـــدرة على التمييز عن فطنـــه ومهارة ، حتى يستطيع أن يتدبر لكل حالة حلا موفقـــا ولكل مأزق مخرجا يسيرا •

نعم إنه لا يزال يحتفظ فى الأودسا بصفـــاته الطبيعيـــة وأخصها الشـــجاعة والصبر • فقواه الجسمية لا تزال سليمة وإرادته القوية ما برحت فى قبضة يده يتصرف فيهـــا كيفما شاء ، ولكنـــا نحس أن قواه قـــد ازدادت خضوعا لحكمته ودهائه ، بل ومكره ، فهو لم يعد بطلا خارقا بل بشرا كسائر البشر •

أنظر إلى وصف لاودامـوس **Laodamos** أحـــد أشراف الفياسيين **Phéaciens** عندما ألقـــاه البحر بينهم « أيها الأصدقاء دعونا نسأل هـــذا الأجنبى عمـــا خاض من تلك المعارك المجيـــدة التى قوم فيها جسمه • وفى منظره ما ينبىء بقوة الأبطال • ما أقوى جوانحه ! وما أصلب أرجله ! وما أعرض صدره ! إن فى مناكبه صلابة ، وبأذرعه أعصاب تنبض • إن الشباب لم يفـــارقه وإن كانت المحن قـــد هدت من كيـــانه » •

وما إن وطئت قدماه أرض إيتـــاكا وطنـــه حتى بدا له أن يتنكر فى ملابس شحاذ كى لا ينكشف أمره وهو لا يعـــلم بعد إلام ســـار ملكه ، أو انتهى الأمر بزوجتـــه النبيـــلة بنلوب وابنـــه الشـــجاع تليماك ، ومع ذلك فمن خلف الأسمال كانت عضلاته تطالع النـــاظر • وهو يصف نفسه فيقول : « لقـــد صرت إلى خريف الحيـــاة ، ولكن أليس فى قوة القش ما ينبىء بنوع الحصاد » •

وفى حرص هوميروس على أن يحتفظ لهـــذا الشيخ بقواه الجسمية

ومظاهرها التى يصف فى دقة ، ما يدل على اتجاه مطرد عند اليونان ، فهم شعب كان يرى دائما فى قوة الجسم تفوقا ، وذلك لا فى عصور بداوتهم الأولى فحسب ، بل فى كل مراحــل تاريخهم ، وآيــة ذلك حرصهم المستمر على الرياضة البدنيــة • ألســنا نذكر أن أفلاطون نفسه قــد حصر فيها هى والموسيقى والعلوم الرياضية مواد التربية بجمهوريتــه • والتربيــة عندهم لم تكن تحصيلا أو إعدادا لمهنــة ، بل تكوينــا الملكات جسمية كانت أو روحية • ثم هل أدل على فطنتهم لصحة الجسم وجمــاله وقوته من أن نرى سقراط نفســه ، سقراط الشيخ ، يحرص على أن يتعلم الرقص ليقلل من قبح جسمه المنبعج ويقوى من ضعفــه ، فيقول لأصدقائه وتلاميذه وقــد اجتمعوا يوما بمنزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أتضحكون منى لأنى أريد برياضة جسمى أن أتعهد صحتى ، فأتمتع بأكل هنىء ونوم سليم ؟ ! أتضحكون لأنكم تعتقــدون أن شيخا مثلى لن يصاحب مدربا رياضيا إلى الخلاء فيعرى جسمه أمام الجماهير ، بل سيقنع بغرفة طعــام كهــذه التى يكتفى بهــا هــذا الغــلام ؟ ! أتضحكون لأنى سأتمرن فى الشتاء تحت السقف ، وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ، أم تضحكون لأننى رحت ببطن كبير إلى حــد ما ، فأردت أن أرده إلى حجم معقول ؟ » وفى هــذا يقول شاعرهم أنا كريون : « عندما يرقص الشيخ لا ترى فيــه عجوزا غير شعره ، وأما روحه فلا تزال فتيــة » •

وفى كل هــذا ما لا يدع مجــالا للشك فى أن أوليس كما يصوره هوميروس يمثل بمتــانة جسمه صفــة كان اليونان يحرصون عليهــا كل الحرص • والكثير من شعوب أوروبا لا يزالون إلى اليوم يرون ما كان يراه اليونان ، من أن قوة الجسم فضيلة لا تقــل أهميــة عن الفضــائل الروحيــة ، وإنه لمن الحمق أن نحتقرها أو نرى فيهــا أمرا ثانويا •

ومع ذلك فقوة جسم أوليس لم تعــد شيئا إلى جوار قوة إرادته ونفــاذ ذكائه .

ولكم من مرة أوشك الموت أن يتلقفــه لولا تملكه لنفسه ، ونحن لا نعرف ملاحا ســواه مر بمضيق مســينا وسمع من أعلى الصخور نداء السيرين Sirenes الساحرات الصوت ثم صمد لإغرائهن . قالوا إنه أمر رجاله فشدوا وثاقه إلى شراع السفينة على أن يزيدوه شــدا كلما طلب إليهم أن يحلوه ، وما الوثاق إلا رمز لسيطرته على أهوائه . وهكذا مرت سفينته دون أن تتحطم بالصخور كما تحطمت من قبلها ومن بعدها سفن أخــذ ربانهــا بعــذوبة الصوت فدنوا ليلقوا حتفهم . وبفضل تلك السيطرة أيضــا قاوم كالبسو Calibso الإلهيــة الجمال ، عندما أرادت أن تستبقيه فى كهفها بإحدى الجزر زوجا لهــا ، كما انتصر على سرسيه Cerce وعلى السكلوب المخيف . ثم على بوزيدون نفسه إله البحر القاسى . أوليس أقوى من انصاف الآلهــة بل ومن الآلهة ، لأنه قابض على زمام أمره ، وقــد انعقــد عزمه على أن يعود إلى مملكته حيث زوجته الوفية بنلوب Penelope التى كانت تنتظره فى صبر منــذ سنين ، والتى لم تكن تقــل عنــه دهاء ، وقــد رأت خطابهــا الكثيرين وخشيت بأسهم فوعدتهم أن تختــار لنفسها من بينهم زوجا بعد الفراغ من ثوب كانت تطرزه ، ولكنهــا أخذت تنقض بالليــل ما تعمله فى النهار ، وبذلك لم تنتــه حتى عاد زوجهــا فأنقــذها .

ثم أية مقــدرة على كبت مشاعره وإخفــاء ما يثور بنفســه من انفعال ! انظر إليــه وقــد عاد متنكرا إلى بيتــه وزوجتــه تجهل حقيقتــه ، فتتحدث عن أوليس الغــائب أرق الحديث . « وعنــدما رأى بكاء زوجته الموا استشعر بأعماق قلبه رحمة قوية ، ولكن عيناه لم تتحرك منهما حدقــة بجفنيه الساكنين كأنهما من صخر أو حديد . ذلك لأنه يحــذق فن التصنع إلى حــد يستطيع معــه أن يحبس دموعه » .

وما هى إلا لحظة حتى أوشك أن ينفجر من جـديد إذ رأى نفسه بقصره شحاذا مزدرى يتلقى بقـلب جريح من عشـاق زوجتـه كل إهانة ، ويرى ما يلحقونه ببيتـه من أذى اهتز قلبـه بين أضلعه ، وكما ترسل الكلبة الجارحة نباحهـا القوى وتتحرق للقتال إذا دنـا غريب من أبنائها وهى تسير بينهم لحمايتهم ، كذلك زأر قلب البطل وقـد أنهكه تحمل ما يرى من هوان • ولكنه لم يلبث أن ضرب على صدره ليلزم الصمت وثبـات قلبـه الفتى • « هدوءا أيهـا القلب ! لقـد تحملت فوق ما ترى اليوم من محن • لقـد رأيت بعينى رأسك ذلك السكلوب الذى لا يقهـر يفترس رفاقـك الشجعان فثبت حتى استطعت بحكمتك أن تنجو من مغـارته حيث كان الهلاك محققـا • هكذا زجر قلبـه فسكن وكأنه قـد أوثق فخمـدت فيه كل نأمة » •

وتجلد بطلنـا مشركا معه ابنـه تليماك ، وقـد عاد من رحلة قام بهـا بحثـا عن أبيـه ، وأخـذ يعد لهؤلاء العشاق الوقحين وسائل الهلاك فى دهاء محكم ، قال لولده : « إننى أرى كل شىء وما يفلت منى شىء » • وتلك هى رؤية الممكن ، وحدوده لا يعدوها عنـد وضع الخطط • وما إن علم بوفرة أعـدائه حتى لزم التنكر • وهو فى ذلك مثل الكثير من قادة اليونان وكلنـا يذكر بلا ريب فيليب المقـدونى الذى عرف كيف يكسو الأسـد جلد الثعلب •

ولكن دهاء أوليس لم يصبح بعـد خسة ، ومصدره فهم لنفوس البشر واسـتغلال لشهواتهم ، ولئن نصب شراكا فهو لم ينصبهـا إلا للحمقى • ومن الواضح أن هـذا الدهاء هو الصفة التى تعلقت الأودسا بإظهارها • وفى أحـد مواضعها تخبرنا هيلانة أصل البلاء إنه قـد بلغ بأوليس الدهاء أن دخل طروادة متنكرا فى ثياب شحاذ (شنشنة قديمـة ! !) فرأى كل شىء قبل أن يفطن إليـه أحـد ، ثم قتل نفرا من رؤساء المدينـة وولى » • ونحن نعـلم من مصدر آخر أن سقوط طروادة كان بحيـلة من حيله ، إذ أمر بصنع حصان كبير من الخشب كمن ببطنـه هو ونفر من الجند ، ثم تظاهر اليونان

بالانسحاب مخلفين الحصان وراءهم ، فأتى أهل طروادة أنه غنيمة باردة ، ولما كانت أسوار المدينة وأبوابها لا تسمح بدخوله فقد هدموا جانبا منها وأدخلوه . وما إن أحس أوليس وأصحابه أنهم قد صاروا فى قلب المدينة حتى وثبوا من الحصان وقتلوا الحراس ، وكر اليونان ، فاقتحموا على العدو مأواه ، وبذا سقطت طروادة ، وأصبح « حصانهم » مضرب الأمثال للخديعة .

وهذا الدهاء هو نفسه الذى مكن لأوليس من رقاب الخطاب ، فإنه لم يزل يعد العدة ويستوثق من الوسائل ، حتى تهيأت له كل ملابسات النجاح ، فأغلق باب القصر وفتك بأعدائه أشد فتك . وما إن تم له النصر حتى ظهرت قسوته كما عهدناها فى الإلياذة . وأوضح ما نلمح من تلك القسوة هو شنقه للقوادات بسقف منزله ، فبذلك منظر شابت لهوله النواصى . قالوا كنت تراهن يومئذ وقد « علقن كالعصافير تهز أرجلها برهة ثم تفارق الحياة » .

ولكننا رغم هذه القسوة ورغم ذلك الدهاء الماكر لا نستطيع أن نرى فى أوليس خلقا ذميما ، فقسوته لها ما يبررها ، ودهاؤه لم يستخدمه إلا فى الحرب أو دفاعا عن شرفه ، وردا لحمق البشر وأذاهم . بل نحن لا نستطيع إلا أن نعجب لرقته فى حديث له بإحدى الجزر التى مر بها حيث لقى نوزيكا **Nausica** بنت الملك ، وكانت فتاة جميلة وديعة ، فعرف كيف يلاطفها ويحييها ويلين لها القول على نحو أشبه بأخلاق الفروسية التى عرفناها فى القرون الوسطى منها بأخلاق البداوة الإغريقية التى كانت سائدة فى ذلك الحين .

ثم إنه كان يحب وطنه ، وهذا خلق بلا ريب بالغ النبل ، استمع إليه يتحدث وقد سئل عن ذلك الوطن : « بلدى إيتاكا الشهيرة التى تنظر إليها الشمس وقت الغروب . فيها ترف الأوراق الكثيفة على سطح النيريت **Neiret** عند الظهيرة وأما الفجر

فينثر حولها عـددا وفيرا من الجزر الخصبة ، دوليكيم Dulicheum وساميـه Same وزاكانت Zacintate الخضراء . بلدى تقـع على مقربة من ارض اليونان ، جزيرة تقطعها الصخور ولكنها منبت فتيـة بواسل . لا ! ليس فى الأرض مـكان أحب إلى قلبى منهـا . عبثـا حاولت كالبسو أن تستبقينى بكهفها لتخصنى بشرف الزواج بهـا . عبثـا حاولت سرسـيه العـالمة بكل ما يعـرف السحر من حيل أن تعرض على العـرض نفسه فتحتفظ بى موثقـا بحبائل الزواج . لقـد تبـددت جهـودهن هبـاء ، فعجـزن عن إمالة قلبى ، وذلك لأن أرض الوطن وما تقـل من أهـل وهبـونا الحيـاة ، واتصلت قلوبنـا بقاوبهـم ، قـد أوحت إلى بحب رقيـق لا يستطيع كـل ما فى الأرض من مجد وخيرات أن يصرفنى عنـه » .

ونحن نعلم أنه لم يكد يطأ أرض الوطن حتى قبـل ترابه ورفع بصره إلى ربات اليم شاكرا أن قدنه إليـه .

ذلك هـو أوليس الأودسـا : بقيـة من صحة الجسم وشجاعة القلب ، ثـم عقـل كبـير ودهاء خصب ، قسـوة حيث تغتفـر القسوة ، ولين ورقـة قلب حيث تهتز النفس ويثـور الفـؤاد . ولـكنه بلا ريب لـم يعـد أوليس الإليـاذة ، وأكبر دليـل على ذلك أن نـراه يوما يستمع إلى شـاعر متجـول بإحـدى الجـزر فينصت . وإذا بالشـاعر يتغنى بحـرب طـروادة فيغطى بطلنـا المغـرار رأسه ويأخـذ فى البكاء . ونحن على ثقـة من أنه لو رآه زملاؤه أبطال الإليـاذة فى ذلك اليـوم لأنكروه .

لا . إن أوليس لم يعـد من الصلابة بحيث كان ، وقـد أخـذ التفـكير يتغلب فى نفسـه على خشـونة البـداوة . أخـذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخـذت الرقة تنفـذ إلى صلابة قلبـه . أخـذ يتحضر . وهـذا أمر لا عيب فيـه . ولـكن طريق الحضارة طريق زلق سوف نراه فى الحديث الآتى ينتهى برجلنـا كمـا انتهى بالشعب اليـونانى كله إلى بوادر انحلال خلقى سـتكون إحـدى

مظاهره ذلك الخبث القبيح الذى يصدر عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctéte مسرحية سوفكليس الروائى العظيم .

(٣)

فى فيلوكتت

تركنا أوليس وقد أصبح فى الأوديسا أقدر على الدهاء مما عهدناه من قبل . وها نحن نلقاه اليوم فى فيلوكتت Philôctéte مسرحية سوفوكليس الشاعر العظيم ، فإذا بنا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وإذا بنا فى أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتعدد السوفسطائيون فأخذت بوادر الانحلال تدب فى الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها فى تاريخ كل الشعوب ، فالتفكير ملكة خبيثة كثيرا ما تنتهى بالإنسان إلى تبرير كل الوسائل ، والتماس كافة السبل لما نسعى إليه من أهداف ، يسكت صوت الضمير ، وتختفى من النفس معانى النبل التى تتوافر عادة فى البداوة .

وهذا ما كان من أمر أوليس رمز الشعب اليونانى كله ، فهو لم يعد الداهية الشجاع ، بل الخبيث الجبان الذى لا يتورع عن شىء ، ولا يقيم لمبادىء الخلق أى وزن . ولا أدل على ذلك من أن ننظر فى موقفه من فيلوكتت أحد أبطال تساليا الخالدى الذكر .

« فيلوكتت » بطل أبى النفس بعيد الهمة . لاقاه يوما هرقل فاتخذ منه رفيقا ، صاحبه فى كثير من أعمال بطولته التى خلدت ذكره ، إلى أن حم القضاء فمات هرقل برداء مسموم أعطته إياه زوجته « ديجانير » خطأ ، فى قصة مؤثرة . ولما كان هرقل يحب « فيلوكتت » ، فقد أعطاه عند احتضاره قوسه الشهيرة وأسهمه النافذة ، وأوصاه أن يقوم بنفسه على إحراق جثته كما جرت عادة القدماء .

وعندما هم اليونان بالانتقام « لمينيلاس » ، ونادوا بإعداد السفن والرجال للابحار إلى آسيا الصغرى ، لم يتخلف فيلوكتت ،

بل قـدم ست سفن كبيرة زودها بالجند ، وأبحر هو على رأسهم ، ولـكن مدن الأيام شاءت إلا أن تلدغه حيـة بإحـدى الجزر التى رسوا بهـا أثنـاء رحلتهـم الطـويلة • لدغتـه فى رجله ، فنغـر الجرح واشـتدت رائحته الكريهة فتشاور الرؤساء فى أمره • ومن عجب أن نرى « أوليس » يدعوهم إلى تركه بجـزيرة « لمنـوس » تخلصـا منـه إذ لم يعـد صالحا لشئ • وفى هـذا ما يحـزن • فقـد سـبق أن رأينـا أوليس نفسـه فى الإليـاذة يحرص على ألا يتخلى عن زميله « ديوميـد » عنـدما جـرح فى الغـزوة التى أشتركا فيهـا • وقـد أحاط بهمـا العـدو والليـل حالك الظلام • وهوميروس يحدثنا أنه قـد أظهـر عنـدئذ نبلا وشجاعة لا حـد لجمالها ، إذ ضمد جراح رفيقه وعاد به سالمـا • ولكن الزمن كمـا قلنـا لم يعـد زمن البطولة الـكريمة ، بل النفـع المبـاشر الذى يستطيع كل فرد أن يجنيه من زميله •

ترك اليـونان إذن « فيلوكتت » نـزولا على إرادة أوليس الذى تولى بنفسه تنفيـذ الجريمة ووصلت الحملة إلى طـروادة ، وكان ما كان من حصـار المدينـة عشر سنوات دون التمكن من أخذها ، حتى مل الجند وطلبوا إلى رؤسائهم أن يستشيروا عرافا لعله يدلهم على سر أو ينبئهم بوسيلة • وقال العراف : « إن طروادة لن تسقط إلا على يد من يمتلك قوس هرقل وأسهمه » فسقط فى يـد الجميع وحارت الألبـاب ، إذ من يستطيـع أن يعـود إلى جزيرة لمنـوس بعـد عشر سنين ليطلب إلى فيلوكتت أن يعطيهـم أسلحته أو أن يخف إلى نجدتهم ؟

***

وسـاءت الأمـور ، فأخيـل نفسه قـد قتـل ، وأعجب ما فى الأمر أن تـكون وفاته بسهـم « باريس » حلس النسـاء فيصيب كعبه ، ويتساءل النـاس جميعا : كيف يموت بطل — لم تر الأرض مثله — بإصابة فى كعبه ، ويستنـكرون ميتـة كهـذه • ولـكنهم

يقتنعون بإرادة القضاء ، إذ يبحثون فيعلمون أن أخيل كان منيع الجسم كله ، وأنه لم يكن فيه موضع ضعف غير كعبه ، وذلك لأن « زيس » كان قد أوصى « تيتيس » ربة البحار وأم البطل ، أن تغمس ولدها عند ميلاده فى الماء عدة مرات حتى يبتل جسمه فيصبح فى مناعة تامة . ولكن الأم المسكينة نسيت أن تبلل الكعب أيضا ، إذ كانت يدها تغطيه وهى تنكس ولدها فى البحر . وفى الحق إنها إرادة الآلهة ، فالخلود لم يكتب لأحد . وإلى اليوم لا يزال « كعب أخيل » مضرب الأمثال لموضع الضعف فى كل رجل مهما كانت قوته ومهما علا مجده .

مات إذن أخيل ، ولكنه خلف ولدا لا يقل عن أبيه شجاعة . خلف « نيوبتولم » Neobtoléme أى « القائد الحديث » ، وقد رزقه من إحدى أميرات جزيرة سركوس Syrcos ، حيث قادته إرادة الآلهة قبل نشوب الحرب . وكان أوليس يعلم بوجود هذا الشبل ويؤمن بأنه سيكون خير عوض عن أبيه . ونظر فرأى أنه لن يستطيع أحد أن يقترب من فيلوكتت الثائر المتألم الحامى الحفيظة غير هذا الطفل المقدام ، الساذج الشجاعة . فاقترح أن يسير هو إليه فى جزيرة سركوس ، وأن يخبره بنبأ وفاة ابيه ثم يطلب إليه أن يصاحبه إلى جزيرة « لمنوس » . حيث فيلوكتت الذى لم يكن بد من إحضاره لكى تتحقق نبوءة العراف .

وصل أوليس إلى سركوس ، وهناك وجد نيوبتولم ، فأخذ يصطنع كل الحيل ليقنعه بما يريد . من ذلك أنه أعطاه أسلحة أخيل أبيه . ونحن نذكر أن اليونان كانوا قد آثروا أوليس — لدهائه — بتلك الأسلحة دون « أياس » الذى جن لهذه الإهانة وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، مما زاد فى مصاعب الجيش اليونانى وقد أخذ يفقد خيرة أبطاله الواحد بعد الآخر ، فهون ذلك على أوليس كل تضحية فى سبيل النصر ، بله النجاة .

ومن حيله الأخرى لإغراء نيوبتولم أن حـرك فيـه كبرياء الطفل ، ولوح له برايات المجد • قال : « إن طـروادة ستسقط على يـديك إذا استطعت أن تحضر فيلوكتت ومعـه أسلحـة هرقل التى ورثهـا عنـد موت ذلك البطل الشهير ، فيلوكتت الذى قضت إرادة الآلهـة أن يكون موت باريس قاتل أبيك على يديه ، وهـو الذى سيساعدك على دخـول طروادة » •

ولم يزل أوليس بنيوبتولم حتى أقنعه بالسير معـه إلى لمنوس • وهنـا تبـدأ مسرحيه سوفوكليس ، فقـد وصل هـذا الداهيـة الخبيث إلى الجزيرة ومعـه طفلنا الشهـم ، وجاء دور العمـل ، فرأينا أوليس المـاكر الجبان يظل فى الخلف ليـدفع نيوبتولم إلى المخاطرة ، وهـو يعلم أن فيلوكتت رجـل أنزلت به الخيانة أشـد المحن ، فعرفت نفسه المـرارة ، وقـد قضى بتلك الجزيرة — التى يأبى الشاعر إلا أن يجعل منهـا أرضا جدباء موحشة — عشر سنين وذكريات مجده الذى ضـاع ، ووطنـه الذى حرم منـه تلح على قلبـه فيثور ويتحرق للانتقام ، ثـم إنه يملك قوسـا وأسلحـة لا تزال حتى اليـوم خالدة الشهرة • والذى لا شك فيـه أنه كان يحقد على كل اليـونان ، وينتظـر يوما يستطيع فيـه أن يسيـل دماءهم جزاء وفاقا لغـدرهم به • ومـع ذلك فلننظـر بأى خبث يدفع أوليس طفلنا إلى الهلاك •

« يجب أن تخلب لب فيلو كتت بقول خادع • عندما يسألك من أنت ومن أين أتيت ، قل له إنك ابن أخيل • وهذا حق لا مواربة فيـه ! تظاهر أنك عائد إلى وطنك بعد أن تركت أسطول اليونان موضع بغضك العميق ! أنت الذى استدرجوك بأوضع التوسلات عند ما لم يكن لهم غنى عنك لأخذ طروادة ثم لم يروك أهلا لأن ترث أسـلحة أخيـل فأعطوها لأوليس مع أنك أحق بها من كل إنسان ! وهنـا تستطيع أن تشبعنى سباباً • وأنت إذ تفعل ذلك لن تسىء إلى فى شىء ، فى حين أنك لو اتخذت سبيلا آخر لسببت لليونان كافة أقسى المحن • ثم إنك

لن تستطيع هدم سياج طروادة مالم تستول على ما يملك هذا الرجل من قوس واسهم •

« ولو أننى ذهبت بنفسى لحديثه لما كان فى ذلك شىء من الاطمئنان أو ضمان السلامة ، بينما تستطيع أنت ذلك دون أية مجازفة • ولو انه أحس بوجودى وقوسه بيده لضعت ولضعت معى كرفيق سفرى • يجب عليك أن تحتال لسرقة سلاحه » •

ويطرق « نيو بتولم » ، ويحس أوليس بما ثار فى نفسه ، فيبادره بقوله المعسول الذى ينفث السم : « لست أجهل يا ولدى أن طبعك لا يسمح لك بأن تفوه بكلمات خادعة ، أو أن تأتى بأعمال ملتوية ، ومع ذلك ما أحلى أن نفوز بالنصر ! الجرأة إذن الجرأة ! حتى نفوز بما نبغى • وبعد ذلك لدينا متسع لنكون أمناء صادقين • عليك الآن أن تضحى بصدقك وأمانتك مدى جزء صغير من يومنا هذا • وبعد ذلك لك أن تكون أبد السنين أشرف الرجال » •

وهذا موضع الانحلال • داء عضال كم نخر فى عظام الإنسانية منذ أقدم العصور ، إلى أن جاء ميكافلى ، المفكر الإيطالى المعروف ، فأقامه مذهباً معبراً عنه فى كتابه « الأمير » بجملته المسفة : « الغاية تبرر الوسائل » • وتلك نغمات لم نسمعها من أوليس الإلياذة ، بل ولا من اوليس الأودسا • ولكنها بوادر الفساد التى أخذت تنتشر فى القرن الخامس عندما ظهرت الفلسفة وامتدت بسفسطتها إلى الأخلاق التقليدية ، تلقى الشك فى قيمتها ، وتلتمس للخروج عليها تأويل باطلة •

ورفض نيوبتلم عرض أوليس • رفضه لأنه ابن أخيل • ولقد كان أبوه يفضل الموت على أن يفكر فى شىء ويفعل غيره • نيوبتلم شاب كريم الطبع نبيل الخلق ، فكيف يستطيع أن يكذب ويغدر وينافق فى جبن ؟ ! وهل هناك غاية مهما جلت أو نبلت تستطيع أن تبرر العيوب الخلقية ؟ ومع ذلك لا ييأس أوليس من إغرائه :

« وأنا أيضا — يا ابن البطل المغوار عندما كنت شابا كنت أطول

ذراعا من لسان . وأما اليوم وقد حنكتنى التجارب فقد أصبحت أعتقد أن الأحياء يسيطر عليهم اللسان أكثر مما يسيطر الذراع » .

وهذه سفسطة جورجياس (١) بعينها . ويصبح نيوبتولم مغضبا من دعوة أوليس له إلى الكذب . ولكن هذا الأخير يجيبه فى برودة : « إنه ليس فى الكذب عار ما دام فيه منجاة لنا ، بل ما دام فيه نفع لنا » .

ولا غرابة فى ذلك ، فأوليس لم يعد يدعو « بالاس » الإلهة النبيلة عند ما يحزبه أمر ، بل هرميس إله التجار واللصوص والمنفعة . لقد تنكر أوليس لآلهته القدماء ومعه الشعب اليونانى كله ، وهو طبعا يرفض ما يصفه به أعداؤه من انحطاط ، ويحاول أن يرفع كذبه إلى مستوى الفلسفة فيجعل منه مذهبا نظريا . ألم يقل عندما سمع شباب فيلوكتت له : « باستطاعتى أن أرد عليه ردا طويلا . ولكن الوقت لا يسمح لى بذلك اليوم . وأما الآن فليس لدى إلا شىء واحد أجيب به ، وهو : إننى كما يقتضى كل ظرف . فحيث تطلب الاستقامة والعدل لا ترى أعدل منى ولا أقوم ، ومع ذلك فقد أملت على طبيعتى شهوة الطموح إلى النصر دائما » . وهنا يلحق سوفوكليس بالمؤرخ توسيديد عندما يصف لنا أخلاق اليونان إبان الحرب البليبونيزية .

ولقد كان الأمر يهون لو أن الفساد لم ينته بأن يمتد إلى نيوبتولم نفسه ، فأوليس لم يزل به يغريه بالمجد والنصر حتى سخره لما أراد . وذوو النظر يجمعون على أن الصفة التى وقعت فى نفس الطفل عند تملق أوليس له لم تكن الصفة التقليدية : « أيها الشاب الجميل الخير » بل : « أيها الشاب الحكيم الخير » .

---

(١) كبير السفسطائيين .

وفى استبدال أوليس للفظة « الجميل » بلفظة « الحكيم » ما يلخص تطور الروح اليونانية كلها . فهم لم يعودوا يقدرون جمال الجسم وقوته وشجاعته تقديرهم للذكاء والدهاء والمكر التى أصبحوا يسمونها حكمة .

وهكذا نرى نيوبتولم يسير إلى فيلوكتت ويخدعه بالكذب فيدعى أنه سيعود إلى سيركوس وأنه لا يعرف محدثه ، ولا سبب محنته ، كما يتظاهر بأنه هو الآخر فريسة لظلم اليونان ، وهو يسرف فى ذم أوليس وغيره من الأبطال ويتهمهم بالسرقة والخيانة : سرقة أسلحة أبيه — مع أن أوليس كان قد أعادها إليه — ثم خيانة بعضهم بعضا . وهكذا نرى ابن اخيل نفسه يقلب الحقائق ، ولكنه أحد إغريقى القرن الخامس ، ولكن أستاذه أوليس .

وانتهى به الأمر إلى أخذ الأسلحة من فيلوكتت ، وقاد الرجل المسكين إلى الشاطىء ليبحروا جميعا . وهنا عاودت نيوبتولم بقية من نبل طبعه الأصيل ، فاعترف بالحقيقة ظانا أن فيلوكتت سيعفو عما كان . ولكن فيلوكتت كان على الخلق القديم ، كان لا يزال صلب العناد قوى النفس ، وكأنى به يستشعر الخزى كلما ذكر تلك اللحظة المشئومة التى فتح فيها عينيه وهو ملقى على الشاطىء ، فرأى السفن تختفى فى الأفق بعد أن خلفته منبوذا لجراحه الدامية . نعم لقد مضى على ذلك سنوات ولكن الألم لم يبرح ، والجرح لم يلتئم . فأى غرابة فى أن يثور عندما يخبره نيوبتولم بهذه الخيانة الجديدة ! أى غرابة فى أن يصيح طالبا أسلحته ليقضى على نفسه ويقطع أوصاله غيظا ، إذ عاد فوقع فريسة هينة للغدر والاحتيال ، وقد أصبح لا يريد شفاء ولا مجدا ، بل يرى المجد والشفاء فى أن ينتقم لنفسه ، وأن يرى هلاك اليونان بعد عجزهم عن الاستيلاء على طروادة التى أفنت أبطالهم وأرتهم من المحن ألوانا عشر سنوات .

وحار أوليس ونيوبتولم فى الأمر ، وقد نفذت منهما الحيل ، ولم يبق إلا أن يطلبا عون الآلهة • وهذا ما كان ، فقد ترفق زيس فأرسل شبح هرقل إلى فيلوكتت ، يطلب ، إليه أن يسير إلى طروادة حيث يجد الشفاء ويصيب المجد بقتل باريس قاتل أخيل أكبر أبطال اليونان ، ثم بالمساهمة فى أخذ طروادة • وأطاع فيلوكتت وقد هدأت نفسه ، فودع لمنوس مقر محنته ، كما ودع البحر الصاخب من حوله أجمل الوداع ، ووصل إلى طروادة حيث تحققت نبوءات العراف وإرادة الآلهة • وبعد أن تم له ما أصاب من مجد عاد إلى وطنه فى رحلة لم تستغرق غير سنة واحدة • وأما أوليس فقد ظل يتخبط بالبحار عشر سنوات كما رأينا فى الأودسا • عاد فيلوكتت إلى وطنه قبل أوليس بتسع سنوات ، ولعل فى ذلك بعض العوض عما أنزلت به الأقدار من محن •

أوليس لم يعد إذن كما عهدناه ، ومع ذلك فنحن لا نزال فى عصر سوفوكليس ، فما بالكم عندما يتراخى الزمن قليلا إلى عصر أوربيدس الذى يخيل إلينا أن بينه وبين سوفوكليس قرونا • ولكن الزمن لا يقاس بالسنين بل بما فيه من أحداث • ولقد كانت الحياة الفكرية فى ذلك الحين مستمرة التقدم • وبتقدمها أخذت الأخلاق تنحل ، حتى رأينا رجلا كالسبياد الزعيم الشهير لا يتحرج أن ينضم إلى الأعداء ضد وطنه مرة ومرة ، ما دام يرى فى ذلك تحقيقا لمطامعه المسرفة •

أوليس سوفكليس يمثل مرحلة فى تاريخ اليونان • وهو مهما كانت عيوبه لم يصل بعد إلى ما نراه فى تاريخهم المتأخر عندما ينتهى بهم الأمر إلى السقوط فى يد المقدونيين ثم الرومان ومن تبعهم ، إذ ظلوا مستبعدين ولم يستطيعوا استرداد استقلالهم إلا أخيرا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر •

(٤)

فى الآداب الحديثة

لم يمت أوليس بموت الشعب اليونانى وسقوطه فى قبضة الاستعمار قرونا طويلة . فأوليس كما قلنا من خلق العبقرية ، وهذه لا سلطان للبشر عليها بل ولا للزمن ، فقد عادت الانسانية أيام البعث العلمى تنقب عن ذلك التراث الجليل الذى لم يكن من الممكن أن تطمس الأيام معالمه إلى غير رجعة .

عادت الانسانية إلى تراث اليونان تعاود فيه البصر التماسا لوحى جديد ، وكان أوليس ممن استوقف الناظرين ، وذلك لما اجتمعت إليه من صفات وتركزت فيه من رموز . فهو لم يكن أنموذج الشعب الإغريقى فى مراحله التاريخية المختلفة فحسب ، بل أنموذجا بشريا فيه الكثير من نواحينا الإنسانية التى نمتلكها أو نود أن نمتلكها : فيه الحنين إلى الوطن والتلهف إلى العودة إليه مهما كان فى ذلك من مخاطرات ، فيه روح المغامرة التى تدفعنا إلى الضرب فى الأرض والبحار لنفيد تجارب ونثرى بما نشاهد من صور . فيه حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة التى لا تعدل بالفهم شيئا ولا يردها عن ذاك شىء . فيه كل هذا وفوق هذا من المعانى التى ما زلنا نحرص عليها أو نقف دونها .

أوليس شخصية غنية . نظر فيها كل شاعر وكاتب فوجد ما يريد . فدانتى يأبى إلا أن يحدثنا عما صار إليه بطلنا من مصير وهو ينبئنا أنه قد لقيه فى « الجحيم » وتسقط حديثه فإذا به يقول : « عند ما غادرت سيرسيه التى احتفظت بى مختبئا أكثر من عام لم تستطع صورة ولدى العزيز ولا برى بوالدى الشيخ بل ولا الحب الذى كان مصدر سعادة لبنلوب . لم يستطع شىء من كل هذا أن يهزم فى نفسى اللهفة إلى معرفة العالم .

لقــد رأيت كل الشواطىء ، حتى إسبانيا ومراكش وجزيرة سردينيا وغيرها من الجزر التى يبللها البحر • لقــد كنت أنا ورفاقى شــيوخا مثقلين عنــد ما وصلنا إلى ذلك المضيق الضيق الذى وضــع هرقل عنــده الحــدود لينــذر الرجال أن لا يعــدوه • وكنت قــد خلفت أشبيلية عن يمينى وكانت سيتا قــد خلفتنى عن اليسار ، عنــدئذ قلت : أيهــا الاخوان الذين وصلوا المغــرب خلال آلاف المخاطر ! اتبعوا الشمس ولا تحجموا عن النفاذ ، بما بقى لــكم من حواس ــ إلى ذلك العالم الذى لا يســكنه أحــد والذى تولى الشمس عنــا لتضيئــه ، أذكروا من أنتم ، إذكروا أنــكم لم تولدوا لتعيشــوا كالدواب بل اتبحثــوا عن الفضيلة والمعــرفة • بهــذه الأقــوال الموجزة أثرت رفاقى ليســتمروا فى طريقهــم حتى لقــد وجــدت بعــد ذلك مشقة فى أن أثنيهم • أدرنا مؤخر السفينة نحــو الشرق واتخذنا من المجاذيف أجنحة نطير بهــا فى جنون متجهين باستمرار نحــو اليسار ، وصلنــا إلى حيث أصبحت أرى فى الليــل نجــوم القطب الآخر كلها • وأما قطبنا فــكان من الهبوط بحيث لا يرتفــع فوق أمواج البحــر • وأشبعل القمــر قبسنــه خمس مرات وأطفأه خمس مرات منــذ دخلنا إلى جوف البحــر وإذا بجبل يظهر معتما لبعــدنا عنــه ، وإن لاح لى أعلى من كــل ما رأيت من جبــال ، ففرحنا ، ولكن فرحنا لم يلبث أن انقلب دموعا ، إذ أتتنا « دوامة » من الأرض الجــديدة صدمت مقــدم السفينة ودارت بهــا مــع الموج ثلاث دورات وفى الرابعــة رفعت مؤخرها إلى أعلا وغرست مقدمها إلى أن ابتلعنا البحر » •

هــذا هــو المصير الذى تصــوره دانتى لأوليس ، ودانتى من رجال البعث الذين لم يكونوا يعدلون بالمعــرفة شيئا • فلا غــرابة إذن فى أن نراه ينتهى بأوليس إلى هــذا المــوت المجيد ، وقد هفت نفسه إلى استطلاع ما خلف مغــرب الشمس من عــوالم ، وعجزت كل روابطه بذويه عن أن تثنيــه عن السير للبحث عن تلك المعرفة •

وأما الشـاعر الفـرنسى الرقيـق دى بللى Du Bellay كبار شعراء فرنسـا فى القـرن السـادس عشر فلم ير فى أوليس إلا رمزا لمن يسعده الحظ فيقوم برحلة جميلة يفيـد منهـا تجـارب وحكمة ثم يعـود إلى أهله فرحا راضيـا • أوليس عنـده حنـين إلى الوطن ، ولقـد كان شـاعرنا ملحقا بالسلك السياسى بروما ، وهـو من مقاطعـة « أنجـو » الجميلة بفرنسا ، ولهـذه المقاطعة شهرة واسـعة لا نعـرف لهـا سببـا خاصا اللهـم إلا أن تـكون أشعار دى بللى هى التى خلقت حولها ذلك ذك الجو الشاعرى الجميل • قال الشاعر وقـد برحت به الغربة :

« سعيد من يقـوم برحلة جميلة كأوليس ، أو كذلك الذى استولى على الجزة الذهبية (يقصـد جازون) • ثم يعـود ليعيش بين أهله بقية حياته وقـد امتلأ خبرة وحكمة •

« وا أسفاه ! متى سأعود إلى رؤية مدفأة قريتنا الصغيرة ترسل دخانها • فى أى فصل سـأعود إلى رؤية حديقة منزلنا المسكين الذى يعـدل عندى مقاطعة بأكملها بل أكثر من ذلك •

المأوى الذى بناه أجـدادى أحلى عنـدى من قصـور الرومان الجسورة الجبـاه • اردواز سقوفهـا المـرهف أحلى من الرخام الصلب •

« لوارنا » — نهـر الغـال — أحلى من « التيبر » اللاتينى •

« الليريه » الصغير أجمل من جبـل « البلقان » وعذوبة « ألجو » أرق من هواء البحر » •

وفى انجلترا فى القـرن التـاسع عشر مثـل أوليس عند الشاعر الذائع الصيت الفـريد تنيسـون روح المغـامرة وراء البحـار • وتلك صفة يشارك فيهـا الإنجليز الشعب اليـونانى القديم • بأى نغمات يتحدث عن هـذا البطل الذى لم يعـد يطيق البقاء قابعـا بمقر داره وقـد ملها بعد العـودة إليهـا •

قال الشاعر فى قصيدته الرائعة « أوليس » :

« فيم البقاء بتلك الديار الهامدة بين عارى الصخور إلى جوار زوج عجوز • ملك عاطل يقيم عدلا موتورا بين قوم جفاة لا هم لهم إلا حيازة المال وملء البطون والغط فى النوم • إنى غريب عنهم ولا بد لى من الرحيل •

« لكم أمعنت فى المسرات وأمعنت فى الأحزان ، أنفرد بها حينا وأشرك من أحببت حينا وقد استوى فى ذلك أرض ويم ، ما أرسيت إلى شاطىء أو أثرت زبدا تغطى به عرائس اليم الباكية ظلمة البحار •

لقد أصبحت اسما يذكر ، وجبت الآفاق بقلب نهم ، فرأيت الكثير وفهمت الكثير • مدنا آهلة وعادات وأجواء ومجالس وحكومات ، رأيت نفسى وفهمت نفسى غير متخلفة وقد انعقد لها احترام الجميع •

لكم جرعت من نشوة المعارك الى جوار أندادى بسهول طروادة ، حيث تقصف الرياح وتتردد الأصداء ، وقد خلفت بعضا من نفسى بكل ما لقيت ، لكنها الحياة : قباب ممتدة نلمح خلالها بقاعا فسيحة لم نجبها ، وآفاقها أبدا مترامية كلما حاولنا منها دنوا • ما أقبح أن نقف ، ما أقبح أن ننتهى والسيف يصدئه الغمد ويجلوه الطعن ، وما الحياة بأنفاس نرددها • ما أقل أن تجتمع حياة الى حياة ، فكيف بى ومالى غير واحدة نفدت فلم يبق لى منها الا القليل • ولكننى استنقذها من الصمت الأبدى ساعة فساعة فأثرى وأفيد جديدا ! ما أقبح أن تحتبس النفس أعواما وقد هرمت تلهبها الرغبة فى التماس المعرفة كما يلتمس نجم يهوى خلف ما تمتد إليه عقول البشر • ها هو ولدى تليماك • سأترك له جزيرتى وصولجانى وقد حبوته محبتى ، وعهدى به بصيرا بالحكم ، قادرا على أن يروض بحكمته جماح هذا الشعب العنيف ، وأن يحمله بلا رفق على الفطنة الى ما فيه الخير

والنفع . وما به من عيب ، وأنه لآخذ نفسه بالتزام واجبه ، وأنه لأعف من أن يعق فروض المحبة أو أن يتراخى فى تبجيل آلهتنا عند ما تشتط بنا النوى . ليكن له هذا ، وليكن لى ما خلقت له .

« ها هو المرفا . هاهى السفن تنشر الرياح قلاعها . هاهى البحار الشاسعة المظلمة يعتم ضياؤها ، وأنتم رفاق أليم ! كم جهدتم وكم فكرتم الى جوارى والابتسامة لاتغادر شفاهكم ثارت عاصفة أو أشرقت شمس ، تلقونها جميعا بقلب طليق . لقد تقدمت بى وبكم السنون ، ولكن للكبر مجده وجده الى أن يختتم الموت الحياة . وما تزال لدينا جلائل من الأمور تليق برجال مثلنا نازلوا الآلهة .

« هاهى الأضواء تنبعث من أعلى الصخور ، وهاهو النهار ينصرم وقد أخذ القمر يسمو بالأفق وأعماق البحار تئن متعددة الأنغام . هيا أيها الرفاق ، فمها يزال لدينا متسع للبحث عن عوالم جديدة . ادفعوا السفن . استقروا بأمكنتكم والطموا المسابح الصاخبة . ولتكن غايتنا إلى ما خلف مهد الشمس ومسارب نجوم الغرب ، حتى يقضى الله فينا قضاءه ، فاما ابتلعتنا مهاوى اليم ، واما أرسينا بجزر الخيرات حيث نرى بطلنا أخيل كما عهدناه . لئن كان قد فنى منا الكثير فقد بقى الكثير ، وما زلنا كما كنا ، وان لم نعد فى تلك القوة التى اهتزت لها الأرض والسماء . ما زالت قلوبنا عامرة بالبطولة الصادقة المعدن . نعم لقد أضعفنا الزمن وإرادة القضاء ، ولكننا لا نزال أقوياء لنكدح ونجد ونكد ونأبى الخضوع » .

وهذا هو أوليس المكافح الصلب العود . يغامر رغم شيخوخته وكله ثقة وتحرق الى المجهول ، فاما النصر والسطرة على الوجود ، واما الفناء وسط الجهاد . وتلك صفات نجدها عند الانجليز الذين إستطاعوا أن يثبتوا لصدمات الدهر .

وكرت السنون وإذا بنا نرى أوليس آخر فى القرن العشرين . هو أوليس الكاتب الانجليزى المعاصر جيمس جويس James joyce

الذى أنفق جانبا كبيرا من حياته بباريس ، تلك المدينــة الصــاخبة المتعددة مظاهر النشاط الانسانى ، ساميه وحقيره • ولقد نفذ جويس إلى كل ما يجرى فيهــا من مجد وإسفاف ، وود لو ســجل خلاصــة تجاربه العديدة فلم يجد غير أوليس رمزا لتلك الحياة الحافلة ، فكتب ما يقرب من ثمانمائة صفحة يقص فيها مغامرات بطله الذى لم يترك شيئا الا عمله ولا وسطا الا تغلغل فيه ، فهو رمز المعرفة الشاملة • تلك التى لاتعــدل بالتجربة شيئا ولا تردها عنهــا مبادىء خلق أو مواضــعات اجتماعيــة • إن فى أوليس جويس مالا يجرؤ المــرء أن يعترف به حتى بينه وبين نفســه ، وتلك بلا ريب مقدرة قد تحمــد للكاتب ولكننا فى الحق لا نكاد نطمئن إلى نفع نراه فيها أو ضرورة ملجئة اليها ، فهى لاتزيدنا معرفة الا بالجانب المظلم من نواحى الانســان ونحن فى حاجة الى ضياء •

وفى الحق اننا لاندرى كيف تطور أو ليس حتى انتهى الىجويس ، وان يكن فى عشرات القرون التى عبــرها ما قد يعيننــا على الفهم وبخاصة اذا ذكرنا ذلك التطور الواضح الذى تطورته الأخــلاق فى القرن العشرين •

والذى لا شك فيه هو أنأوليس اليونان لم يعد كما قلنا أنموذجا بشريا بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلو له للعبارة عما فى نفسه من احساس أو فى عقله من فكر ، ونحن مع ذلك ننظر فى كل ما خلق المحدثون فى هذا فلا نجد أن أحدا منهم قد أضاف الى البطل قسمة جديدة ، وانما هى سمات من الصــورة التى رسمها له الاغريق القدماء وبخاصة هوميروس فجاءت كاملة منــذ أن خلقت •

لقد رأينا أوليس فى الالياذة يمثل الشجاعة والحكمة ، ورأيناه فى الأودسا وقد أخذت الحكمة تسيطر فى نفسه شيئا على الشجاعة ، ورأيناه عند سوفكليس وقد صار خبثا وذكاء مدمرا ، وكان هذا نذيرا بفنائه وفناء الشعب الذى يمثله •

ومرت القرون فعاد أو ليس الى الظهور ، واذا بملامحه تعـود فتتضح بفضل أقلام جديدة • أهو البعث ؟ أهو خلق جـديد ؟ ذلك ما لا يعنينا الآن ، وإنما أردنا أن نـدل بمثل ناطـق على ما فى تراث اليونان من خصب وقدرة على الايحاء • قدرة لايمكن أن تنفد ، لأنها من قدرة الحياة التى أمسكت بها عبقريتهم فسجنتها فى صور ونماذج لن تفنى • وفى هذا ما يفسر حرص الدول الأوروبية على الثقـافات اليونانية واللاتينية واعتبارها الوسائل الأولى فى تربية الشـباب وذلك على الرغم من أن معظم المؤلفات التى كتبت بهـاتين اللغتين قد ترجمت الى جميع اللغـات الحية أكثر من مرة • ودراسـة تلك اللغات فى ذاتها رياضة عقلية لامثيل لها ، كما أن الـكتب التى ألفت فيها يرجع جانب كبير من قيمتها الى جمال صياغتها ، ومن الثـابت أن أية ترجمة لا يمكن أن تحتفظ بهذا الجمال •

العبيط

(١)

مع مارى والأطفـــال

لقد قص ديستويفسكى الكاتب الروسى الشهير أحداثا كثيرة وقعت لأمير روسى هو موتشكين Muichkine الذى وصفه الـكاتب لأمر سنراه فيما بعد بالعبط ، وأودع تلك الأحداث رواية تقع فيما يقرب من ألف صفحة بعنوان « العبيط » (١) •

ونحن لانريد اليوم أن ننزلق الى مناقشات فلسفية حول العبط ، فمن الناس من يدعى الحكمة ، وما أكثر الدعاوى ، فيرى فى تصرفات هذا الرجل لا عبطا فحسب ، بل واختلالا فى الادراك ، ومنهم من لم يزل يسلط عقله يتبين حدوده ويناقش مقدرته على الجزم عن يقين ، حتى أصبح يرى فى ضوئه ذاته شيئا من الاضطراب يكاد يحيـــله ضوءا كاذبا ، ان لم يكن ظلمة ، ولهذا يحذر أن يصف غيره بالعبط ، فلربما كان هو العبيط •

الأمير موتشكين فى السابعة والعشرين من عمــره الآن ، فهو اذن رجل بحكم سنه ، ولكنه مع ذلك يستريح الى معاشرة الأطفـــال ، ويضيق بالأشخاص الكبار ، لأنه اذا وجد معهم لايدرى ماذا يقول لهم • وهذا أمر غريب يدعونا الى أن نرى فى الرجـــل شـــذوذا ، ونبحث فى نشأته محاولين الكشف عن ذلك الشـــذوذ فلا نهتدى الى شىء كثير ، فالرجل قد مات أبوه وهو فى سن مبكرة ، فتعهده صديق خير من أصدقاء والده • وكل مالاح عليه من أمارات غير عادية لايعدو مرض التشنج العصبى • ونحن لا نستطيع أن نقرر أن هذا المرض يؤدى الى العبط ، فقد كان ديستويفسكى نفسه مريضا به ، ولقـــد

(١) L'ldiot : Dostoievsky : 2 vol. traduit Victor Dérely.. plon. paris.

مرض به أيضا فلوبير الكاتب الفرنسى الكبير ، كما مرض به غيرهما ممن لا يجرؤ أحد من عقلائنا أن يصفهم بالعبط .

وفى الحق إننــا لا نرى داعيــا للبحث عن تعليل حكم لم نثق بعد من صحته ، فموتشكين لم يكن عبيطا ، بل ربمــا كان فى وصفه بهــذه الصفة أكبر سخرية استطاعهــا ديستويفسكى من عقليــة البشر . يخيل إلينــا أن هــذا الكاتب العبقرى لم يكن يظن العبط بأميره ، بل بنــا نحن .

وها هى قصة هــذا العبيط مع مارى والأطفال توضح ســوء ظن المؤلف بالملايين الذين قرأوا روايتــه . ستقرؤها فــلا تملك إلا أن تدهش لمقــدرة هــــذا العبيط على فهم جوانب الضعف فى النفس البشرية ، وإذا بك تثور على ما فى طبــائع النــاس من شر أصيل ، وقــد أخذت بنبل الرجل ونفــاذ حسه .

من المعلوم أنه عنــدما اشتد بموتشكين المرض أرسله القائم على تربيته إلى طبيب بسويسرا ليعالجه بمصحته ، ولقــد وجــد المريض فى جو سويسرا مسعدا على الشفاء ، فأقام هناك أربع ســنوات ، دفع مربيــه فى السنتين الأوليين أجر علاجه وإقامته ، ثم مات هــذا المحسن الكبير فلم يبق للأمير معيل ، ومع ذلك فقــد أمسكه الطبيب الكريم سنتين أخريين ولكن العبيط ضاق بالإقامة وقــد انقطع عنــه كل مــدد من روسيا ، فقرر العودة إلى بترسبورج ليلتمس له عملا يعيش به . وتذكر عبيطنا أن أسرته العريقة قــد بقيت منهــا أميرة هى الآن زوجــة لجنرال بالجيش ، فقــرر أن ينزل بدارها ليتعرف إليهــا وإلى زوجهــا ، ثم ينظر ماذا هو فاعل .

نزل العبيط عند الجنرال إيبنتشين Epantchine واستطاع أن يحمل مضيفه على أن يقدمه إلى الأميرة ، وغادر الجنرال المنزل لأمر يشغله ، فلم يتنــاول وجبــة الغــذاء مع أسرته ، وظل الضيف مع الأميرة وبناتهــا الثلاث ، وتناولوا الغــذاء ســويا ، ثم جلسوا للحديث ،

وأبى حب الاستطلاع الأصيل فى النســاء إلا أن يسوق الضيف إلى قصص حيــاته فى الخارج ، وأربعتهن يحسبن بــه العبط ، إذ كان الجنرال قــد بصرهن بهــذه الحقيقة قبل أن يغادر المنزل ، وإن يكن حديث الضيف لم يلبث أن زعزع عنــد بعضهن هــذا اليقين ، وقــد كان من بينهن من تتمتع بملكه الحكم الشخصى .

قصــة العبيط مــع مارى والأطفال كانت من بين ما قص بطلنــا فى ذلك اليوم ، فقــد وقعت لــه أحداثهــا بالقرية السويسرية حيث كانت المصلحة التى أقام بهــا .

قال : « فى أول الأمر لم يكن الأطفــال يحبوننى . لقــد رأونى كبيرا وقــد كنت دائما قليل (اللحلحة) ، ثم إنى أعلم أنى دميم ، وأخيرا باعــد بينى وبينهم أننى كنت أجنبيــا فى قريتهم . لقــد كانوا فى البــدء يتضاحكون منى ، بل أخــذوا يرموننى بالحجــارة عنــد ما فاجأونى أقبل مارى ، إننى لم أقبلهــا غير مرة واحدة ، .. لا ، لاتضحكن ، فإن الحب لم يكن له دخل فى الموضوع . ولو أنكن رأيتن هــذه المخلوقة البائسة بأنفسكن لأخذتكن بهــا الشفقة كمــا أخذتنى . كانت فتــاة من القرية تسكن مع أمها كوخا صغيرا تضيئه نافذتان ، وكانت الأم العجوز تبيع أربطة الأحــذية والخيط والتبغ والصابون ، وبإذن من السلطات كانت تعرض بضاعتها على لوح من الخشب مثبت أمام إحدى النافذتين ، وكانت هــذه التجارة تأتيهــا بقليل من النقود الصغيرة تعيش بها ، وكانت مريضة متورمة الأرجل مما اضطرها إلى أن تظــل جالســة . وكانت مارى فى العشرين من عمرها ، نحيفة ضعيفة البنيــة ، وإن لم يكن مرض السل قــد ظهر عندها . إلا أنهــا بالرغم من ذلك كانت تعمل باليومية فى المنــازل ، حيث تقوم بالأعمــال الخشــنة : فتمسح البلاط ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأحواش ، وتقدم للحيوانات علفهــا .. وفى أحــد الأعوام أغواها قومسيونجى فرنسى وأخذها معه ، ولكنه بعد أسبوع واحــد غرسها حيث انتهى به المسير ثم ولى ، فوجدت نفسها وحيدة بعرض

الطريق ، فعادت إلى قريتهـــا وهى تستجدى طول رحلتها ، ووصلت قـــذرة مهلهلة الأسمال ، ممزقة الحـــذاء تمزيقا تاما • لقـــد سارت ثمانيـــة أيام : تنـــام فى العراء وتقاسى لذعة البرد ، لقـــد دميت قـــدماها ، وتغطت يداها بالقشف والشقوق ، وهى حتى قبـــل ذلك لم تكن جميـــلة ، لم يكن لهـــا غير عينين وديعتين تملؤهما الطيبـــة والبراءة • لقـــد كان صمتهـــا خارقا ، فقـــد اتفق مرة ـــ قبـــل أن تحدث لهـــا تلك الحادثة ـــ أن أخذت تغنى فجـــأة • وهى تعمل ، فأحدث هـــذا الغنـــاء فيما أذكر دهشة عامة « لقـــد غنت مارى •• آه •• ، مارى تغنى ! » هكذا قـــال الناس وهم يضحكون ، وخجلت مارى منذ ذلك الحين ، فانطوت فى صمت عنيـــد • وكانوا يعاملونها عنـــدئذ بشىء من العطف ، ولكنهـــا عندما مرضت وأخذت أطرافها تدمى لم يظهر لهـــا أحـــد أقل شفقة ، ما أغلظ الناس فى مثل هـــذه الحـــالة ! بأى قسوة يحكمون على هـــذه الأشـــياء ؟ ! وكان أولهم فى ذلك الأم العجـــوز ، فقـــد تلقت بنتهـــا فى غضب واحتقـــار • « الآن قـــد لوثت شرفى » ، هـــذا ما قالت ، ثم كانت أسبق الجميع فى تعريض ابنتها لسباب الجمهور ، وعنـــدما علموا فى القرية بعودة مارى أسرعوا جميعا شيوخا وأطفالا ونساء وفتيات ليروها • لقـــد غزا السكان جميعـــا كوخ العجوز ، وهنـــاك كانت ترقـــد مارى على الأرض عنـــد قدمى أمها باكيـــة وهى تموت جوعا ولا تغطيهـــا غير الأسمال • وبينمـــا يتقـــاطر الزائرون كانت تحاول أن تختفى عن أبصارهم بأن تتخـــذ من شعرها المنتشر نقـــابا يغطى وجههـــا ، ثم تطأطىء رأسها إلى الأرض • لقـــد التف الجمهور حولهـــا فى دائرة وأخـــذوا ينظرون إليهـــا كحشرة • فالشيوخ يعنفونهـــا تعنيفـــا لا هوادة فيـــه ، والشبان يكشرون لهـــا عن أنيابهم ، والنساء يكلن لهـــا السباب ، وقـــد أظهرن من الاشمئزاز مثـــل ما يظهرن عنـــدما يرين عنكبوتا ، والأم جالسة فى حجرتها تشجعهم بالصوت والإشارة بدلا من أن ترد عن ابنتهـــا شيئا من عدوانهم • ولقـــد كانت فى ذلك

الحين شديدة المرض ، فى حالة احتضار تقريبا ، وفى الواقع لقد ماتت بعد ذلك بشهرين ، ومع ذلك فإنها رغم إحساسها بقرب أجلها رفضت إلى آخر لحظة أن تتصافى مع ابنتها ، إنها لم تخاطبها قط بكلمة واحدة وكانت ترسلها إلى الدهليز لتنام به ، بل تركتها بغير غذاء تقريبا ، ولقد كانت مضطرة إلى أن تضع مرارا قدميها المريضتين فى الماء الساخن ، فكانت مارى تغسلهما لها ، وتقدم إليها كل أنواع الرعاية ، فتتقبلها العجوز دون أن تقابلها بأية عبارة رقيقة • ولقد كانت الفتاة تتحمل كل ذلك فى استسلام •

وعندما تعرفت إليها فيما بعد ، لاحظت أنها نفسها كانت تبرر كل ما ينزل بها من إهانات إذ كانت تعتبر نفسها أحط كائنات الأرض • ولم تعد العجوز تتناول غير اللبن ، فأخذ نساء القرية يفدن إليها ليتناوبن رعايتها وفقا للعادات المرعية بالريف ، وعندئذ أمسكوا إطلاقا عن إطعام مارى ، فكان كل الريفيين ينحونها عن مداخل منازلهم ، بل إن أحدا منهم لم يقبل أن يعهد إليها بعمل ما كما كانوا يفعلون من قبل • لقد كان كل واحد منهم يلقاها ببصقة تقريبا ، فالرجال لم يعودوا ينظرون إليها كامرأة ، وكانوا يوجهون إليها أقذع الألفاظ ، وأحيانا ، وفى النادر الذى لا يذكر ، كانوا إذا أخذهم الخمار يوم الأحد يرمون إليها بقليل من النقود سخرية منها • وكانت مارى تجمعها فى صمت • ثم أخذت منذ ذلك الحين تبصق الدم ، وانتهت أسمالها بأن أصبحت من القذارة بحيث لم تعد تجرؤ ان تظهر بالقرية ، ومنذ عودتها كانت تسير عارية القدمين ، وكان أطفال المدرسة ، وهم أكثر من أربعين ، يحلو لهم بنوع خاص أن يؤذوها ويرموها بالطين • وطلبت إلى أحد الفلاحين أن يسمح لها بحراسة البقر ولكنه رفض ، فألحقت هى نفسها بهذا العمل ، فكانت تصحب المواشى عند خروجها من الحظيرة ولا تتركها طول النهار • ورأى الفلاح أنها تؤدى إليه خدمات عديدة فلم يطردها ، بل كان يعطيها بعضا من فضلات

غـذائه : قليلا من الخبز والجبن • ولقـد رأى فى عمله هـذا طيبة كبيرة منـه • وعنـدما ماتت الأم لم يخجل القسيس أن يلعن مارى على مسمع من الجميع فى وسط الكنيسـة • وأما هى فقـد كانت بأسمالها القـذرة راكعة الى جوار التابوت وهى تبكى • وكان حب الاستطلاع قـد أتى بكثير من الناس إلى الجنـازة ، كانوا يريدون ان يروا كيف تبكى الفتـاة وكيف تسير خلف التـابوت ، وكان القسيس ـ الذى لا يزال شابا ـ لا يطمح إلا إلى أن يكون واعظا كبيراً فاتجه إلى الجمهور ، وأشار إلى مارى ثم قال : « ها هى تلك التى سببت موت هـذه السيدة الجليـلة » ، (هـذا غير صحيح ، فقـد كانت العجوز مريضة منـذ سنتين) ، « ها هى أمامكم وهى لا تجسر أن ترفع عينيهـا ، لأنهـا قـد وصمت بأصبع اللـه ••• ها هى عارية القـدمين مغطاة بالأسمال ، مثـلا يتعظ به كل أولئـك اللائى قـد يغريهن سـوء السـلوك ••• ومن هى ؟ ••• إنهـا ابنتهـا ••• الخ » •

ولنتصور أن هـذا الجبن قـد سر جميع الحاضرين ، ولكن ••• حدث عنـدئذ حدث ، فقـد أخـذ الأطفـال جانب البائسة ، وذلك لأنهم كانوا قـد انضموا إلى وابتـدأوا يحبون مارى ، وها هو تفصيل ما حـدث :

لقـد أردت أن أسـدى إلى الفتـاة بعض العون ، فقـد كانت فى حاجـة إلى النقود ، ولكننى طول إقامتى بسويسرا لم أكن أملك درهما واحـدا تحت تصرفى • وكان عندى دبوس من المـاس فبعته لأحـد التجار الذين يذهبون من قرية إلى أخرى للاتجار فى الملابس القديمـة ، ولقـد أعطـانى ثمنـا له ثمانيـة فرنكات ، مع أنه كان يسلوى أربعين بلا ريب •• ولزمن طويل لم أستطع أن أصل إلى حديث خاص مع مارى • وفى النهاية تقابلنـا خارج القرية فى إحـدى طرق الجبل خلف شجرة ، وهنالك أعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها أن تحرص عليـها ، لأنى لن أستطع فى المستقبل أن أمدها بعون آخر ،

ثم قبلتها قائلا : لا تظنى بى أى قصد سيىء ، فإذا كنت قـد قبلتك فليس ذلك لأنى مغرم بك ، ولكن لأنك توحين إلى بشـفقة عميقـة ، وفى الواقع لقـد رأيت فيك دائما ومنـذ البـدء فتاة بائسة لا فتاة مجرمة •

لقـد رأيت فى حرارة أن أغريهـا وأن أقنعهـا بأنهـا كانت على خطـأ فى أن تعتبر نفسها دون الآخرين ، ولكنى لم ألبث أن أدركت أنهـا لا تفهم قولى ، أدركت هـذا من موقفها وذلك لأنهـا لم تفـه بكلمة واحـدة تقريبـا ، بل ظلت طول الوقت واقفـة أمامى مسدلة جفونهـا كشخص يثقـله الخزى • وعنـدما انتهيت قبلت يـدى ، فأمسكت توا بيدها ، وأردت أن أقبلهـا ، ولكنهـا سحبتها • وفجأة لاحظنـا الأطفال وقـد اجتمعت هناك جماعتهم • لقـد عرفت فيما بعـد أنهم كانوا يرصدون حركاتى منـذ حين ، وأخـذوا يضحكون ويصفرون ويضربون أيـديهم يـدا على يـد ، فأسرعت مارى إلى الهرب ، وفى نفس اليوم علمت القرية كلهـا بالخبر ، فازداد سـوء الظن بمارى ، وتكالب الاعتـداء ، بل لقـد سمعت أنهم قـد فكروا فى عقابهـا ، ولكن بفضل من اللـه لم يحـدث من ذلك شىء ، ومع هـذا فإن الأطفـال لم يتركوا لفريستهم راحـة ، بل ضاعفوا من عداوتهم لها ، وأخذوا يطاردونها ويقذفونها بالطين • وكانت المسكينة عنـدما تحس بهـم فى أعقابهـا تجرى وهى المسلولة ، حتى تنقطع أنفاسها ، لكى تفلت من أذاهم ، وهم يعـدون من خلفهـا صائحين بالشتائم • ولقـد حدث ذات يوم أن كدت أشتبك معهم • وفيمـا بعـد أخذت أردهم إلى العقل ، فكنت أتحدث إليهم كل يوم كلمـا استطعت ذلك • ولقـد كانوا يقفون أحيـانا ويستمعون إلى ولكنهم استمروا رغم ذلك فى إيذائهم لمـارى • وشرحت لهم كيف أنها بائسة فانتهوا بأن أمسكوا عن شتمها ، وأخذوا يمرون بهـا دون أن يقولوا لهـا شيئـا ، وبالتدريج أخذت أتحادث معهم أحاديث طوالا ؛ ولم أكتم عنهم شيئا ، بل قصصت عليهم كل شىء • وكانوا ينصتون إلى

باهتمـام ، ولم يلبثوا أن أخذتهم الشـفقة على الفتـاة ، فأصبح الكثيرون منهم يحيونهـا تحيـة عابرة إذا مروا بهـا .

يخيل إلى أن مارى قـد دهشت لهـذا التغيير فى معاملتهم لهـا . ولقـد حدث مرة أن بنتين صغيرتين حملتـا إليهـا شيئا من طعامهما ثم حضرتا لتخبرانى بمـا فعلتـا ، قالتـا : إن مارى قـد بكت ، وإنهما قـد أصبحتا الآن يحبانهـا كثيرا . ولم يلبث جميع الأطفال أن أحبوها ، كما شعروا نحوى أيضا بمحبـة فجائيـة ، فكانوا كثيرا ما يأتون إلى ويطلبون دائمـا أن أقص عليهم شيئا ، ولا بـد أننى كنت أجيـد القصص لأنهم كانوا يحرصون على حكاياتى . ولقـد أخذت نفسى بعد ذلك بالقراءة والدرس لا لشىء غير أن أحمل إليهم ما أجـد فى الكتب . ولقد استمررت على هـذه الحال طوال الثلاث سنوات التالية . وعندما أخـذ الطبيب وغيره من النـاس يلوموننى لأننى أتحـدث إلى الأطفال كأنهـم رجال ناضجون ، ولا أكتم عنهم شيئا ، أجبت بأنه من العـار أن نكذبهم ، وأضفت أنهم مهما اتخذوا من احتياطات لن يمنعوا الأطفال من أن يعرفوا دائما ما يريدون هم أن يظلوا جاهلين به ، بل إنهم سيعرفونه على نحو يدنس خيـالهم ، بينما هم لن يتعرضوا معى لهـذا الخطر ، وما على كل منـا إلا أن يعود إلى ذكريات طفولتـه ليتحقق من صحة ما أقول . ولكن هـذا الرأى لم يقنع أحـدا ..

لقـد كانت قبلتى لمـارى قبل وفـاة أمها بخمسـة عشر يوما ، وعنـدما ألقى القسيس موعظتـه كان جميع الأطفـال فى جانبى ، فأخبرتهم بالهجوم المخزى الذى سمح القسيس لنفسه به ، ووصفت هـذا الهجوم بما يستحق من ألفـاظ ، فثاروا جميعـا وبلغ الغضب بالكثيرين منهم أن حطموا بالحجارة نوافذ القسيس ، ولقـد أفهمتهم أنهم مخطئون فى تصرفهم هـذا ، ومع ذلك فقـد ذاع فى القرية أننى كنت المحرض لهم على هـذا العمل . ومنـذ ذلك اليوم اتهمنى الجميع بإفساد أخلاق تلاميـذ المدارس ، واكتشف الجميع بعد ذلك

أن هؤلاء الأطفـــال يحبون مارى ، فسبب هــذا الاكتشاف قلقـــا بالغـــا ، ولكن الفتاة كانت سعيدة • وحاول الآباء عبثـــا أن يحظروا على أطفالهم مخالطتها ، ولكنهم كانوا يذهبون سرا للقائهـــا ، حيث ترعى البقر فى مكان بعيـــد بما يقرب من نصف فرسخ عن القرية • وكانوا يحملون لهـــا الهـــدايا ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يذهبون ليضموها فقط إلى صـــدورهم ويقبلوها قائلين : مارى ! إنى أحبك ! ثم يعودون مسرعين إلى بيوتهم وهم يعدون ملء أرجلهم • ولا شك أن سعادة كهذه كانت خليقـــة أن تذهب بصواب مارى ، فهى لم تكن تتصور هـــذا حتى فى الأحـــلام • ولقـــد أحست بمزيج من الفرح والاضطراب • وكان الأطفال وبخاصة البنات يحرصون على الذهاب إليهـــا ليخبروها أنى أحبهـــا ، وأننى أتحدث عنهـــا كثيرا • وقالوا : لقـــد قص علينـــا قصتك ، والآن نحن نحبك ونرثى لك ، وسنستمر كذلك دائمـــا • ثم يسرعون إلى بأوجههم الصغيرة المرحة ليخبرونى فى اهتمام شديد أنهم رأوا مارى ، وأنهـــا ترسل إلى تحياتهـــا •

وفى المساء كنت أذهب إلى الشلال ، وهنالك كان يوجد مكان مغلق عن القرية إغلاقا تاما ، وشـــجر السرو يحيطه من جميع النواحى • فى ذلك المكان كنت أستقبل الأطفال فى المساء ، بل إن الكثيرين منهم كان يأتى سرا . وأنا أعتقـــد أنهم قـــد وجدوا سرورا كبيرا فى حبى لمـــارى • وهـــذه هى المســـألة الوحيـــدة التى كذبتهم فيهـــا طول إقامتى بينهم • لقـــد تركتهم يعتقدون أننى مغرم بمارى ، وإن كنت لم أشعر نحوها بغير الشفقة ، ولكننى عندما رأيت أنهم ينسبون إلى إحساسا آخر ، وأن هـــذه الفكرة تسرهم ، حرصت على ألا أكذب ظنهم ، وتظاهرت بأنهم قـــد كشفوا دخيلة نفسى ، أى طيبة لطيفة فى هـــذه القلوب الصغيرة ! ولأكتف فى ذلك بمثل واحـــد : فقد عـــز عليهم أن يروا صديقهم ليون يحب مارى ، ومارى رثـــة الثيـــاب ، بل ويعوزها الحـــذاء ، تصورن أنهم حصلوا لهـــا على حذاء وجورب وملابس داخليـــة ، بل وبعض الثيـــاب • كيف ؟ وبأى حيل عبقرية

نجحوا فى الحصول على كل هــذا ؟ ذلك ما لا أفهمه ! ولكن المدرسة كلهــا قــد اشتركت فى هــذا العمل • وعندما سألتهم عن الموضوع كان الجواب الوحيــد ضحكة مرحة ، وقــد أخذت البنات الصغيرات يضربن أيديهن يــدا فوق يــد ويقبلنني • وأحيانا كنت أذهب لرؤية مارى خفيــة •

ثم اشتد بهــا المرض ، فأصبحت تقريبا عاجزة عن المشى ، وأخيرا انقطعت عن العمــل بالمزرعة انقطاعا تاما ، ولكنهــا استمرت تقــود المواشى إلى الحقل كل صباح • هنالك كانت تستند إلى صخرة عمودية على الأرض • وتظل كذلك بلا حراك حتى يحين موعد العودة بالبقــر إلى الحظيرة • وأنهكهــا السل ، وانقبضت أنفاسها ، فكانت تظــل يومها كله فى حالة تشــبه النوم ، مغلقة العينين ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، وكان وجهها شاحبا كالجثــة الميتــة ، والعرق يبلل جبينها وعارضيهــا • كنت أجدها دائمــا فى هــذه الحــالة ، ولم أكن آتى إلا لبرهة قصيرة ، لأننى أيضا لم أكن أريد أن أرى • وبمجرد ظهورى كانت مارى تنتفض فتفتح عينيهــا وتسرع إلى تقبيل يــدى ، وكنت أتركهــا تفعل ذلك لأنهــا كانت تجــد فيــه سعادتها • وطول مدة زيارتى كانت ترتعــد وتسكب الدموع ، وأحيــانا كانت تتكلم ، ولكن حديثهــا كان فى الحقيقــة من الصعب فهمــه • لقــد كانت تشبه المجنونة بشدة انفعالهــا ولهفتهــا ، وأحيــانا كان الأطفال يقبلون معى ، وفى مثل هــذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ، ليلاحظوا الطريق ، حتى لا يفــاجئنى أحــد وأنا أتحــدث مع مارى • وكان « دور الحراس » هــذا يسرهم كثيرا • وبعد عودتنــا كانت مارى تعود إلى وحدتهــا ، فتظل من جــديد بلا حراك ، مغمضة عينيهــا ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، ربمــا كانت تحلم بشىء •

وفى ذات صباح لم تستطع الخروج كالعــادة لتقود القطيع إلى المرعى ، وبقيت فى منزلهــا الصغير الخالى ، ولم يلبث الأطفــال أن علموا بذلك ، فأتوا كلهم تقريبــا لزيارتها عــدة مرات فى ذلك اليوم

وهى طريحة الفراش لا يقوم بخدمتها أحد • ولمدة يومين كان الأطفال وحدهم هم الذين يقومون بأمرها ، وقد أخذوا يتناوبون مهمة تمريضها ، ولكنه عندما علم أهل القرية بعد ذلك أن مارى تحتضر أتت الفلاحات العجائز كل واحدة بدورها للقيام بجوارها ، وقد لاح فى القرية أنهم أخذوا يشفقون على الفتاة • فهم على الأقل قد ابتدأوا يتركون للأطفال حريتهم فى أن يدنوا منها ، ولم يعودوا ينهرونهم عن ذلك كما كانوا يفعلون من قبل • وكانت المريضة دائما فى حالة حشرجة ، فنومها مضطرب ، وسعالها مخيف ، وكانت النساء العجائز يمنعن الأطفال من الدخول إلى الغرفة ، ولكنهم كانوا يسرعون إلى النافذة ، وأحيانا لا يبقون هناك إلا لحظة واحدة ليقولوا : صباح الخير مارى العزيزة ! وأما هى فبمجرد رؤيتها لهم أو سماعها لصوتهم كانت تنتعش ، وللحظتها كانت تصم أذنيها عن ملاحظات ممرضاتها ، فترفع نفسها فى مشقة فوق الفراش لترسل برأسها إشارة إلى أصدقائها الصغار شكرا لهم • واستمر الأطفال على حمل الهدايا إليها ، ولكنها لم تعد تأكل شيئا ، وبفضلهم — أؤكد لكن — ماتت سعيدة تقريبا ، بفضلهم نسيت محنتها وقد تلقت منهم الصفح على نحو ما ، وذلك لأنها حتى النهاية كانت تعتبر نفسها عاصية • لقد كانوا كالطير يضربون كل صباح نافذتها بأجنحتهم ويصيحون : مارى إننا نحبك !

لقد ماتت بسرعة ، وكنت أعتقد أنها ستعيش طويلا ، ففى اليوم السابق لموتها ذهبت أراها قبل غروب الشمس ، فلاح لى أنها تعرفنى ، ولقد صافحتها للمرة الأخيرة • كم كانت تلك اليد عارية عن كل لحم ! وفى الصباح المبكر أتوا فجأة ليخبرونى أن مارى قد ماتت ، وفى هذه المرة خرج الأطفال على كافة الأوامر ، فدخلوا المنزل وغطوا الميتة بالزهور ، ووضعوا على رأسها تاجا منها ، وفى الكنيسة احترم القسيس على الأقل ذكرى تلك التى سبها وهى حية ، ثم إن الحضور لم يكونوا غير قليل ممن أتى بهم

حب الاستطلاع • وعنـــد رفع الجسد أراد جميع الأطفال أن يحملوا التابوت ، ولكنه لمـــا كانت قوتهم لا تكفى لذلك فإن رغبتهم لم تجب • وساروا جميعـــا فى الجنازة باكين • ومنـــذ ذلك الحين وهم يبجلون قبر مارى ، ففى كل عام يزينونه بالأزهار ، كمـــا أنهم زرعوا حوله أشـــجار الورد ••

(٢)

العبيط فى الحيـــاة الإجتماعيـــة

رأينـــا الأمير موتشكين ـــ عبيط ديستوفسكى ـــ يصاحب الأطفال ويفضلهم على الكبار ، ولم نستطع إلا أن نقره على سلوكه • فقـــد تضافر مع أصدقائه على رحمة فتـــاة بائسة • نعم إن الفتـــاة كانت قـــد سقطت سقطة أخلاقيـــة لم يكن بـــد للهيئـــة الاجتماعية من أن تثور لهـــا • ونحن ندع جانبـــا منبع تلك الثورة • هبهـــا غريزة تناهض ما فى ملكة التفكير من تدمير لحيـــاة الفرد وتقويض لحيـــاة الجمـــاعة إذا أطلقنـــا لتلك الملكة عنـــان التبرير المضلل ، ثم انظر ألم تفكر الفتاة عن إثمها آثم التكفير ؟ ألم تقبل كـــل ما أنزلنا بهـــا من تنكيل بنفس صاغرة باخعـــة ؟ وعندما ينزل القضاء أو َ ما ترى رحمة اللـــه لا بـــد مرسلة هديهـــا إلى من تختـــار من أرواح تحمل إلى البائسين نسمة من تلك الرحمـــة ؟ ومن يدرينـــا لعل الأطفـــال والعبطاء هم تلك الأرواح المختـــارة •

نستطيع إذن أن نتردد فى الحكم على موتشكين بالعبط لمصادقتـــه الأطفـــال ومسحه دموع مارى ، بل قـــد نجـــرؤ فنرى أن الهيئـــة الاجتماعيـــة التى تصف الأمير بهـــذه الصفة هى على الأقل العبيطة إن لم تكن الغليظـــة الحمقـــاء • وما الهيئـــة الاجتماعيـــة إلا نحن ـــ العـــاديون من النـــاس ـــ الذين تتحكم فيهم المواضعات فتجعل منهم أحيـــانا وحوشا لا تعى ما تفعل •

وها نحن اليوم نواجه العبيط فى الحيـــاة الاجتماعيـــة ، ها نحن

نغادر أدب النفس إلى أدب الجماعة . نغادر وحى الضمير إلى عادات المجتمع . ولا تحسبن أننا ننتقل بذلك من مجال صارم إلى مجال هين ، فنحن فى الحق أكثر استعبادا للعرف منا للخلق . وذلك لأمر بيّن هو أننا جميعا — إلا من عصم ربى — أشد حرصا على حركاتنا الظاهره منا على حقائق نفوسنا . وإذ تعارض ظاهر لنا بباطن كم ممن ترى حولك يستجيبون لنداء الضمير ؟

عاد الأمير موتشكين من سويسرا حيث كان يستطب من التشنج العصبى إلى بترسبورج ولما كان يعلم أن أسرته العريقة قد انقرضت ولم يبق منها غير سيدة واحدة زوجة لجنرال كبير بالجيش ، فقد رأى أن يذهب إلى تلك السيدة ليتعرف إليها ويستشيرها فيما يفعل وهو الوحيد المنقطع .

« كانت الساعة غير بعيدة من الحادية عشرة صباحا عندما دق الأمير الجرس ببيت الجنرال ، وهو فى الدور الثانى . مسكن فى حدود البساطة التى تسمح بها مكانة صاحبه الاجتماعية . وفتح الباب خادم فى بذلة الحشم . وكانت مناقشات طويلة بين الأمير وذلك الرجل الذى نظر إليه هو وحقيبة ملابسه الصغيرة نظرة ملؤها الريبة . وفى النهاية ، وبعد أن أعلن إليه عدة مرات أنه حقيقة الأمير موتشكين وأنه فى حاجة ماسة إلى رؤية الجنرال لأمر هام ، أدخله الخادم إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفة الانتظار ، ثم انسحب تاركا الضيف بين يدى خادم آخر : رجل فى الأربعين من عمره يرتدى بذلة رسمية وعمله إخبار صاحب السعادة بأسماء الزائرين . وكان فى ملامحه المهمومة ما يدل على مبلغ شعوره بأهمية وظيفته .

قال للضيف : تفضيل . « ادخل الصالون برهة ودع حقيبتك هنا » . قال هذا وهو يجلس فى مقعد ضخم برزانة مصطنعة ونظرته المدهوشة القاسية تفحص الأمير الذى لم يتخل عن متاعه

المتواضع ، وأخـذ كرسيا وجلس إلى جواره قائلا : سأنتظر هنـا — إذا سمحت — فى صحبتك • ماذا أفعل هنالك وحيـدا ؟

— « ولكنـك ، مادمت قـد أتيت لزيارة ، لا تسـتطيع أن تبقى فى هذه الغرفة • إنك تريد أن تحادث الجنرال نفسه أليس كذلك ؟ » • وفى الواقع إن الخـادم لم يكن يخطر ببـاله أن يدخل زائرا كهـذا على الجنرال ، ولذلك كرر سؤاله الأخير • فأجاب الأمير : « نعم إن لدى مسألة ••• » — « أنا لا أسألك عن شىء • فعملى هو أن أعلن قدومك فقط ، ولكننى كمـا أخبرتك مضطر إلى أن أرى السـكرتير أولا » •

لقـد أخـذ الخادم يزداد ريبـة • فالأمير كان شديد الاختلاف عن الزائرين العـاديين • والجنرال — لا ريب — لم تكن مقـابلاته قاصرة على الوجهاء ، بل كان يأتيـه أيضا أفراد من كافة الطبقـات لمصالح مختلفة ، وكان الخادم يعـرف ذلك جيـدا ولديه أوامر بأن لا يتشـدد مع الزائرين ، ومع ذلك فإنه فى هـذه الحـالة بالذات لم يجرؤ أن يتحمل المسئوليـة ورأى أن خير حـل هو أن يستعين بالسـكرتير •

وأخيرا سأل الأمير وكأنه يوجه سؤاله مكرها : « أحقـا انك ••• أتيت من الخارج ؟ » ولقـد أعوزته الشجاعة فلم يستطع أن يوجه السؤال الحقيقى ، وهو • « أحقـا أنك الأمير موتشكين ؟ » وأجاب الأمير : « نعم ، إننى قادم من المحطة مباشرة ولقـد أردت فيمـا أعتقـد أن تسألنى هل أنا حقيقـة الأمير موتشكين ، ولكن الليـاقة منعتك من توجيـه هـذا السؤال » • « هـه ! ••• » هكذا تمتم الخـادم مدهوشـا •

— أؤكد لك أننى لا أكذبك ، وأنك لن تتحمل بسببى أية مسئولية • وإذا كنت ترانى فى هـذا الزى حاملا هـذه الحقيبة الصغيرة فليس ذلك ما يدعو إلى الدهشة • فحالتى الآن ليست على ما يرام •

— هـه ؟ ... فى الحقيقة ليس هـذا ما يخيفنى . إننى هنا لكى أعلن الزائرين . وبعد هنيهة سيخرج السكرتير . وإذا كنت ... هل لى أن أعرف أنك لم تأت إلى الجنرال كرجل محتاج لتطلب مساعدة ؟

— آه ! لا . من هـذه الناحية كن مطمئنا كل الاطمئنان . إننى لم آت من أجل هـذا .

— معذرة . لقد خطرت لى هـذه الفكرة وأنا أتأمل ملابسك . انتظر السكرتير . فالجنرال مشغول الآن مع أحد الضباط ، ولكنك سترى السكرتير قادما .. سكرتير الشركة .

— إذا كنت سأنتظر زمنا طويلا ، فإنى أسألك أن تسمح لى بالتدخين فى جهة ما ، فلدى البيبة والدخان .

فصاح الخادم فى استنكار وهو لا يصدق أذنيه : بالتدخين ! ؟ .. بالتدخين ! ؟ .. أبدا . إنك لا تستطيع أن تدخن هنا ، بل وما كان يجوز أن يخطر هـذا ببالك . آه ! هـذا شىء عجيب !

— أوه ! إننى لم أقصد التدخين فى هـذه الغرفة ، فأنا أعلم جيدا أنه غير مسموح به ، وإنما أردت أن أرجوك لتدلنى على مكان أشعل فيه بيبتى . وذلك لأننى معتاد التدخين ، وها قد مضت على ثلاث ساعات دون أن أدخن . ومع ذلك فليكن ما تريد . وأنت تعلم أن هناك مثلا يقول : فى الدير الأجنبى ..

وغمغم الخادم مكرها : « ولكن كيف أعلن قدومك وأنت فى هـذه الحالة ؟ مكانك كزائر ليس هنا ، بل فى الصالون وبقائك فى الغرفة ستعرضنى للتقريع » ، ثم أضاف ، وهو يلقى بنظرة جانبية إلى الحقيبة الصغيرة التى كانت لا تزال بيد الأمير ، وقد شغلت الخادم طول الوقت ... ولكنك تنوى أن تقيم عندنا أليس كذلك ؟

— لا . هـذا لم يخطر ببالى . وحتى لو اقترحوا على ذلك

فلن أقبل ابقــاء • وغايتى الوحيدة من هــذه الزيارة هى أن أتعرف إلى أصحاب المنزل • ولا شىء أكثر من ذلك •

ولاح هــذا الجواب للخادم الظنين داعيــا إلى الريبــة فصــاح مندهشا : « إيه !! أن تتعرف إليهم ؟ ! ولكنك ابتدأت بأن أخبرتنى أنك أتيت لمسألة ما » •

ــ ربما أكون قــد بالغت عندما تحدثت عن « مسألة » • ومع ذلك فليكن مجيئى إلى هنــا ، إذا أردت ، لمســألة ، بمعنى أننى أريد أن آخــذ نصيحة • وإن كنت أود قبل كل شىء أن أتقدم إلى الجنرال ايبنتشين ، وذلك لأن زوجتــه من أسرة موتشــكين ، أسرتى • وهى وانا آخر عضوين فيهــا •

ولقــد بالغت الكلمات الأخيرة من قلق الخــادم فصاح ذاهلا : « وإذن فأنت من الأقرباء ايضا !! » •

ــ تقريبــا • لا شك ان هــذه القرابة قائمة ، ولكنهــا بعيــدة إلى حــد ان تستطيع اعتبارها منعــدمة • وعنــدما كنت فى الخارج كتبت مرة إلى زوجــة الجنرال ، ولــكنها لم ترد • ومع ذلك فقــد رأيت عنــد عودتى أن من الواجب تذكيرها بى • ولقــد اســتطردت إلى كل هــذه التفاصيل لكى أبدد شكوكك ، وذلك لأننى أراك دائم القلق • أعلن قــدوم الأمير موتشكين وبمجرد أن يسمعوا إســمى ســيعرفون سبب زيارتى • وعنــدئذ سيستقبلوننى أو يرفضــون استقبالى • فإن فعــلوا كان خيرا وإن رفضــوا ربمــا كان أخير • وإن كنت أعتقــد أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ، فالسيدة لا شك تود أن ترى الممثل الوحيــد الباقى من أسرتهــا • وأنا أعلم أنهــا تعتز بأصلهــا اعتزازا كبيرا •

وكان الأمير كلما ازداد تبسطا فى حديثــه واسترسالا بريئا ازداد إساءة إلى نفســه فى نظر الخادم • فهــذا الحديث الذى لا غبــار عليــه إذا جرى بين أناس من طبقــة اجتماعيــة واحــدة ، لم يكن

الخـادم ليستطيع أن يفهم إلا أنه ناب عن موضعه نبوا شـديدا عنـدما يدور بين زائر وخادم . ولمـا كان الخدم أقل غباوة ممـا يظن أسيادهم عادة ، فإن خادمنا قـد افترض أحـد أمرين : إما أن يكون الأمير شحاذا أتى يستجدى الجنرال صدقـة ، وإما أن يكون بكل بساطة رجلا مخبولا . وذلك لأن أميرا « نبيهـا » لا يمكن أن يبقى فى هـذه الغرفة الجانبيـة ولا أن يقص أموره على خـادم . وفى كلتا الحالتين هل كان يستطيع أن يعلن قدوم شخص كهذا ؟ » .

وأنا أعفى القـارىء من بقيـة الحوار وأطمئنـه إلى أن الأمير موتشكين قـد انتهى بالدخـول والتعرف إلى الجنرال وزوجتـه وأبنائهمـا ، بل كانت له حادثة غرام مع إحـدى بنـات الجنرال ، والسكرتير طبعـا هو الذى أدخله .

والآن ماذا يرى القـارىء ؟ أهو عبيط حقـا ؟ ولك أن تراجع كل أقواله فلن ترى فيهـا غير الصـدق . قـد تقول : ولكن الرجل عبيط عبيط ما فى ذلك ريب . فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقـدر نفسية من يخاطبـه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحـة متصاعدة ، وهو أخيرا لا يعرف أن ما كل حق يقـال ، وإذا قيـل فمـا ينبغى أن يقال لكل إنسان وما إلى ذلك من حكمنـا الثمينـة ! قـد تقول هـذا وخيرا من كل هـذا . وأما أنا فأعتقـد أن عقولنا نحن هى الفاسدة وأن حياتنـا الاجتماعيـة قـد خربت نفوسنا . لقـد كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيـد وأرواح سادة . وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنـا كلهـا نفـاقا متصـلا واتخذت من هـذا النفـاق قانونا صارما يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى ، فأصبحنـا جميعـا نتسـاءل عن سر عبط هـذا الأمير العجيب ، بدلا من أن نتساءل عن سر فسادنا نحن خـدما وسادة .

(٣)

العبيط والاعدام

من المعلوم أن ديستوفسكى خالق « العبيط » قد حكم عليه بالإعدام هو وعشرة من رفاقه الذين كانوا يميلون إلى الحرية المدنية والعدل الاجتماعى فى عهد القيصر نيقولا الأول • وبينما هم فى السجن أيقظهم الحراس فى الصباح المبكر وقادتهم العربات إلى حيث لا يعلمون ، وإذا بهم فى ساحة الإعدام حيث يتلى عليهم الحكم • ويشد ثلاثة منهم إلى أعمدة الموت معصوبى الأعين وفصائل الجند من أمامهم لإطلاق الرصاص وديستوفسكى ذاهل ينتظر دوره • ومرت بالرجل دقائق ستقرأ أصداءها عما قريب • وفى اللحظة الأخيرة لم تطلق النيران إذ عفا القيصر عن المتهمين واستبدل بالحكم السجن أربعة أعوام فى سيبيريا ثم النفى أعواما أخرى بنفس تلك البلاد السحيقة المهلكة •

وإذا ذكرنا طبيعة ديستوفسكى المريضة وشدة إحساسه استطعنا أن ندرك كيف أن هذه المحنة الخاطفة قد تركت فى نفسه أعمق الآثار • ولقد خلفت بها مثل وقع السيف المسموم ما إن تنكأه حتى ينزف •

ومن عجب أن يجرى الكاتب على لسان العبيط أنفذ ما أوحت إليه تلك اللحظات من إحساس • ولكن ألم نقل من قبل إن الأمير موتشكين لم يكن من العبط بحيث نظن ؟ لا • موتشكين ليس بعبيط • ولديستوفسكى أن يسخر من العقول كما يشاء • استمع إلى عبيطنا يحلل ما فى الحكم بالإعدام من فظاعة « تصور مثلا رجلا يعذب ، جسمه مغطى بالجراح • إن الألم الجسمى لن يلبث ان يذهله عن الألم النفسى حتى إن جراحه لتصبح إلى ان يموت عذابه الوحيد • ولكن أقسى انواع العذاب وأعظمها ليس ما تولده الجراح وإنما هو اليقين من انك بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة

ثم بعــد برهة واحــدة ستطير روحــك من جســدك وانك لن تعود إنسانا وأن كل هــذا شىء مؤكد • هــذا اليقين هو أشنع العذاب •• ليس هنــاك اى تناسب بين الإعــدام وبين القتل الذى تكفر عنــه تلك العقوبة • فأحدهمــا أفظع من الآخر فظاعة لا نهــاية لهــا • فالرجل الذى يذبحه اللصوص أو ينحرونه بالليل ، فى غابة ، أو على أى نحو كان ، يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بالأمل فى أن ينجو بالحياة • ولقــد رأينــا أناسا ، بنحورهم السكين ، ومع ذلك يأملون ويعدون ويتضرعون • وأما هنــا فهــذه البقيــة من الأمــل التى تلطف من الموت عشرات المرات ، تراهم يحرمونك منهــا حرمانا تاما • هنــاك حــكم ، واليقين من أنك لن تفلت هو فى ذاته العــذاب الذى ليس فى العالم ما هو أفظع منــه • ضع جنــديا أمام فوهة مدفع فى معركة وأطلق المدفع تر أنه لا يزال يأمل ، ولكن اقرأ على نفس الجنــدى الحكم عليــه بالإعــدام تراه إما أن يصيبه الجنون وإما أن يأخــذ فى البكاء • من قال إن الطبيعة البشرية تحتمل هــذا دون أن تخــر فى الجنون ؟ لم هــذه القسوة التى لا فائدة فيهــا ؟ ربما كان هناك إنســان قرىء عليــه الحكم بإعدامه ثم ترك برهــة فريسة للرعب ليقــال له بعد ذلك : إذهب ! فقــد عفى عنك • آه ! هــذا الرجل يستطيع أن يقص أحاسيسه • لقــد تحدث المسيح نفسه عن هــذا العــذاب الأليم • لا • إنه لا يجوز أن نســمح بأن يؤخــذ كائن بشرى بعــذاب كهــذا ؟ » •

يحدثنــا العبيط عن رجل مرت به تلك المحنــة فاستطاع أن يقص أحاسيسه • ولكن ديستوفسكى كان أبعــد خيــالا وأغنى نفسا من أن يقفه عنــدما ابتلى به • لقــد عاد فى موضع آخر فحدثنا بلسان العبيط أيضا عن تنفيــذ الحكم بالإعدام فعلا وسار بــه إلى آخر مراحله على نحو لا نظن أن أحــدا قــد داناه فيــه •

« كان السجين يقــدر أن الإجراءات العــادية ستراعى ، ولذلك اعتقــد أن أمامه على الأقل ثمانيــة أيام • ولكن لأمر ما اختصرت

المـدة • فى الساعة الخامسة صباحا كان نائمـا وكنـا فى أواخـر أكتوبر ، ولذلك فقـد كان الجو فى تلك الساعة لا يزال باردا والنهار لم يشرق بعـد • دخل مدير السجن ومعه أحـد الحراس ، فى غير جلبـة ، ووضع يده على كتف السجين فنهض جالسا ، وسأل وقـد رأى الضوء : ماذا حـدث ؟

— اليوم بين التاسعة والعـاشرة ستنفذ العقوبة •

ولم يستطع السجين الذى كان النوم لا يزال بعينيـه أن يصـدق هـذا الخبر ، فقـد كان يزعم أن أمر التنفيـذ لن يصل إلا بعـد ثمانيـة أيام ، ولكنـه عندما كمل صحوه أمسك عن المناقشـة ولزم الصمت • هـذه هى التفاصيل التى ذكروها • ثم قال بعـد ذلك : فليكن ! بغتـة ••• على هـذا النحو ؟ ! إنه لأمر مؤلم ! • ثم لزم الصمت من جـديد ولم يرد أن يفوه بكلمة ، ونحن نعلم كيف تمـر الثلاث أو الأربع ساعات التاليات : زيارة القسيس ، الفطور : لحم ونبيـذ وقهوة (آه يا لهـا من سخرية قاسية ! ولكن هؤلاء الناس لا يقصدون إلى شر ، فهم يعتقدون فى سذاجة أنهم بتصرفهم هـذا يأتون عمـلا إنسانيا) ، ثم عمليـة الغسيل والتجميل (وأنت تعلم ما هى هـذه العمليـة بالنسبة للمحكوم عليـه بالإعدام) • وأخيرا يحملونه فى عربة ويقودونه إلى المقصـلة • ولا شـك أنه — فيمـا أعتقـد — كان يتخيل أثنـاء نقـله أنه لا يزال أمامه فى الحيـاة وقت لا نهـاية له « لا تزال أمامى ثلاثة شوارع أعيشها • إنه زمن طويل ! عنـدما أصل إلى نهاية هـذا الشارع ، سيظل أمامى شارع آخـر أتابعـه ، ثـم ثالث حيث يوجد إلى اليمين مخبز — وسيمر وقت اخر قبل ان نصل إلى هـذا المخبز • وحول العربة جمهـور صاخب • عشرة آلاف راس • عشرة آلاف زوج من الأعين ، وعليـه ان يحتمـل كل هـذا ، وبنوع خاص هـذه الفـكرة : ها هم اولاء عشرة آلاف ، ولكنهم لم يعدموا احدا منهم ، بل انا الذى سأموت » • هـذا عن المقـدمات ، سلم يقود إلى المقصلة ، امام هـذا السـلم

اخــذ الرجل فى البكاء ، وكان رجلا قويا ذا خلق شديد • قالوا إنه كان مجــرما كبيرا ، والقسيس الذى ركب إلى جــواره فى العــربة لم يتركه برهــة واحــدة ، وكان يحادثه باستمرار ، ولكنى أظن أن المســكين لم يكن يستمع إليــه ، ربمــا يكون قــد حاول أن يصغى ولكنــه بعد الكلمة الثالثــة لم يعــد يفهم شيئا • وفى النهاية أخــذ يصعد السلم والقيود التى تغــل قدميــه تضطره أن يخطو خطوات صغيرة ، وأمسك القسيس — الذى كان بلا ريب رجلا ذكيــا — عن عظاته مكتفيــا بأن يقــدم إليــه باستمرار الصليب ليقبــله •

لقــد كان المجرم شاحبــا عنــد أسفل السلم ، وأما الآن وقــد وصل إلى المقصلة فإن وجهــه صار أبيض كالصحيفــة ، لا شك أن أرجله أخــذت تتداعى تحتــه وأن قلبــه أخــذ فى الغثيان • وكأن شيئا قــد خنقــه فانتشر فى جسمه إحساس بالخدر • هــذه ظاهرة يولدها الرعب فى تلك اللحظات المروعة التى يظل فيهــا العقل كاملا ولكنــه يفقــد كل ما له من سيطرة • إذا كان هلاكك مثلا محققــا وكنت فى منزل سينهار فوقك فإنك تشعر فجأة برغبــة لا تقهر فى أن تجلس وتغمض عينيك وتنتظر • ليكن ما يكون ••• ورآه القسيس فى هــذه الحــالة من الضعف فأدنى من شفتيه — فى صمت وحركة سريعــة — الصليب ، صليب لاتينى من الفضــة • وكرر ذلك عــدة مرات وعندما أحس به الرجل لاح أنه قــد عاد إلى نفسه لعدة ثوان ففتح عينيــه ومشى • لقــد كان يقبل الصليب بنهم وهو فى لهفــة قلقــة كالمسافر الذي يخشى أن ينسى شيئا سيحتاج إليــه فى رحلته وإن يكن من الراجح أن كل عاطفــة دينيــة كانت بعيدة عن ضميره • تلك كانت حــاله إلى أن شــد على اللوح ••• وإنه لمن الغريب أن الإغماء لا يحدث فى هــذه الثوانى الأخيرة إلا نادرا • وعلى العكس من ذلك تحتفظ الرأس بحيــاة غزيرة وتعمــل بلا ريب بقوة كبيرة وكأنهــا آلــة تسير • يخيل إلى أن ألوانا من الأفكار تطن يومئــذ فى الجمجمة • أشباح من الأفكار قــد تكون مضحكة وهى لا شــك فى غير موضعها مثــل : آه ! هذا المتفرج بجبهته « حسنة » • الجلاد

ببـذلته زرار صـدىء . ومع ذلك تعرف كل شىء وتذكر كل شىء ، وهنـاك مسألة لا يمكن أن ننساها وهى أنك لا تستطيع الإغمـاء . وحول هـذه المسألة يدور كل شىء . ولنتصور أن هـذه الحـالة تستمر حتى آخر ربع ثانية . وعندما تمر الرأس من الطوق وتنتظر وتعلم ، ثم فجـأة تسمع السكين تنزلق فوقهـا ؟؟ ! لا شك أنهـا تسمع . ولو أننى كنت شخصيا ممـددا على الخشبة لأرهفت أذنى ولسمعت الصوت ! وهو ربما لا يصدر إلا لعشر من البرهة ولكننـا لا يمكن ألا نسـمعه . ولنتصوروا أننـا لا نزال إلى اليوم نود أن نعرف : هـل الرأس لا تدرك — فى الثانيـة الأولى بعد قطعهـا — أنهـا قـد انفصلت عن الجسم ؟ » .

لست أدرى أصـدق العبيط فى قصصـه أم لم يصـدق ، فنحن لا نعلم — كما قال شكسبير — أن ميتـا قـد عاد ليخبرنا بما رأى ، ولا أن محكوما عليـه بالإعدام قـد وصف لحظاته الأخيرة ، بمـا فى ذلك برهـة قطع الرأس والثانيـة التى تليهـا ، ولكنى أستطيع أن أتخيل أوضـح التخيل ما يحدثنى بـه هـذا الرجل العجيب . تأمل قليـلا تلك الرأس التى تحتفظ بحيـاة غزيرة ومع ذلك لا تفكر إلا فى « حسنة » بجبهة متفرج ، أو زرار ببذلة الجلاد . أو ما تحس أنهـا قـد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيهـا إلا ما يخلف هـذا الجهـد من حرارة تشـبه الحيـاة وهى بحمى اليأس أشـبه . إن فى تفـاهة ما يدور بهـا لوحيا برعب الخيال . ثم أى مهارة فى فن هـذا العبيط ، كم من تفاصيل صغيرة تغزو النفس فى تدرج ماكر ، وكم من حيل يصطنعها ليبلغ منـا ما يريد . وحيـله بعد من صميم حياتنـا القريبـة . لهفتـه فى تقبيل الصليب هى لهفتنـا جميعـا عنـدما نخشى أن ننسى شيئا سنحتاج إليـه فى سـفر ، وشعوره شعور رجل حم به القضاء وأخـذ البيت ينهـار فوقه فلم يستطع إلا أن يجلس ويغمض عينيـه وينتظر إرادة اللـه . ثم صوت السكين . بأى حـرص يريد الكاتب أن نقف عنـد هـذه البرهة

أو عشر البرهة لنحققها بخيالنا • لقــد خشى أن نمر بهــا سراعا ، فأوقفنـــا لنناقشها • هل سيسمع انزلاقهـــا ، وهل المسكين سيصغى لصوتهـــا • وبأى دهاء وضع الكاتب نفسه فى هــذا الموضع ليخبرنا أنه لا بــد منصت عنــدئذ لذلك الصوت المروع ولا بــد مدركه • وما فعـــله الكاتب هنـــاك أمل ضمنى فى أن يفعله غيره • وهــذه هى سذاجة أهل الفن المـــاكرة الساحرة • وأخيرا هل أنا بحاجة إلى أن أدل القـــارىء على ما فى السؤال الأخير (إدراك الرأس فى الثانيـــة التى تلى قطعهـــا أنهـــا انفصلت عن الجسم) من رهبـــة تقشـــعر لهـــا الجلود •

وبعـــد فقـــد اقتتل علمـــاء القانون حول عقوبة الإعدام ، وكتبوا فى ذلك المجلدات الضخام ، فمنهم المؤيد ، ومنهم المنـــاهض ، ولكنى لا أذكر أن أحـــدا منهم قـــد فطن إلى معنى العـــدالة النفسية التى صورها ديستوفسكى هـــذا التصوير الرائع • إن فى تحليله لعـــدم التناسب بين القتل والإعـــدام لحقـــا لا يدفع ، فهـــذا اليقين الذى يلقى الموت بالنفس وهى حيـــة عـــذاب لا مثيل لفظاعتـــه • ثم تلك اللهفـــة الحائرة التى أخـــذ عليهـــا اليأس كل مسلك ، فتراها تعـــد ما بقى لهـــا فى الحيـــاة بالشوارع التى ستعبرها ، ومع ذلك يستقر فى ضميرها يقين بالفنـــاء ، أو ما ترى فيهـــا أشنع العذاب ؟ ! وإذا صدق ما يقول هـــذا الكاتب العظيم أو ما يكون من العدل أن نقـــدر هـــذه العقوبة بوقعهـــا النفسى وتكافؤ هـــذا الواقع ما ارتكب من جـــرم ، وألا نكتفى فى مناقشتها بمـــا نتوقع من صونهـــا لحيـــاة الجمـــاعة ؟

(٤)

العبيط والنســاء

رأينــا العبيط فى عــدة مواقف : رأينــاه مع مارى والأطفــال ، ورأينــاه مع خادم وسط الحياة الاجتماعية ، واستمعنا إليه يتحدث عن عقوبة الإعــدام ويصف تنفيــذ تلك العقوبة الشنيعة ، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك أنه كان رجلا عاطفيــا تقوده مشاعره أكثر ممــا يقوده عقله ، فهو يحنو على مارى ويصادق الأطفال لا حرصا على مبــادىء أخلاق يؤمن بهــا بل مجــاراة لدافع قلبى ، ودوافع القلب قل أن تتفق مع مواضعات الحيــاة الاجتماعيــة • وهو رجل ذو فلسفة خاصة فى الحيــاة ، فلسفة شعورية أيضا لأنهــا لا تتلقى شيئًا من الخارج ومن ثم لا تنصت إلى عرف ولا تفطن إلى ليــاقة ، ولهــذا نراه لا يرى عيبــا فى أن يجالس الخادم وأن يعترف إليــه بأموره الخاصه إيمانا منــه بأن الناس سواء وأنه لن يضيره فى شىء أن يقص على ذلك الخــادم ما يريد • وهو لا يعتقــد أن هنــاك ما يستحق الكتمان ولا يقيس الأمور بنتائجهــا الخارجية ولا يدرك النفس البشرية كما صاغتهــا أوضاع الحيــــاة بل يراها دائمــــا فى طبيعتها الفطرية ، حتى لنحسبه عاجزا عن أن يقدر ما قد يصيبه من ضرر عندما يأخــذ النــاس بهــذا النوع من المعاملة ، وإن كان من الذكاء بحيث يدرك الحقيقــة النفسية لمن يخاطبه ويفض غلافها دون أن يأبه لهــذه الحقيقة أو يقيم وزنا لمــا قــد يصدر عنهــا من نتــائج ضارة به ، وهو أخيرا حار الخيال واسعه حتى لنراه يتصور من التفاصيل المروعة ما نعجب كيف يخطر لخيال بشرى ، وفى وصفه للإعــدام وإبرازه لهواجس من نفــذ فيــه ذلك الحكم من الدقــة والاستقصاء ما يشهد بأنه قــد بلغ من الحساسية حــدا يقرب من المرض •

كل هــذه مواقف تساعدنا على تخطيط صورة العبيط كما تصوره صورة ديستوفسكى ، ولكن الصورة لا يمكن أن تكمــل ما لم نعرض لعلاقته بالنساء ، وموقفه منهن ، فذلك محك عظيم الخطر فى حيــاه الرجــال •

ولقــد أحب العبيط فتاتين ، أحبهما معــا ، وكان حبــه عفيفــا متقدا ، أشبه ما يكون بحب الفروسية ، ولقــد لعبت طبيعة الفتاتين فى هــذا الحب الدور الحاسم ، كانت إحداهما : نستازيا امرأة عنيفه عنيــدة مجروحة الكبرياء ثائرة على أخلاق الرجال ، وكانت الأخرى أجلابيه بنت الجنرال ابنتشين فتــاة مترفعة فى غطرسة ، شــديدة الثقة بنفسها واحتقار من عــداها •

ولقــد بلغ من سذاجة هــذا العبيط أن ظن أن فى استطاعته ان يوفق بين الفتاتين وأن يحمل كلا منهما على محبة الأخرى أو مصافاتها على الأقل • ولقــد جرى بينــه وبين إحدى الشخصيات الثــانويه فى الرواية حوار يكشف عن تفكيره أوضح الكشف :

سأله محدثه وقــد هم بالزواج من نستازيا : تريد أن تتزوج من نســتازيا مع أنــك تؤكد لأجلابيــه أنك تحبهــــا ؟ ـــ آه ! نعــم نعم أحبهـــا ـــ آه ، إذن انت تحب الاثنتين معا ؟ ـــ نعم أحبهما ـــ يا للــه ! فكر قليلا أيها الأمير ، فكر فيما تقول ـــ آه بدون أجلابيه ، إننى •• إننى •• سأموت نائما ! لقــد خيل إلى وأنا نائم فى الليــله المــاضية أننى أحتضر • آه ، ليت أجلابيــه تعــلم كل شىء • آه لو علمت •• يجب أن تعلم كل شىء هــذا هو المهم • ولمــاذا لا نعلم كل شىء عن الغير عنــدما يكون ذلك الغير جانبيــــا ، هنــــا شىء لا أستطيع تفسيره • إننى لا أجــد اللفظ المعبر •• ولكن أجلابيــه ستفهمنى ، آه ! لقــــد آمنت دائمــــا بأن أجلابيــه ستفهمنى ! ـــ أيهــا الأمير إنهــا لن تفهم شيئا • لقد أحبتك أجلابيه كما تحب المرأة الرجل لا الفكرة المجردة ، أو ما تظن أيهــا الأمير المسكين أنك على الأرجح لا تحب هــذه ولا تلك ؟

لقد كانت نستازيا يتيمة تلقاها أحــد الأثرياء ، وهى فى الخامسة من عمرها ونشأها بضياعه حتى إذا بلغت الثانيــة عشرة وبدت عليها ملامح الخفــة والذكاء والجمال تعهــد الرجل تربيتهــا بدور العلم ، وبعد أن أتمت دراستها اتخــذ منها عشيقة له ، ولكن العشق لم يدم طويلا إذ فكر فى الزواج من غيرها ، وعنــدئذ أظهرت الفتــــاة من الحزم وقــوة العزم ما حير العقــول ، إذ أتت إلى بطرسبرج حيث أخبرت عشيقها أنها تمانع فى زواجه وإن لم تشعر نحوه بغير التقزز والاحتقــار • ولم ير العشيق مخرجا غير أن يحتــال فيزوجهــا من سكرتير صديقه الجنرال إبنتشين ، ونستازيا تسخر من محاولتــه ، وهى موضع رغبــة الكثيرين من الأثرياء ، حتى لقـــد أتاها ليــله أحــد هؤلاء المترفين العربيدين حاملا آلاف الجنيهات ، وكان العبيط حاضرا ، وعرض العربيــد ماله ولكن العبيط حرص أن يتلف عليــه أمره فعرض على نستازيا الزواج منه • ولكن نستازيا أخذت المــال وألقت به إلى نار المدفأة والتفتت إلى سكرتير الأمير خطيبها المزعوم ، وقــد كان حاضرا هو أيضــا ، وطلبت إليــه أن يستنقذ المــال من النــار ، وهو لا ريب لم يدفعــه إليهــا غير ما وعــد بــه مربيهــا وعشيقها من ثراء ، ولكن الخطيب يرفض أن يمــد يــده إلى هــذا المــال ، وإن انتهى بــه الأمر ففطن إلى ما فى موقف نستازيا منــه من سخرية فعــدل عن خطبتــه • وتعلقت الفتــاة بالعبيط لسذاجته وشــذوذ أطواره ، تلك السذاجة وذلك الشــذوذ اللذين لا يخلوان من شهامة حقيقية ، وكان شعورها نحوه مركبــا عجيبــا من دوافع القلب وغرائز الحيــاة • لقــد وجدت فيــه شيئا جديدا فى الوسط الذى تعيش بينــه ــ تصرفاته تلقائيــة ، وحركات نفسه لا يدخلها تقــدير ولا حساب ، وفى سذاجته من السحر ما يغرى نفســا يقظة كثيرة الحنــايا كنفسها المرة العميقة ، لقــد كان بينهما من التجاذب مثل ما بين الضياء والظلمة •

وأما أجلاييــه بنت الجنرال فقــد تغير موقفها منــه ، فبعد أن كانت لا تستمع إليــه إلا ساخرة متعالية ، لم تلبث صراحته وبساطه

نفسه أن حطمت فى نفسها الكبرياء ، فإذا بها تتعلق به وترى سعادتها فى أن تقوم على رعايته • ولعلها وجدت فى تلك الرعاية ما يشبع الكبرياء القديم • وهذه حقيقة قد تفسرها غريزة الأمومة فى النساء من جهة ، ونزعة الكبرياء من جهة أخرى • وبقدر مافى نفس تلك الفتاة من تعال كان ألمها من أن تنافسها نستازيا • واكتوى موتشكين بنار الاثنتين يعذبنه مر العذاب ، وهو المؤمن بأنه لا محل لهذه العداوة • وكان يوم التقت فيه الفتاتان بحضوره ، وإذا بالبغض الذى طال كبتهما له ينفجر • وأخذ الرجل ما يشبه الذهول ، فضرع إلى إجلابيه أن تصافى نستازيا : « هذا لا يمكن •• أو لاترين إلى أى حد بلغ بها الشقاء ؟ » ولكنه لم يكد يلفظ تلك الكلمات حتى أنزمته الصمت نظرات اجلابيه المروعة • لقد رأى فى عينيها ألما وبغضا لا حد لهما ، وكان الوقت قد فات ، فأجلابيه لم تحتمل برهة التردد التى مرت به فصاحت صيحة غيظ ثم اتجهت إلى الباب مسرعة •

وعدا العبيط من خلفها ، ولكن نستازيا أمسكته محدقة فيه بوجهها المقطب الشاحب وانفجرت شفتاها الزرقاوان بقولها « أتريد إذن أن تتبعها » ثم سقطت بين ذراعيه مغشيا عليها • فحملها إلى غرفتها ووضعها فى مقعد ووقف أمامها كالمتحجر • وخف أحد من فى البيت يبلل وجهها بالماء • وبعد هنيهه فتحت عينيها ولكنها لم تدرك شيئا إلى أن أفاقت ، فنظرت حولها ثم أرسلت صرخة وعدت نحو موتشكين وهى تصيح : « أنت لى ! أنت لى ! لقد ولت تلك الفتاة المتكبرة ، ها ها ها • عجبا أنا التى كنت سأتركك لها ، لماذا ؟ لأى سبب ؟ إننى مجنونة • مجنونة » ولكى تنتقم نستازيا من منافستها استبقت الأمير بمنزلها واعتزمت الزواج منه ، ولكنها فى يوم الزواج هربت مع ذلك الثرى الذى أحرقت ماله • وتنتهى المأساة بما يفزع ، فقد قتل ثرينا الفتاة ، واستفحل بموتشكين مرضه فأصيب بالعبط المسرف • ولقد كان فى المنظر الأخير من هذه المأساة ما يرعب الخيال ويلازمه فقد أمضى العبيط ومنافسه الثرى الليل قائمين على جثة القتيلة

مضرجة بالدماء ، وكان بينهما حوار شاق طويل اجتمع فيه الحب إلى البغض فى مزيج مركب من الشعور الانسانى الذى لن نسير غوره .

هذا هو موقف العبيط من الفتاتين . وموضع النظر هو إيمانه إيمانا ساذجا مؤثرا بأنه يستطيع أن يحب الفتاتين وأن يحملهما على التصافى إن لم يستطيع حملهما على المحبة ، وفى هذا الايمان ما يماشى فلسفته العامة التى تسلم بأن ما تستشعره النفس يجب أن يكون حقيقة واقعه وأن يقبله الجميع ما دام صادقا تلقائيا . وهو لايدرك ما فى نفوس الغير من صعوبات يجب أن يحسب لها حسابها . ولعله كان أصدق حسا من الفتاتين ، فأجلاييه لم يحتمل كبرياؤها ما لمحته من تردده بينها وبين منافستها فضحت بالحب فى سبيل الكبرياء . ونستازيا نفس غامضة لم تلبث بعد أن تحقق لها النصر ووجدت الرضى ـ إذ هزمت بنت الجنرال ـ أن عادت إلى صحوها فهربت فى يوم الزواج ، ونحن فى الحق لا نستطيع إلا أن نفضل الشعور المباشر على الشعور الملتوى . لقد أحب العبيط الفتاتين لنفسهما ، وإذا كانت مشاعر أخرى قد اختلطت بذلك الحب ومهدت له فهى أقرب للإيثار والشهامة منها للأثرة المتنكرة . فنستازيا كان يريد ان يستخلصها من مخالب السوء ، وأجلاييه كان فيها من توثب الذكاء ، وقوة الشخصية وجمال الروح ما يغرى بالحب . ومن هنا ترانا نتساءل كما تساءلنا من قبل : أحقا كان موتشكين من الغفلة بحيث يستحق أن يوصف بالعبط أم هى الحياة الاجتماعية لم تكتف بأن أفسدت بمواضعاتها معاملاتنا الخارجية بل امتدت إلى داخل النفوس حيث ألبسوا مشاعرنا الطبيعية أثوابا من التنكر لا تلبث أن تتبدد فتكون خيبة الآمال .

ترتران الترسكونى !

لا نظن أن اسم (ترتران) مجهول من أحد المثقفين وذلك للنجاح المنقطع النظير الذى لاقته شخصيته منذ أن خلقها الكاتب الفرنسى الشهير « الفونس دوديه » فى أواخر القرن التاسع عشر وجعل منها محورا لقصص ثلاث هى (ترتران الترسكونى) و (ترتران فى جبال الالب) و « ميناء ترسكون » فخلق منه أنموذجا حيا لذلك النوع من الناس الذين لايعرفون غير الثرثرة والزهو وادعاء البطولة والبأس والقدرة على عظائم الأمور بينما هم قوم مساكين يسخر منهم الناس ويستخفون بأحلامهم كما يستخفون ويسخرون ممن نسميهم فى لغتنا المصرية العامية المعبرة (الفشارين) أو (النتاشين) .

لقد أراد «الفونس دوديه» أن يصور فى شخصية ترتران جانبا من أخلاق سكان جنوب فرنسا وعلى وجه التحديد سكان مقاطعه « البروفانس » التى تقع غرب الجزء الجنوبى من نهر « الرون » ولذلك اختار بطله من مدينة « ترسكون » الواقعة فى تلك المقاطعة ، ومن هنا أتى اسم « ترتران الترسكونى » .

ولقد أغضب بذلك « الفونس دوديه » أهل هذه المقاطعة كلها وهم أهله وعشيرته ، ولكنه حاول الاعتذار بقوله إن أخلاق ترتران لاتنفى ما يتمتع به أهل البروفانس من خصائص روحية وشعرية .

وفى الحق أن « ترتران » لقهقهه فى فم الزمن ، وقصته إن هى إلا قصة فشار يعتقد أنه من قتلة الأسود فيبحر ذات صباح إلى الجزائر بشمال إفريقيا ليصطاد عددا منها ثم يعود فخورا مزهوا مع أنه لا يحمل غير جلد أسد واحد أعمى أصيب بكساح من النقرس ومات فى إحدى الحظائر ! ولقد أغراه هذا الانتصار المضحك بأن يرحل مرة أخرى لينافس السويسريين فى تسلق الجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج فكانت له مغامرات تضحك الثكلى فوق « اليونج فراو » و « الجبل الأبيض » . وقد أودع دوديه هذه المغامرة قصته « ترتران فى جبال الألب » . وعاد ترتران من جبال

الألب ولكنـــه لم يمكث طويلا ببلدته حتى وقع فريسة لرجل واسع القـــدرة فى النصب والاحتيال فأوهمه بوجود جزيرة غنيـــة بثرواتها فى « البولينيزيا » ودعاه إلى أن يصطحب معه جميع سكان تراسكون ليحتلوا تلك الجزيرة • وأودع (دوديه) قصة هـــذه المغامرة المحزنة روايته الثالثـــة المسماه (ميناء تراسكون) • وبانتهاء هـــذه المغامره تنتهى حيـــاة ترتران بعـــد أن خلدت صورته فى خيـــال البشر إلى يومنـــا هـــذا ••

لقـــد صور المولف بطله منـــذ البـــدء على نحو ينطق بخصائصه النفسية • وما نكاد ندخل بيتـــه ، وبخاصة حجرة جلوسه — حتى نرى العجب ، نرى الجدران مغطاة بأسلحة من كافة بلاد العـــالم ولكنهـــا رتبت ونظفت على أكمل نحـــو ووضع على كل نوع منهـــا اسمه ومصدره حتى لكأننـــا فى صالة عرض لا فى حجرة بطل مغوار وصـــائد منهمك فى الصـــيد • وبالرغم من أن هـــذه الحجـــرة كانت لـــ (ترتران) فإنه قـــد احتاط للأمر وحرص على أن يدرأ عن نفسه (الجسوره) كل خطر ، فألصق ببعض تلك الأسلحة تعليمـــات هامة مثل (احـــذر اللمس !! سهام مسمومة) أو « بنادق معبـــأة ••• ابتعـــد عنهـــا » وفى وسط هـــذه الحجرة كنت ترى كافة معـــدات الراحة ، بل الرخاوة التى لا يـــدرى أحـــد كيف تتفـــق مـــع بطولة « ترتران » المزعومة ، وخشونته المدعاة ، وتعلقـــه بشظف الفتـــك والقتل والصيد واقتناص الأسود • على أنه لا غرابة فى شىء من كل هـــذا فقـــد جمع ترتران بين تكلمـــا الشـــخصيتين الخالدتين اللتين صورهما « سيرفانتيس » وهما شخصية « دون كيشوت » وشخصيه تابعه (سانكوبانزا) ففيه من (دون كيشوت) نزعة البطولة الوهميه وفيـــه من (سانكوبانزا) جنوحه إلى الســـلامة وإيثاره الدعة حتى ليجرى فى نفسه الدفينـــة حوار بين الشخصيتين فتدفعـــه إحداهما إلى أن يغطى نفسه بالمجـــد بينما تدفعـــه الأخرى إلى أن يغطيهـــا بالصوف التماسا للدفء !

ومع ذلك فقــد أنتصرت شخصية « دون كيشوت » على شخصية (سانكوبانزا) فانتصر الزهو والغرور على الدعة وإيثــار السلامة .

لقــد اتفــق لبطلنا الهمام أن أخــذته نشوة التهليل وهــو عائد من صــيد يوم أحــد من تلك الأيام الخالدة فــوعد بأن يغــادر فرنســا كلهــا إلى الجزائر فى شمال أفريقيــا ليصيد الأســود ، وســجل أهل القــرية عليه وعــده وأخــذوا يستنجزونه الوفاء به حتى انتهى بهــم الأمر إلى التنــدر والسخرية ، فجرت الأغانى فى الشوارع وهى تردد « هل سيسافر ترتران أم لا . » . ! ولم يجــد ترتران مناصــا من السفــر لأنه فى الواقــع كان رجــلا مخلصــا وإن لم يخل من بله وغفلة ، وقــد جسم خيــاله مغامرات البطولة التى تنتظره حتى لــكأن الخيال قــد اســتحال حقيقة ، ولم يعــد ترتران نفســه غــير حلم يدب فى الحياة — حلم رائــع مشرق . وحدثتــه تلك الأحلام بأن الجزائر فى أفريقيــا وأفريقيــا موطن الأســود وإذن فلن يــكون عليــه إلا أن يتربص لتلك الأســـود بمدخل مدينــة الجزائر نفسهــا .. ولقــد كان له ما أراد فســافر وتربص لهــا بالفعــل وكان على الأســود أن تأتى ! وأنفــق ليله فى الانتظــار حــتى إذا سمــع حفيف أوراق أطلــق الرصــاص وقتــل الفريســة ؛ وإذا بهــا حمــار مسكين كان يستنشق نسيم الليــل ويلتمس فى الأرض اليــابسة عــودا رطبا . وحدث ترتران خيــاله بأن الحمار أســد ما دام ذكــرا لا أنثى وأخذ ينتظر أنثــاه بأقــدام ثابتــة !

ولو أننــا تركنــا ترتران بالجــزائر حيث تنتهى رحلتــه بجلد الأســد الأعمى الذى مات فى الحظيرة ، لننظر إليــه وهــو يتسلق جبــال الألب لرأيناه يربط نفسه بالحبال .. إلى زميله فى التسلق « بونبار » حتى يعيشا أو يموتا معــا ! وقــد اتفــق لســوء حظ البطلين أن تعلق الحبــل الذى يربطهمــا بصخــرة بارزة ، تعلق على أحــد جانبيهــا (ترتران) وعلى الجانب الآخــر — بونبار — وأخــذ كل منهما يحــدث نفســه بقطع الحبــل لينجو بحياته حتى

انتهى بهما الأمر إلى قطعه فى وقت واحد ، وإذا بأحدهما يتدحرج فى أرض فرنسا والآخر فى أرض إيطاليا ! وبالرغم من كل هذا لم يكد ترتران ينجو من الهلاك ويعود إلى ترسكون حتى أخذ يقص على أهل بلدته من قصص الخيال كل مثير وكأنه يحكى واقعا ويقص حقائق ، وقد استقرت بأعماق نفسه مشاعر تحدثه بصوتها الخفى بأن الكذب لا ضير فيه ما دام لا يلحق أذى بأحد .

وانتهى الأمر بـ « ترتران » بأن وقع فريسة لرجل خطير هو — دوق مون — البلجيكى الذى استطاع ببروده وإيجاز لفظه واتساع حيلته أن يطوى ترتران فى راحة يده وأن يوهمه أنه قد اشترى جزيرة فى البولونيزياوان هذه الجزيرة جنة الله فى أرضه وأن بطلنا المغوار باستطاعته أن يصبح ملكا لها وما عليه إلا أن يحمل إليها أهل ترسكون ليستعمروها ويشيدوا فيها المدن ويؤسسوا امبراطورية . ولقد تم للدوق المحتال ما أراد ، ولكن الترسكونيين لم يكادوا يلقون مرساهم على الجزيرة الموعودة وعلى رأسهم زعيمهم النابه حتى هالهم ما رأوا .. جزيرة جرداء لا يسكنها غير نفر من الموحشين آكلى لحوم البشر .

ولم يشأ ترتران أن يترك اليأس يتطرق إلى نفسه الباسلة فاشترى هو الجزيرة — التى لم يكن — دوق مون — قد اشتراها كما زعم — ببرميل من الروم قدمه إلى ملكها المتوحش ثم احتل الجزيرة ونصب نفسه ملكا وتزوج من بنت الملك المتوحش الشديدة الشبه بالقردة حتى فى اتخاذها أغصان الأشجار مأوى لها ... ولكن ترتران مع ذلك راض مغتبط فها هو ملك وزوج لبنت ملك !

ومع ذلك فان هذا الحلم ذاته لم يلبث أن تبدد فقد ظهر أن الجزيرة ملك للانجليز . واتفق أن مرت بشاطئها طراده انجليزية لمحت علم ترتران يرفرف فوق دار ملكه فدهمت

الجزيرة ومن فيهـا وقادت الجميع أسرى • وتذكر بطلنـا قصـة نابليون ووقوعه أسيرا بيـد الانجليز وحركت تلك القصـة خيـاله فتصور أنه نابليون واتخـذ له سكرتيرا يملى عليـه ذكرياته كمـا فعل نابليون فى منفـاه وطابت لذلك نفسه •

إلا أن القضـاء القـاسى لم يترك ترتران إلى حلمـه الأخـير وذلك لأن أسطـولا فرنسيـا لاقى الطـرادة الانجليزية وتسلم منهـا بطلنا ومن معه لتتولى فرنسا محاكمتهم على جرمهم • وسرعان ما تنصـل الترسكونيـون من الجريمة واتهمـوا ترتران بالنصب والاحتيـال اللذين وقعـوا فريسـة لهمـا فأودع ترتران سـجن ترسكون نفسها •

بذلك أصـبح ترتران فى حـكم المنتهى ولقـد رمـز « دوديه » لهـذه النهـاية بأن حمله على أن يعبر الرون بعـد أن برىء وأن يغـادر البروفانس — يغـادر بلاد الأحلام — إلى بلاد الواقع • وكان ذلك بمثابة مـوته الأدبى • وفى أرض الواقع أخـذ ترتران يحلل نفسه ، فإذا به لم يعـد ترتران المغامر الحالى بل أصبح رجلا واقعيـا مسـكينا يدرك أنه دون مستوى أحلامه وأضعف عـزما من خيـاله •

ولم يطل بترتران المقـام فى أرض الواقع فقـد عاجله المـوت بمعناه المـادى وشيكا وكان موته فى يوم خسـوف الشمس وكأنه قـد تخير هـذا اليوم ، أو كأن الشمس قد قصدت فى ذلك اليوم إلى الاحتجاب •

الملك لــير

لا نظن أن عقــلا بشريا قــد اســتطاع أن يشــترى الحمــق بالألم ، والجنــون بالحكمة • والفتــور بالعطف مثلمــا اســتطاع « وليم شكسبير » فى مسرحيته الفــذة عن الملك لير •

ووليم شــكسبير لم يخلق من العــدم قصــة ذلك الملك البــائس الذى جــرد نفســه من كــل ما يملك بعــد أن أثقلتــه الشيخوخه ليعطيــه لبنتين متملقتين منافقتين شريرتين ويحرم البنت الثالثــة الوفيــة المخلصة الحبيبة ، كما لم يخلق من العدم قصة دوق جلوستر الذى استطاع ابنــه غــير الشرعى أن يسلبه ما يملك وأن يحــرم أخاه الشرعى من ذلك المــيراث العــريض — نعــم لم يخلق وليم شكسبير من العــدم هاتين القصتين اللتين جمــع بينهما على نحــو رائع فى مسرحية لير الخالدة •

فقــد كانت القصــة الأولى من بــين الأســاطير الشعبية التى تناقلتها الأغانى بل وذكرها المؤرخــون عنــد الحــديث عن تاريخ إنجلترا القــديم • كما وردت القصــة الثانيــة فى اركاديا « السير فيليب ســدنى » حيث طالعها بلا ريب شاعرنا العبقرى •

لم يخلق إذن وليم شكسبير هاتين القصتين ولــكنه خلق ما هــو أروع منهمــا ، ونعنى به تلك الشخصيات الخالدة التى صــورها فى مسرحيته وبخاصة شخصية الملك لير بملامحها النفســية وقسماتهــا الأخلاقية وما تنشره من حكم عميقة تبــدو جنــونا لانفصام الرابطة بينها ، ولكنها منفردة كنوز من العقل لا يخبو لهــا ضوء •

ونحن لا نكاد نلمح الملك لــير فى مطلع المسرحية حتى تأخــذنا الدهشة من غفلة هــذا الرجل المسكين بل وغباوته إذ نراه فريســة لنفــاق مفضــوح وملق ظاهر لا ندرى كيف يقــع فى حبائلهمــا كالطفــل الصغــير • فابنتاه « جــونريل » و « ريجان » لا يــكاد يسألهما عن مبلغ حبهما له وتعلقهما بــه ويســتمع إلى جوابهمــا الواضــح الــكذب بحكم ما فيــه من إسراف مرذول حــتى تترنح

أعطافه ويرى فى جــواب ابنتــه الثالثــة « كورديليا » التى أبت أن تجارى أختيهــا فى نفاقهمــا ــ جفــوة بل عقــوقا . مــع أن « كورديليــا » لم تقــل غير الحق وقــد عقــد الحياء لسانها وحد الاخلاص من لفظها فقــالت أنهــا تحبه كمــا تحب البنت أباها . وعندما تتزوج سيكون لزوجها ــ بحكم الطبيعة ذاتها ــ هو الآخــر نصيب من حبها ــ نعم رأى لير فى هــذه الاجابة جفاء بل عقوقا ، وما نحن بحاجة إلى أن نظهــر ما فى هــذا الرأى من غبــاوة بعــد أن قال شــكسبير نفســه أن (لــير) قــد كــان من الغفلة بحيث لم يفطن إلى أن عــدم إسراف الاناء فى الرنين ليس معناه الخلو ، أى أن اقتصــاد (كورديليا) فى الألفــاظ وعــدم طنطنتها بحبهــا لأبيهــا لا يفيــد أنهــا كانت أقل حبــا له من أختيها بل إن العكس هــو الصحيــح فالقلب الملىء لا يسرف فى الرنــين كمــا يسرف القلب الخالى .

ومنــذ تلك اللحظة أخــذنا ننتظــر فى لهفــة ما ســينتهى إليــه مصير هــذا الرجل ذى الغفلة . ولم يطل بنــا الانتظار فان ابنتيه اللتــين ذهبت كــل منهما بنصف ملــكه على أن تستضيفه شهــرا بالتناوب هو وحاشيته المؤلفــة من مائة فارس لم تلبثا أن تنــكرتا له وأذاقتــاه مر الهــوان حتى انتهى به الأمر ــ بعــد أن أيقن أن كلتيهما فى الشر ســواء ــ إلى هجرهما معــا والانطلاق وسط الطبيعة التى ثارت بهــا تلك الليلة عواصف قلمــا رؤى لهــا مثيل ومعــه مضحكة الذى يرسل صــوت العقل الهــادىء وسط صخب الزوابــع ، ثــم رجل منقطــع النظــير فى التضحية والوفاء هــو (ايــرل كنت) الــذى تنــكر فى ثــوب خادم لــكى يستطيــع مصاحبة الملك المسكين فى رحلة بلواه .. وآوى الجميــع إلى كوخ يتقون به شر الأعاصير . ولكن كيف السبيل إلى اتقائها وهى تحت جمجمة (لــير) أشــد صخبا منهــا فى فجاج الأرض وبين أدواح الغابات !

هــذه العـــواصف الهوجاء التى أحاطت بلير وصحبه لم تــكن فيما يبــدو ــ غير أصداء لمــا أشرنا إليـــه من اضطرابات فى عقل لــير المسكين وكان الغيظ والألم قــد بــددا من عقله ضبابا كثيفا فأخــذ ينشر الحــكم العميقـــة غــير مرتبطة فيما بينهــا برباط • ولا ملابسة فى ظاهرها لموقف ، حتى ليخيل للناظر السطحى أنهــا ليست حكما بل هذيان مجنون طارت المحن برشـــده •

ورأى الرجـــل الوفى (ايرل كنت) •أن ينجـــو بالملك المســكين إلى أرض أمينـــة فاحتـــال حتى نقله إلى مينـــاء دوفــر ليــكون على مقــربة من فرنسا التى كانت كورديليــا المخلصـــة الصـــادقة قـــد تزوجت من ملـــكها • ومن دوفر سافر إيرل كنت إلى فرنسا حيث اخبر كورديليــا بمــا قاســاه أبوها من محن • واستطاعت هــذه البنت الخيرة أن تقنـــع زوجها بأن يسير معهــا جيشا يرد إلى أبيهــا كرامتـــه وينزل بابنتيـــه الخائنتـــين ما تســتحقانه من عقـــاب • ولـــكن القضـــاء الذى لا يريـــد ــ لحكمة نجهلهـــا ــ أن ينتصر الخير دائمـــا على الشر لم يمــكن كورديليا مما أرادت ، فانهـــزمت جيوشهـــا ووقعت هى نفسها أسيرة • وظلت فى السجن حتى أسلمت روحهـــا الطاهرة •

ومـــع ذلك فان نفس القضاء العـــادل يطلق للبنتين حبل الاثم : فانهما لم تلبثا أن تنكرتا لزوجيهما كمـــا تنكرتا من قبـــل لأبيهما ، وقـــد وقعتـــا معـــا فريســـة لذلك الشيطان المـــارد (ادموند) ابن جلوستر غـــير الشرعى الذى أغراهما بحبـــه فسقطتا فى غوايته وما أن مات زوج ــ ريجان ــ وأرادت هـــذه المـــرأة الشريرة أن تتزوج من أدموند حتى عصفت الغـــيرة بأختهـــا ــ جـــونريل ــ فاغتالتها بالسم ظانة أنهـــا ستنفرد بادموند ، ولكن القضاء لم يقف عن ملاحقتها هى الأخرى فقـــد اكتشف زوجهـــا خيانتهـــا وألقى بهـــا فى السجن حيث لقيت حتفهـــا ، بل لقـــد لقى ادموند نفســـه مثـــل هـــذا المصـــير بعـــد أن ظن أنه قـــد وصـــل إلى عـــرش انجلترا • وشـــاء القضـــاء أن يكون هـــذا العـــرش نصيب دوق

ألبـانى زوج جونريل الذى كان أقـل الجميـع إسرافا فى الاثـم واقربهم إلى سلامة الضمير خلال تلك المحنة الطـويلة التى قاساها — لير — والتى لم يخلصه منها غير الموت الرحيم •

لقـد كفـر الاثم فى هـذه المسرحيـه الخالدة عن سيئـاته • فلقيت جونريل وريجان وادمونـد حتفهـم ، ولم يدهشنا من ذلك شىء فهـو من مالوف الأمـور ، وإنمـا الذى يدهشنا هـو كيف استطاع شكسبير العبقرى أن يحملنـا على أن ناسـو لآلام لـير المسكين ومحنته الـكاويه بعـد أن جابهنـا به فى مطلع المسرحيـه رجلا غافلا أحمـق سىء التقدير ضعيف البصر ، وتلك هى المعجزة وإن يكن سرها غير بعيد المنـال •

لقـد أوضـح النـاقد النـافذ الادراك (هالان) هـذا السر بقـوله — إنه وإن تـكن أصالة الابتـكار من الوضـوح فى كافة مسرحيات شكسبير بحيث يبـدو تخصيص واحـدة منهـا بالذكر إسـاءة إلى مسرحياته الأخرى — إلا أننـا مـع ذلك نستطيع ان نقـول إن هـذه الأصالة قـد بلغت الذروة فى الملك لـير • وربما كانت شخصية لـير نفسهـا أروع شخصية عرضت على المسرح • وهى إذا كانت تروق أكبر خيـال مغـرق فى الرومانتيكية إلا أنهـا قـد انتزعت من حقيقة الطبيعة • أنهـا شخصيـة رجـل عنيـد ضعيف محب لنفسـه يلوح لنـا فى الفصـل الأول أنه لا يمـكن أن تغتفـر غفلتـه ، ومـع ذلك فقـد استطاعت الآلام أن تصـل إلى هـذا الغفران ثـم ياتى ذلك الجنون الخارق الذى لا يطـرأ فجأة كمـا يحـدث فى بعض المسرحيات ، بل تنقطع لدى الرجـل خيـوط العقـل بالتـدريج خيطا بعـد خيط وسط جنـون الغيظ والألم ، وعندئذ نرى قواه العقلية تنطلق — كما يحدث فى الحياة — أشد — ما تكون فصاحة وسط المحن وذكريات الأخطاء السابقة • وللآلام فصاحة يزيدها قوة عـدم اسـتحقاقنا لهـا • وتتـدفق تلك الفصاحة فى جمل تحمل كل منهما حـكمة خالصـة ولـكنها فى مجموعها تبـدو جنـونا لانفصام الروابط بينهـا — أنهـا صوت العقل تحت جمجمة لم تعـد تعقـل •

روبنصون كروزو ...

يقول المؤرخون أن الكاتب الانجليزى دانيل فو قد استقى موضوع قصته الخالدة التى عرض فيها شخصية روبنصن كروزو من حادثة تاريخية وقعت بالفعل ، وهى حادثة البحار الأيقوسى (سالكرك) الذى ألقاه الربان (سترلنج) فى جزيرة جوان فرننديز المقفرة المهجورة فى عام ١٧٠٥ حيث عاش البحار المسكين أربعة أعوام فى عزلة تامة .

وروبنصن يرمز لغريزة إنسانية عميقة فى الطبيعة البشرية ونعنى بها غريزة الرحيل هروبا من الهيئة الاجتماعية .

وروبنصن يعرض أمام أبصارنا نشأة الحضارة واختراعاتها المختلفة ، وصراع الانسان الحامى الوطيس ضد قوى الطبيعة وسيطرته عليها خطوة خطوة ثم الدور الذى تلعبه إرادة القدر فى حياة الفرد .

ابتدأ روبنصن مغامراته الشهيرة بالهرب من أهله حيث قام بعدة رحلات على ظهر السفن ، ولاقى فى تلك الرحلات أهوالا كثيرة ولكنه أصر على عناده إلى أن انتهى به الأمر بالنزول فى البرازيل حيث اشتغل بالزراعة ، وجمع ثروة ليست بالقليلة ، ولكنه بالرغم من ذلك تعاوده نزعة الرحيل فيستقل سفينة مقلعة إلى غيانا ، وإذا بالعاصفة تهب فتلقى بالسفينة إلى مصب نهر الأرونو وتبدد ركابها الذين لم ينج منهم غير روبنصن إذ ألقته الأمواج على شواطىء جزيرة . وفى هذه الجزيرة عاش روبنصن ثمانية وعشرين عاما أعاد فيها تاريخ الحضارة بمخترعاتها وكفاحها ، وانتصاراتها على قوى الطبيعة ووسائل الحياة .

لقد أحس روبنصن فى اللحظات الأولى بعد نجاته من الغرق بنشوة الخلاص من الهلاك ولكن هذه النشوة لم تلبث أن تبددت

وأخـذ يتراءى لبصيرته حرج تلك الحالة التى وجـد نفسه فيهـا وحيـدا وسط جزيرة لا يسكنها أحـد •

ونظـر روبنصن فوجـد أنه لا يحمل معـه غـير سكين وغليون وقليل من التبـغ ، وتلك معـدات لا تغنى ، وانتهى به الأمر إلى تسلق شجرة تمدد فوق أغصانها فى انتظار المـوت •

ولكن دانيل فو لم يترك بطله فى مثـل هـذه الحالة التى لم يكن منهـا مخرج ، وذلك لأنه أعاد إلى ذاكرته المضنـاة ، أن السفينة التى تحطمت قـد ألقتها الأمواج على الشاطىء وألقت ما بهـا من أدوات وعـدد ومعـدات ، وخـف روبنصن عنـد الصبـاح إلى حطام السفينة وقـد أرهف الخوف واللهفـة من حواسـه فأخـذ يتفقـد ما على الشـاطىء المهجـور من عـدد وأدوات ويتخـير من بينها ما هو أكثر نفعـا له وعـونا على الخلاص ، وكان فى مقدمة ما حـرص عليـه الزاد العـاجل ثم الآلات الميكانيكية وأخصهـا صـندوق النجـار • وكم كان لاذعا أن نراه يتنـاول فى احتقـار ما عثر عليـه من نقود ذهبيـة وفضية ملقاه مـع حطام السفينة ! وماذا يفعل بمثـل تلك النقود التى كان يحرص عليهـا بالأمس ، وأصبحت اليـوم لا تجدى فتيلا وإنمـا يجدى التفكير والاختراع والعمل والتنظيم فى مصارعة الطبيعـة وتسخيرها لحيـاته المعلقـة بكف القضاء •

وأعمـل روبنصن فـكره وأخـذ يقلب أوجـه النظـر ليختـار محل إقامتـه ومأواه كأول مرحلة لاسـتقرار الحياة وسلامتها • وانتهى به الأمر إلى حفـر الصخر وإقامة خيمـة بداخله ، وأحاط الخيمة بسياج هى قطـع الخشب الذى صفـه فى ثلاثة صـفوف ولم يجعل لهـذا السياج بابا حتى لا يقتحمه عليـه شىء ولا أحـد بل اتخـذ لتسلقه سلمـا صغيرا يدليـه ويرفعـه بحبل وينقله من واجهـة إلى أخرى •

ولم يـكد ينقضى عام حتى كان روبنصن قـد نظـم حيـاته وأصبح يمتلك كلبا وقطتين ونسخة من الـكتاب المقـدس واتخـذ

من هـذه المجموعة الثلاثيـة رفاقه الدائمـين ، واعتـاد صـيد العنز ، واصطنع قلمـا ومحبرة لتـدوين خـواطره • وتطـورت خواطره ، فأصبحت يوميـات لم يـدر هـو نفسه لمن كان يكتبهـا وقـد انقطعت صلته بالبشر •

يوميـات روبنصن كنز لا يفنى • فقـد قص فيهـا مشاغل يومه وما كان يلاقى من صـعوبات ، ووسائل تغلبـه عليهـا • ومن تلك اليوميات نستطيع أن نستنتج مـدى الجهد الذى بذلته الانسانية الأولى فى اختراع أو صـنع ما يبـدو لنـا الآن تافها من الأشياء التى نستخدمها كل يوم •

وحـدث فى حيـاة روبنصن حادث خطير هـو إصابته فى أحـد الأيام بالحمى وشـعوره بالألم وخـوفة من المـوت ، وكانت تلك الحادثة سببا فى استيقاظ روحه النـائمة وكأنما قـدر على البشر أن لا يفـكروا فى مشـاكل الخلق والفنـاء والحيـاة والعـدم ، واللـه والقـدر إلا بحافز من الألم • فمنذ ذلك اليوم أخذ روبنصن يفـكر فى الأرض التى تحـوطه ، بـل وفى نفسـه وسر وجـوده وسرعان ما قاده هـذا التفـكير إلى وجـود اللـه خالق كـل شىء والمسيطر على كل شىء ، وعنـدئذ انبعث إلى نفسـه ذلك السؤال المخيف وهو لمـاذا شاءت إرادة اللـه أن تلقى به فى هـذه الجزيره الموحشة وأى ذنب جنـاه ليتحمل مشقات هـذه الوحشـة • وإذا بصـوت عميـق يصيح به ، وهـو صـوت الضمير يدعوه إلى أن يتساءل ولمـاذا لم يهلك مـع الهـالكين منـذ زمن بعيـد ولمـاذا كان نصيبه هـو دون غـيره النجاة ، ولم يستطع بطلنـا عنـدئذ إلا أن يخر على ركبتيه ليشكر اللـه على السراء والضراء •

وفى الصباح البـاكر أخـذ روبنصن الكتاب المقـدس وابتـدأ فى قراءته قـراءة دقيقـة منظمـة ، وكلما أمعن فى القراءة تسللت الطمأنينة إلى قلبـه وانتشرت روح الرضـا فى جوانحه • واستمر

روبنصن شهرين على هـذا المنوال وإذا به يسمو فوق الحياة ويجد فى اللـه سندا لا يركن إليـه إلا وجـده إلى جواره •

واشـتد ساعد روبنصن باهتـدائه إلى اللـه وتفتحت نفسـه فأخـذ يضـع الخطط الواسـعة لاستكشاف الجزيرة واستعمارها حتى أصبح وكأنه ملك عليهـا •

ومـع ذلك فاننـا نراه يفـزع من مجرد التفكير فى الانسـان واحتمال لقياه •

ومن غـريب المصـادفات أن يلمح روبنصن فى صـباح أحـد الأيام على الشاطىء خمس زوارق فيقترب منهـا وإذا بهـا قـد أفرغت حمولتها وإذا بهـذه الحمولة جموع من المتوحشين اجتمعوا حول النـار ليشووا لحما بشريا أخذوا فى إعداده لطعامهم • وإذا بعبد معـد للشىء يفلت منهم ويعـدو ملء رجليـه فأخذ روبنصن يلاحقه فى العـدو حتى استطاع أن يلحق به وأن يستأنسه وإذا به عبـد لطيف وديع ليس فيـه ما يدعو إلى النفرة غـير ما اعتـاده من أكل لحم البشر • ودرب روبنصن عبـده على كافـة الأعمـال واتخذ منـه رفيقا سماه جمعه وجعـل منـه تلميذا يطبق عليـه كل ما هـدته إليـه عبقـريته من منـاهج التـدريس حتى لقـد وصل به إلى إدراك وجـود اللـه وإيقاظ الضمير المستقر فى أعماقه وسرعان ما ارتفع جمعه إلى مستوى روبنصن نفسه فأصبح ندا له ورفيقا بل أخا ، وهنـا أحس روبنصن بأنه قـد وصل إلى قمـة السعادة •

ولكن السعادة بطبيعتهـا قصـة قصـيرة العمـر ولذلك لا نبث أن نرى سفينة إنجليزية تمر بالشاطىء ونشاهد بحارتها يثـورون على الربان فيتـدخل روبنصن فى الأمر وينجـو بحياة للربان ،

ثم يصعد معـه إلى الباخرة هـو وجمعه وتعـود بهـم البـاخرة إلى إنجلترا بعـد أن خلفوا فى الجزيرة نفرا من البحارة استعمروها والحقوها منـذ ذلك التاريخ بممتلكات التاج البريطانى •

وهـكذا غادر روبنصن جزيرته ، وكأنه قـد غادر فيهـا بهجـة الحياة ، ولكنه حمل معه ذكراها ـــ حمـل قبعتـه ومظلته الشهيرة وأنفق ما تبقى له من أيام فى انجلترا وكأنه غريب ، وكأن ما يحوطه من بشر وما يغمره من مجتمع لم يزده إلا وحشة على نحو ما يزداد إحساسنا بالصمت كلمـا اشـتد من حولنا صخب بحر هائج •

محتويات الكتاب

صفحة

الإهداء ٣
مقدمة للسيدة ملك عبد العزيز ٥
جفروش ٢١
فيجارو ٢٨
دون كيشوت ٣٥
فاوست (١) ٤٤
فاوست (٢) ٥٣
فاوست (٣) ٦٢
هاملت (١) ٦٨
هاملت (٢) ٧٦
ألست ٨٤
بيتريس : (١) فى عهد الشباب ٩٣
بيتريس : (٢) فى الكوميديا الإلهية ١٠٣
جوليان سوريل ١١١
إبراهيم الكاتب ١٢١
فيليسيتيه ١٢٨
الأستاذ بتلان ١٣٥
راستنياك ١٤٣
أوليس : (١) فى الإلياذة ١٥٧
أوليس : (٢) فى الأوديسا ١٦٥
أوليس : (٣) فى فيلوكتيت ١٧٣

صفحة

أوليس : (٤) فى الآداب الحديثــة ١٨١
العبيط : (١) العبيط مع مارى والأطفال ١٨٨
العبيط : (٢) العبيط فى الحياة الاجتماعيــة ١٩٩
العبيط : (٣) العبيط والإعـــدام ٢٠٥
العبيط : (٤) العبيط والنســاء ٢١١
ترتران الترسكونى ٢١٦
الملك لــير ٢٢١
روبنسن كــروزو ٢٢٥

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٧٧

مطبعة نهضـــة مصر
الفجالة ـــ القـــاهرة

مطبعة نهضـــة مصر
الفجالة ـــ القـــاهرة

الثمن ٧٥ قرشـــا

